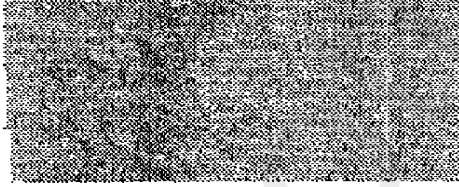


[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

مطبوعات

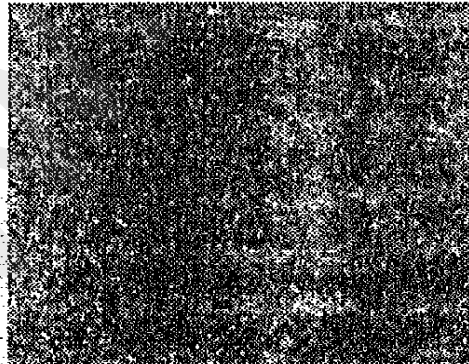


قطاع الثقافة



رئيس مجلس الإدارة :

**إبراهيم سعده**





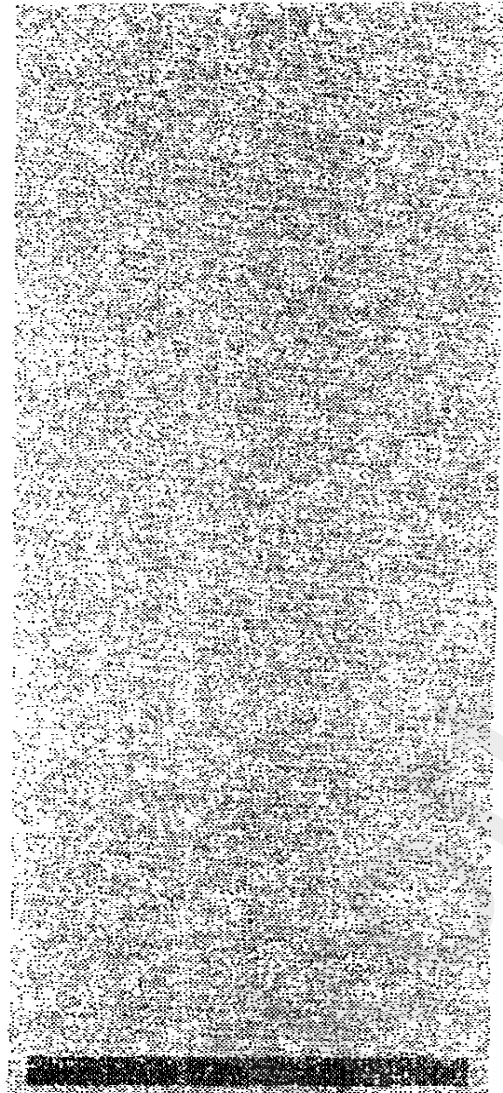
قطاع الصحافة

دار أخبار اليوم  
قطاع الصحافة  
جمهورية مصر العربية  
٦ ش الصحافة القاهرة  
تليفون وفاكس: ٥٧٩٠٩٣٠١

إحسان عبد القدوس

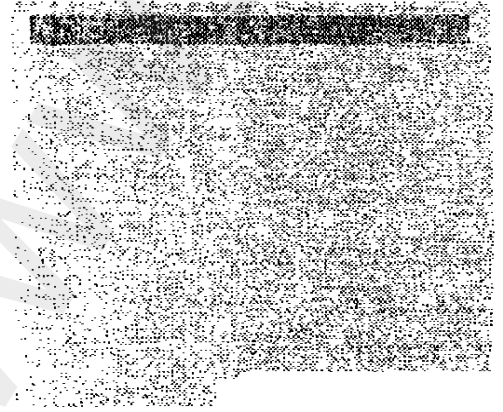
# عطية من الصفيح

مجموعة قصص تصور  
قطاعات مختلفة من  
المجتمع، وتكشف خبايا  
النفس البشرية، وتطالع  
الواقع الإنساني



الغلاف بريشة الفنان :

عمروفهمى



## علبة من الصفيح الصدئ . .

خرجت من القرية.

ولن أعود.

ولست حزينا.. ولا أسفا.. بالعكس.. إنى أحس

براحة غريبة، وأعصابى هادئة كما لم تهدأ من

قبل، وابتسامة كبيرة تنطلق فى صدرى، وتلقى بظلها على

شفتى.. أحس بإحساس الأب الذى اكتشف فجأة أن ابنه قد

كبر وأصبح رجلا قويا.. والأب هو دائما آخر من يكتشف أن

ابنه قد أصبح رجلا.. رجلا لم يعد فى حاجة إلى أبيه!!

والواقع أنى لم أتعمد الخروج من القرية، ولم أكن قد

اتخذت قرارا بعدم العودة إليها إنما كل هذا حدث فجأة.

كنت جالسا فى المندرة مع شقيقى الأكبر عبدالرحمن،

ومعنا الشيخ حسنين مدرس المدرسة الإلزامية، ومحمد

أبوعوف، وعبدالله رضوان، وأحمد الرفاعى.. وكان أخى

عبدالرحمن يتصدر المجلس كعادته منذ وفاة أبى، مهيبا رزينا،

جالسا على الأريكة العتيقة، وقد طوى إحدى ساقيه تحته،

ورفع ساقه الأخرى وثناها، وألقى ذراعه على ركبته، وترك مسبحته تتدلى من يده، وقد تباعدت حباتها فوق الخيط الذى يربطها، فكلما ألقى حبة منها اصطدمت بالحبة التى تحتها فى صوت مسموع.. وكانت تمضى الساعات ولا يصدر عن أخى صوت، إلا صوت حبات مسبحته وهى تصطم بعضها ببعض.. فإذا توقف هذا الصوت، كان هذا إيذاناً بأن أخى يهم أن يتكلم، فيرهف الجالسون أسماعهم، ويمدون نحوه أعناقهم، فى تلهف واهتمام.. رغم أن أكثر ما يقوله أخى لا يستحق الاهتمام !!

وفجأة قال محمد أبو عوف :

- مش برضه نشوف طريقة نقوم بيها محامى للواد رزق. واهتزت أصابع أخى، وهى تعبت بمسبحته، وتسارعت دقات حباتها وهى تصطم بعضها ببعض.

وقال الشيخ حسنين وهو يمالأ شذقيه بحروف كلماته :

- رزق معنوه ومجنون، وهو معفى من المسئولية شرعاً، سواء بمحام، أو بغير محام.

وقال أحمد الرفاعى :

- والله أنا لسه مش مصدق.. حد كان يفتكر أن الواد رزق يعمل العملة دى.

وقال عبدالله رضوان وصوته القوى ينضح بالسخط :

- احنا المحقوقين.. كنا سايبينه طايح فى الكفر كله واحنا عارفين أنه مجنون.

ورد محمد أبو عوف فى عصبية :

- يعنى حد كان عارف أن جنانه يوصل لحد كده.. ما هو طول عمره عايش فى الكفر، ما حدش شاف منه حاجة تخوف.

وأحسست أنى لم أعد أستطيع أن أسمع مزيدا فى موضوع رزق.. منذ أسبوع والقرية كلها تتحدث عن رزق.. وما يقال يعاد.. وكل ما يقال كلام ساذج.. إن أحدا لن يفهم مشكلة رزق إلا أنا، وبرغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أشرح فهمى لها، لأن أحدا من أبناء القرية لن يفهمنى.

وأحسست أيضا أنى لم أعد أطيق سماع دقات حبات مسبحة أخى عبدالرحمن.. خيل إلى أنها دقات خطوات الفناء.. دقات قلب عالم يموت.. وأحسست بها تقع على أعصابى، وتدفعنى إلى التحدى.. تحدى الفناء.. تحدى العالم الذى يموت.. تحدى أخى.. وأنا حريص دائما على ألا أتحدى أخى.. فقامت فجأة من مجلسى، وتمتمت دون أن ألتفت إلى أحد :  
- عن أذنكم.

وتوقفت دقات المسبحة، وشعرت بعينى أخى تتبعاننى إلى أن وصلت إلى الباب، ثم ارتفع صوته مهيبا رزينا يشقه خيط ساخر :

- على فين يا مأمون ؟

وأجبت وأنا ألتفت إليه لفتة سريعة دون أن ألتقى بعينيه :

- داخل جوه شوية.

وقال محمد أبو عوف :

- ما تتأخرش يا سى مأمون.. عايزين نرسى على حل فى

حكاية الواد رزق.

ولم أرد عليه.

خرجت من المندرة، ولكنى لم أتجه إلى داخل البيت.. خرجت من البيت كله، وسرت فى أزقة القرية، ورأسى منكس فوق صدرى، وعيناي على الأرض، اتتبع بهما أقدام الفلاحين الذين



يمرون بي.. الأقدام الحافية الكبيرة، السمراء المشققة.. وخيل إلى وأنا أتتبع هذه الأقدام وهي تتحرك، كأن الأرض نفسها تتحرك.. تسير.. تزحف.. وأسمع من حولي همهمات.. السلام عليكم.. العواف.. شى.. حا.. هع.. وأهمهم مع المهممين، وأنا أحس احساسا غريبا بأن هذه المهمة ليست سوى صوت احتكاك التروس التي تحرك قريتنا.. تروس بطيئة.. ولكن الحركة أكيدة.. واللون الأسمر.. لون الطين.. يملأ عيني المنكستين.. الأرض سمراء.. والجدران سمراء.. والأقدام سمراء.. وخيل لى أنى لو رفعت عيني فسأرى السماء سمراء.

وتوقفت عيناى عند قدمين.. قدمين صغيرتين، ولكنهما سمراوان أيضا، ومشققتان أيضا.. ورفعت عيني لألتقى بوجه «سبيلة»، وهو يطل على من تحت صفيحة الماء التي تحملها.. إنها دائما تحمل شيئا فوق رأسها.

ووقفت قبالتها أملا عيني منها.. عيناها المكحلتان.. شفاتها الرقيقتان الغامقتان.. ووجهها الهادىء الصبور، وقد اختلطت صفرتها بسمرتها.. وابتسامتها المهتزة الخجولة التي تحاول أن تخفف بها من نظرة استغاثة كبيرة تطل من عينيها.. إنى دائما أرى هذه النظرة فى عينيها.. نظرة الاستغاثة.. تستغيث بي.. منذ كنا أطفالا وهي تستغيث بي.. ولم أستطع أبدا إغاثةها.. ويرغم ذلك فهي لم تفقد الأمل.. إنها لا تزال تستغيث بي.. ولم تصدق أبدا أنى أنا الآخر كنت أستغيث بها، وأنى كنت أكرم استغاثتى فى صدرى.. وكلانا كان أضعف من أن يغيث الآخر. وطالت وقفتى قبالتها برهة.. حاولت أن أقول شيئا.. ولكنى لم أقله.. واهتزت شفاتها كأنها هي الأخرى تحاول أن تقول شيئا.. ولم نقله.. وبقينا صامتين.. ابتسامتى اليائسة تلتقى

بابتسامتها المسكينة، ونظرتى المستسلمة تلتقى بنظرتها  
المستغيثة.. ثم اهتزت ذراعها التي تسند صفيحة الماء فوق  
رأسها، فانسكب خيط من الماء فوق جلاببها الأسود.. وارتعشت  
رموشها في ارتباك، وانطلقت قطرات الخجل في وجنتيها،  
وتمتمت ببضع كلمات لم تصل إلى أذني، ثم استدارت وسارت  
في طريقها.

وانتابني شعور جارف بأنني لن أرى سبيلة بعد اليوم..  
لا أدري لماذا، فلم أكن حتى هذه اللحظة قد قررت أن أترك  
القرية، ولا أعود.. ووجدت نفسي ألتفت وراءها وأنظر إلى  
قوامها المفروود نظرة طويلة حزينة.. نظرة وداع.. ثم انتبهت،  
وتلفت حولي كأني خشيت أن يكون أحد قد ضبط نظرتي.. ثم  
عدت أنكس رأسي فوق صدري، وأسير..

وتجاوزت في سيرى أزقة القرية، وأخذت أسير على حافة  
المصرف.. عيناى منكستان على الأرض أتتبع بهما أقدام  
الفلاحين التي تمر بى.. ولم أرفع رأسي إلا عندما مررت  
بضريح أبى.

إن لأبى ضريحا كبيرا فى القرية.. مزار.. أقيم خارج منطقة  
المقابر، على حافة المصرف.. وله قبة خضراء، وفوق القبة  
هلال، وبجواره مصلى صغير فرش بالحصر.. وأهل القرية  
والقرى المجاورة يعتبرون أبى وليا من أولياء الله.. له كرامات..  
كرامات سيدي محمد القماش.. وينذرون له النذور..  
ويتمسحون بأعتابه.

وأبى لم يكن وليا من أولياء الله.. كان رجلا صالحا، طيبا،  
عنيدا.. ولكنه لم يكن أبدا وليا من أولياء الله.. وليس هناك أحد  
يؤمن بشخصية أبى ويقدرها حق قدرها، مثلى.. وليس هناك

أحد أحبه مثلما أحبيته.. وبرغم ذلك فأنا الوحيد في القرية كلها الذي لا يؤمن بأن أبى ولى من أولياء الله.. حتى أمى آمنت بأنه كان أحد أولياء الله، وأخذت تذيع في القرية حكايات عن كراماته.. وهى ليست حكايات كاذبة، ولكنها أيضا ليست كرامات، إنما جهل أمى وسيطرة شخصية أبى عليها، صور لها هذه الوقائع التى كان بطلها أبى، كأنها كرامات.. وأخى استراح إلى اعتبار أبى من أولياء الله، وعاش فى ظل هذه الخرافة وحاول أن يستغلها، بل حاول أن يكون خليفته فى الولاية، فقلده فى تفاصيل حياته، وأصبح يدعى المهابة والرزانة مثله، ويمسك بمسبخته، ويرتدى عمامته، ويجلس جلسته.. وشارك أمى فى رواية الحكايات عن كرامات أبيه الشيخ محمد القماش.. ولكن حكايات أخى كانت كاذبة، مغالى فى كذبها، وكان هو أول من يعلم أنها كاذبة.. ومع مرور السنين.. وخلال اثنى عشر عاما فقط ضاعت شخصية أبى الحقيقية.. وضاعت القضية التى وقف حياته عليها والتى أكسبته حب واحترام الفلاحين، وأصبحت شخصيته شخصية وهمية خرافية.. شخصية رجل مشعوذ مجذوب.

ووقفت أنظر إلى ضريح أبى من بعيد.. ولم أقرأ له الفاتحة كما تعود أن يقرأها كل من يمر به.. ولكنى ابتسمت له.. ابتسمت له كأنى أواسيه فى مجنته، وفى شخصيته الحلوة القوية التى ضاعت وسط الخرافات التى بعثرت حوله.. ابتسمت له كأنى أشجعه على احتمال مصيره، فقد كنت دائما مقتنعا بأن أبى لا يمكن أن يكون مستريحا تحت هذه القبة الخضراء الكبيرة، ولا إلى صوت النساء وهن يتمسحن به ليتشفعن لهن حتى يحملن ويلدن!

ثم تجاوزت ضريح أبى، وسرت على حافة المصرف، إلى أن التقيت ببدوى أبو خليل راكبا حماره، عائدا إلى القرية.. وما كاد بدوى يحيينى حتى قلت له كأنى أطلق أمنية ظلت حبيسة فى صدرى أمدًا طويلا :

– أول ما توصل الكفر، فوت على أخويا عبدالرحمن، وقول له إنى نزلت مصر.

وفى هذه اللحظة فقط عرفت أنى قررت أن أترك القرية، وعرفت أيضا أنى لن أعود إليها.. ورفعت رأسى، وسرت فى خطى سريعة حازمة نحو محطة القطار.. وقد ارتاح صدرى واستقرت نفسى ووضح الطريق أمامى.

ولم أتنبه إلى أنى مرتد جلبابى الجوخ، وفوق رأسى الطاقية الصوف، إلا بعد أن أخذت مقعدى فى القطار.. وابتسمت.. وتخيلت ضحكة مرفت عندما ترانى فى الجلباب.. إن أحدا من أهل القاهرة لم يرنى أبدا مرتديا زى القرية.. بل إن كثيرين من أصدقائى فى القاهرة لا يعلمون أنى فلاح.. الذين يعلمون هم فقط الذين شاركونى فى أكل الفطير المشلتت الذى تعودت أمى أن ترسله إلى ..

ولكن صورة مرفت وصورة مجتمع القاهرة كله اختفت سريعا من خيالى. ونسيت أنى مازلت مرتديا الجلباب وفوق رأسى الطاقية.. وعدت أهيم فى قصتى مع القرية.. أو على الأصح، قصة القرية معى.



وقصة القرية معى تبدأ دائما بوجه سبيلة.. وسبيلة هى حبى الأول، وربما كانت حبى الوحيد، فكل ما صادفنى بعد ذلك من علاقات عاطفية لم يرتفع أبدا إلى مستوى العاطفة التى

ربطتني بسبيلة.. إنه حب تفتحت عليه عيناى وأحاسيسي، منذ تفتح وعيى للحياة.. حياتى لا تبدأ بوجه أمى، ولا بوجه أبى، ولا بوجه القرية كلها.. بل إنى أحس اليوم كلما همت مع ذكرياتى البعيدة، أحس كأنى لم أر وجه أمى ولا وجه أبى إلا بعد أن رأيت وجه سبيلة.. وربما كانت نوازع الاستقلال، ومحاولة بناء الحياة الفردية تبدأ مع الطفل منذ ولادته، وكانت سبيلة هى أول خطوة لى نحو الاستقلال بحياتى، أول احساس بشخصيتى فى الحياة.. ولذلك فحياتى تبدأ منذ الأيام التى كنت ألعب فيها مع سبيلة فوق أكوام السباخ فى الساحة التى تقع أمام زريبة الدائرة.. دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وكنت أشارك معها فى تحميل السباخ فوق ظهر الحمار، ونسير معا ومعنا الحمار إلى الغيط القريب، لنفرغ حملوة السباخ.. ثم نعود معتلين ظهر الحمار.. هى فى المقدمة وأنا خلفها.. ولا أذكر فيم كنا نتكلم أيامها، ولا ماذا كان يضحكنا، وماذا كان يبكينا.. ولكننا لم تكن نفتقر أبدا.. وكنت أعود إلى البيت لأواجه صرخة أمى وهى تنظر فى هلع إلى جلبابى المتسخ :

- يا واد أنت مش حاتبطل لعب فوق كوم السباخ.

ولم أكن أستطيع أن أبتعد عن أكوام السباخ، إلا إذا ابتعدت عن سبيلة، فأبوها يعمل كلافا فى زريبة الدائرة، وهى تعمل معه.. إن أكوام السباخ بالنسبة لنا ليست مرتع لهو، ولكنها مكان عمل.. برغم أننا أيامها كنا نحس باللهو أكثر مما نحس بالعمل.

ولم تكن حقيقة أن أبا سبيلة هو مجرد كلاف فقير، وأنا ابن الشيخ القماش الذى يملك أربعين فدانا.. بل إنه المالك الوحيد فى القرية.. ولم تكن هذه الحقيقة تثير بيننا أى مشكلة..

لم تكن طفولتنا البريئة تستطيع أن تتبين الحبال الغليظة الخشنة التي تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول عمرينا كلما كبرنا، لتشدنا أهدنا بعيداً عن الآخر.

وإني أذكر يوماً، عندما كنت في العاشرة من عمري، أن قلت لسبيلة ونحن عائدان من الغيط فوق ظهر الحمار :  
- بكره تكبرى يا سبيلة وأتجوزك وأضربك كل يوم علة زى عم مدبولى ما بيضرب مراته.

وقالت سبيلة وهى تدير رأسها إلى :

- ما أنا كبرت خلاص يا مأمون.. ده أنا أكبر من نفيسة بنت عمى بسنتين.

وكانت سبيلة أيامها فى السابعة من عمرها.

وبعد أن أصبحت أنا فى السادسة عشرة، وأصبحت سبيلة فى الثالثة عشرة.. عدنا نتحدث عن الزواج.. وكانت سبيلة يومها جالسة بجانب القرن فى دارنا تساعد نساء البيت فى الخبيز، وكنت أنتظرها فى الحوش المجاور.. ولما خرجت لحقت بها، ووقفنا نتحدث، وهى ترخى عينيها عنى، ولسة حمراء تسرى تحت بشرتها السمراء، وقلت ضاحكا :

- احنا مش كنا اتفقنا على الجواز يا بت.

وأجابت وهى تحنى رأسها :

- ودى تيجى.. إيش جاب لجاب.. ده أنا خدامتك يا سى مأمون!

ويومها تنبعت لأول مرة إلى أن سبيلة تخاطبني بلقب «سى».. سى مأمون.. ولقب «سى» ليس بسيطاً.. ليس هينا.. إنه يمثل جدراناً عالية سوداء تفصل أهل القرية بعضهم عن بعض .. جدراناً سوداء، اسمها «سى».. وجدراناً أخرى اسمها

« سعادة البيه» .. وجدرانا الثالثة اسمها « سعادة الباشا» ..  
وجدرانا رابعة اسمها «افندينا» .. والغريب أنه كلما ارتفعت  
الألقاب انخفضت الجدران .. فالجدار الذي يفصل بين «البيه»  
و«الباشا»، أقل ارتفاعا من الجدار الذي يفصل بين «سى»  
و«اللاسى» .. الجدار الذي يفصل بينى وبين سبيلة، جدار عال ..  
عال جدا .. شاهق .. أعلى من الهرم .. أعلى من الجدار الذي  
يفصل بينى وبين ابنة ناظر دائرة أفندينا.

ولكن .. من الذى علم سبيلة أن تنادينى بلقب «سى» ..  
لا أحد .. لا أنا طلبت منها أن تنادينى «سى» .. ولا أبوها علمها  
كيف تنطقها .. ولا أبى .. لا أحد .. ولكن عقلها تفتح فسمعت  
الناس فى دنياها ينادوننى «سى» .. ووجدت البنات فى سننها  
ومن طبقتها يعتبرن أنفسهن خادمت لى .. ولأبى .. ولأمى ..  
ولكل عائلتنا .. فاستسلمت فى هدوء، وانزوت مع أهلها تحت  
الجدار الأسود العالى، ورددت فى خنوع « أنا خدامتك يا سى  
مأمون»!

والغريب أنى لم أكتشف هذه الجدران العالية السوداء فى  
عينى سبيلة وحدها .. ولكنى اكتشفتها فجأة أمام عينى أنا  
أيضا .. فى صدرى .. أنا أيضا أقف خلف الجدار الأسود العالى،  
وانزوى تحته .. أقف فى الناحية الأخرى التى لا تقف فيها  
سبيلة .. بينى وبينها هذا الجدار .. ووجدت نفسى لا أحاول أن  
اتخطاه .. لا أحاول أن أهدمه .. إنما أستسلم له، كما استسلمت  
له سبيلة من الناحية الأخرى .. وأحسست أن كل هذا الحب  
الذى أحمله لسبيلة لا يكفى لهدم الجدار الأسود .. بل أحسست  
أن الحب أيضا كان معترفا بهذا الجدار .. وأنه نشأ وتربى فى  
ظله .. وإنى دون أن أتعمد، ودون أن أدرى، كنت أسير دائما مع

سبيلة على ناحيتي الجدار الأسود.. وإن حديثي عن الزواج بها لم يكن حديثا يعبر في صدق عن مستقبل أرسمه بل حديث أمنيات خيالية ليس له أثر في واقعي النفسي.. كما أتحدث عن الجنة.. أو عن اعتلائي عرش مصر.. مجرد أمنية بعيدة تنطلق من عقدة اجتماعية لم أفكر يوما في حلها.

وبرغم ذلك فقد مر بنا عمر لم نكن نرى فيه هذا الجدار.. عمر كنا خلاله نلعب معا فوق أكوام السباخ، ونركب معا الحمار.. ولم تكن سبيلة تناديني بلقب «سى» ولا كانت تعتبر نفسها خادمتي.. كانت تعتبر نفسها حبيبتي وزوجتي.. عمر كنا فيه أطفالا.. وربما كان الأطفال هم وحدهم الذين يستطيعون اختراق هذه الجدران السوداء العالية.. لا.. إنهم لا يخترقونها.. إنهم يلعبون فوقها.. ونحن لم نعد نلعب.. لم نعد أطفالا.

وتركت يومها سبيلة، وأنا أحس بعاطفتي نحوها ثقيلة ولها طعم جديد.. ثقيلة ثقل اليأس، ولها طعم اليأس.. طعم مر.. وقضيت عمري بعد ذلك أحاول أن أتعالى على هذه العاطفة.. حتى لا أصدم بهذه الجدران السوداء.. ولكني كنت كلما أمعنت في التعالى على عواطفي، أحسست بنفسى أهبط.. أنخفض.. أنزل في الواطى.



ويومها خرجت أسير بين الحقول على حافة المصرف، أحمل في صدري هذا اليأس الثقيل.. إلى أن سمعت صوت رزق يناديني من تحت شجرة الجميز بصوته الذي تمزقه عاهته :  
- على فين يا مأمون.  
واتجهت إليه جلست بجانبه صامتا.



وتركنى رزق كعادته غارقا فى الصمت دون أن يحاول أن ينقذنى منه.. ورزق لا يزال ينادينى باسمى مجردا.. لا يضيف إليه لقب «سى».. ربما لأنه عبيط.. عبيط القرية.. عقله لم يكبر حتى يرى هذه الجدران السوداء العالية.

ورزق نشأ فلاحا فقيرا يتيما.. أكتع.. يسير وهو يرفع كتفه اليسرى، ويعرج على قدمه اليمنى، وفمه مفتوح فى بلاهة، يسيل منه لعابه بشكل منفر.. وأعتقد أهل القرية أن فى رزق «شئ لله».. وتركوه يتجول فى الأزقة يفعل ما يريد.. ويدخل أى بيت ليأكل عندما يريد أن يأكل.. وينام عندما يريد أن ينام.. ولكنه كان يفضل دائما أن يبقى تحت شجرة الجميز، خارج القرية، لا يقوم من تحتها إلا تحت اصرار معدته الخاوية.. وكان من حق رزق أن يقول أى كلام.. وأهل القرية يضحكون على كل كلام يقوله.. وكان دائما - منذ كان طفلا - يحمل تحت إبطه من الصفيح.. علبة متآكلة، صدئة، قذرة، لم يكن أحد من أهل القرية يعلم ما بها.. ولم يكن رزق يسمح لأحد بأن يرى ما فى علبته أو حتى يلمسها.. وهى دائما تحت إبطه.. يأكل وهى تحت إبطه، وينام وهى تحت إبطه، ويلعب وهى تحت إبطه.. أصبحت هذه العلبة قطعة منه.. وأهل القرية يتندرون عليها.. على العلبة.. ويحكون عنها الحكايات.. ويتوهمون أشياء كثيرة غريبة فى داخلها.. دون أن يستطيع أحد أن يرى ما فيها، ولا أن يلمسها.

أنا الوحيد الذى كان لى حق لمس علبة رزق.

أنا الوحيد الذى كنت أعلم ما بداخلها.

رزق هو الذى أعطانى حق لمس علبته، وهو الذى فتحها لى لأرى ما بداخلها.. فقد كنت صديقه الوحيد.. وقد تعودت عبطه

منذ طفولتى حتى لم أعد أعتبره عبيطا، بل كنت ألعب معه وأتحدث، كما ألعب وأتحدث مع بقية أطفال القرية.. وقد حدث وأنا فى العاشرة من عمري، ورزق يكبرنى بحاولى عامين.. أن التفت بعض الأطفال حوله وهم يصرخون «العبيط أهو.. أهو» وبدأوا يقذفونه بالحجارة.. ثم يقتربون منه ويصفعونه على قفاه.. وهو يجرى منهم بقدمه العرجاء، وكتفه الكتعاء، ويصرخ صرخات كصرخات الأخرس، ويرفع إحدى يديه فى الهواء ليحمى رأسه من الطوب.. ويده الأخرى تحتضن الصندوق الصفيح.. وجئت أنا ساعتها بالصدفة.. فاشتبكت مع الأطفال فى معركة دفاعا عن رزق.. ضربتهم.. ولكنهم ضربونى أيضا.. وأسالوا الدم من وجهى.. وبعد أن أنصرف المعتدون.. سرت إلى المصرف وانحنيت أغسل وجهى من دمائى، ورزق بجانبى ينظر إلى نظرات حب. حب لم أره فى عيني أى صديق حتى اليوم.. وفمه مفتوح يسيل منه لعابه.. ثم جذب العلبة الصفيح من تحت إبطه.. ومد يده بها إلى.. ولستها كأنى أتبرك بها.

واتسعت الابتسامة البلهاء بين شفتيه.. ثم اقترب منى أكثر.. وتلفت حوله فى تردد وخوف، وعندما لم ير أحدا حولنا، فتح غطاء العلبة أمامى.. كأنه يفتح لى حياته كلها لاشاركه فيها.

وكبرت.. وكبر رزق، وعاهته تكبر معه.. وكلما كبرت عاهته استأنستها أكثر.. أصبحت أحس بأن رزق ليس عبيطا.. كما يقول أهل القرية.. وليس متعابطا أيضا.. ولكن فى عبطه خيطا من النظرة المباشرة إلى الأعماق.. وجرأة عجيبة لا تتوافر فى أحد من أهل القرية.. جرأة تصل به إلى الصدق مباشرة دون

لف أو دوران.. جرأة العبيط.. ربما لم يكن عبيطاً إطلاقاً ولكنه  
فيلسوف رفعته فلسفته فوق مستوى البشر فبدأ كالعبيط..  
جريئاً، أمعن في جرأته إلى حد أن الناس لم تعد تصدق  
جرأته.. لا بد أن هذه الجرأة هي أحد مظاهر العبيط.. ولا بد أنه  
عبيط.

وكان رزق هو الوحيد من أهل القرية، بل من أهل المديرية  
الذي يستطيع أن يسب سعادة كامل بك مرتضى، ناظر دائرة  
الأمير ولي الدين سامح.. ويسبه في وجهه.. وقد وقف أمامه  
مرة وهو يهم بركوب «الكرتة»، وصرخ :  
- يا راجل بطل أكل العيال.. أحسن تطق تموت.. العيال  
لحمهم مسموم!

ورفع شيخ الخفر كفه الغليظة وهوى بها على قفا رزق..  
وكنم بقية الفلاحين الذين سمعوه ابتساماتهم.. وما كاد سعادة  
اليه الناظر بيتعد حتى انطلقوا يضحكون على عبط رزق..  
ولكنى واثق أنهم بلا وعى منهم كانوا يحسون في أعماق  
ضحكاتهم بطعم مر.. طعم الصدق الذي نطق به رزق. فسعادة  
اليه كان يأكل عيالهم فعلاً.. أرزاق عيالهم.. حتى أبى.. الشيخ  
محمد القماش، بكل جلاله وقاره، كان رزق يتجراً عليه  
ويصرخ في وجهه :

- أرفع رأسك يا شيخ.. اتق الله واوع تسود ذقنك البيضة..  
اتق الله.. اتق الله.. اوع ذقنك البيضة تسود..  
ولم يكن أبى يضحك لكلمات رزق، بل كان يطأطأ رأسه  
كأنه يفكر فيها.. أو كأنه يخاف أن يضع عينيه في عيني رزق.  
وكان رزق يمر برجال القرية وهم متجمعون حول  
المصاطب في المساء، فيقول محيياً :

- العواف يا نسوان.

وأحيانا أخرى يمر بهم فيقول :

- مساء الخير يا رجالة.

ولم يكن أحد منهم يدري متى يحييهم رزق تحية «النسوان» ولا متى يحييهم تحية «الرجال» فهم يضحكون دائما كلما مر بهم، وكلما قرأ عليهم التحية.. ولكنى كنت واثقا بأن كلا منهم كان يحس أنه تصرف فى يومه تصرف النسوان، عندما يحييه رزق بتحية النسوان.. وتصرف تصرف الرجال عندما يحييه رزق بتحية الرجال. وكان رزق فى نظرى - برغم عبطه - هو أكثر الناس فهما لمشكلة قرينتنا.

ومشكلة قرينتنا كانت فى وجودها ضمن دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وقد كانت حدود دائرة الأمير فى الماضى، تقف خارج حدود المركز.. ولكنها بدأت تمتد، وتتسع.. فكان كامل بك مرتضى يشتري الأرض من أصحابها ويضمها إلى أملاك الدائرة.. حتى اشترى كل الأراضى المحيطة بقرينتنا.. والناس تببيع إما عن حاجة للبيع، أو تحت ضغط التهديد والإرهاب ومضايقات الجهات الرسمية.. ثم بدأ كامل بك مرتضى يزحف على زمام قرينتنا.. وكان فيها خمسة ملاك سقطوا بسرعة الواحد بعد الآخر.. لم يبق منهم سوى أبى.. الشيخ محمد القماش.. والأربعين فدانا التى يملكها.

ووقف أبى فى عناد يرفض أن يبيع أرضه.

وفشل كامل مرتضى فى إغرائه بالمال.. لقد عرض عليه فى الفدان الواحد، الف جنيه.. ولكن أبى ظل على عناده. واشتعلت الحرب بينهما.

كل ما يمكن أن يفعله كامل مرتضى، فعله.. سرق منا البهائم، وكان كل من فى القرية يعلم أن رجال الدائرة هم الذين سرقوها.. وسلط علينا بنك التسليف.. و.. وفعل الكثير.. ولكن أبى ظل صامدا فى قسوة.. وكان يستمد قوته من أهل القرية أنفسهم.. فقد كانوا يؤمنون به.. يؤمنون به كعالم وفقه فى الدين.. ويؤمنون به كزعيم.. ويؤمنون به كولى من أولياء الله الصالحين.. وكانوا يلجأون إليه فى أخص شئونهم.. حتى المرأة التى يمتنع زوجها عن معاشرتها كانت تلجأ إليه.. ولم يكن هذا الإيمان عن خداع، أو عن بله، فقد كان أبى يحب أهل قريته فعلا، ويتعصب لهم، وقد عاش فى القرية طول عمره، لا يغيب عنها إلا يوما أو يومين كل عام يذهب خلالهما إلى المركز أو إلى القاهرة.. ثم يعود إلى القرية، لينحنى كل أهلها - رجالها ونسائها وأطفالها - يقبلون يده.. وقد زادهم موقفه من ناظر الدائرة وتحديه له، إيمانا به.. وبيته مفتوح لهم جميعا.. لكل أهل القرية.. وفى كل مساء كانت توضع صوانى العشاء فى القاعة الكبرى، ويلتف حولها كل من يريد من أهل القرية.. عشرون.. ثلاثون.. أربعون.. وقبل أن توضع أطباق الطعام فوق الصوانى، كان أبى يدخل إلى القاعة بقامته المهيبه، وذقنه الناصعة البياض، وفى يده عود صغير من الحطب ويدور بين الجالسين، ثم يلمس كتف أحدهم بعود الحطب، ويقول فى صوت وقور هادىء :

- قوم أنت روح يا أبو اسماعيل.

ويحنى أبو اسماعيل رأسه ويقوم يجرى خارج القاعة متعثرا فى جلبابه وعيناه ساقطتان بين قدميه.  
ثم يلمس أبى كتفا آخر بعود الحطب :

- روح يا واد يا شحاتة.

ويخرج أبى من بين الجالسين خمسة أو ستة، وأحيانا لا يخرج أحدا، ثم يتصدر القاعة، ويأكل مع أهله.. أهل قريته. وكان كل من فى القرية يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله الشيخ محمد القماش، أكثر مما يخشى حبل المشنقة.. فقد كانت هذه اللمسة تعنى غضب الله.. فالشيخ القماش ولى من أولياء الله، فإذا طرد أحدا من بيته، فقد طرد من بيت الله.. من جنة الله.. وحق عليه العذاب المقيم.. وكان هذا هو اعتقاد أهل القرية فعلا.. وكانوا يجلسون حول صوانى العشاء قبل أن يدخل أبى، وهم يرتعشون، كل منهم ينتظر حكم الله ويخشى غضبه ونقمته.. ولكن الواقع أن أبى لم يكن يتصرف هذا التصرف إيمانا منه بأنه فعلا ولى من أولياء الله.. ولا افتعالا لصورة من صور الشعوذة التى قد تجوز على عقول الفلاحين، ولكنه كان يطرد من بيته كل من يعلم أنه باع نفسه للدائرة وأصبح عميلا لها ينقل إليها الأخبار، ويشترك فى مؤامراتها، ولم يجد عقابا لمثل هذا الإنسان أخف من أن يحرمه من الأكل على مائدته.. ولم يكن أبى يهمله أن يبيع الفلاح عمله للدائرة، فالفلاح يجب أن يعمل مهما بخرس أجره، وما دامت الدائرة هى التى تملك كل الأرض فهو مضطر أن يعمل لها.. ولكن هناك فرقا بين أن يبيع الإنسان عمله، وأن يبيع نفسه.. ولم يكن أبى يعاقب إلا من يبيع نفسه.. وهو عقاب لم تكن قيمته الحرمان من الطعام، فالطعام الذى كنا نقدمه لم يكن دسما، ولم نكن أغنياء إلى حد أن نقدم طعاما دسما لكل هؤلاء الناس كل ليلة.. ولا كان العقاب يقصد به أبى أن ينزل غضب الله على أحد، ولكنه كان عقابا أدبيا، فكل من كان يطرد من بيت القماش، كان

يزدرى من أهل القرية جميعا.. وكثيرون منهم كانوا لا يطيقون هذا العقاب طويلا. فيعودون إلى بيتنا بعد أسبوع أو أسبوعين بعد أن يتطهروا ويستردوا نفوسهم.. وكان أبى يحس بمن تطهر منهم فيفسح له مكانا واسعا حول صوان العشاء.. والذين لا يتطهرون كانوا غالبا ما يرحلون من القرية إلى إحدى القرى الأخرى التى تقع فى أملاك الدائرة.

كانت هذه هى قوة أبى.

وقد حدث يوما أن أمر كامل بك مرتضى رجاله بقطع المياه عن أرضنا.. وأمر بتشغيل مكنت الرى التى تملكها الدائرة ليل نهار حتى تشفط كل المياه قبل أن تصل إلينا.. وكانت هذه المياه تلقى فى أرض ليست فى حاجة إليها.. بل كانت تفسد الأرض التى تلقى فيها.. إلى هذا الحد بلغ العناد.

وفى المساء خرج رجال القرية صامتين، وكل منهم يحمل طنبورا أو جردل شادوف.. جمعوا كل طنابير القرية، وسرقوا بعضهم من مخازن الدائرة.. ثم تسلل بعضهم إلى أرض الدائرة، وغطسوا فى التربة ونزعوا منها مواسير مكنت الرى.. ثم ألقى الرجال بالطنابير والشواديف فى مياه «الجنابية» التى تدفقت فيها المياه، وبدعوا يعملون.. أكثر من عشرين طنبورا وعشرين شادوفا.. عملوا طول الليل.

وفى الصباح، كانت أرضنا كلها قد ارتوت.

وكان الرجال قد رفعوا الطنابير وجرادل الشواديف، وأعادوا مواسير المكنت إلى مكانها.

و.. وجن كامل مرتضى.

وعاد كامل مرتضى وأصدر أمرا بأن كل من يعمل من الفلاحين فى أرض الشيخ القماش، لا يعمل فى أراضى

الدائرة.. وأصبح يسلط عليهم رجال المركز.. ولم نياس..  
أصبح الرجال يعملون في أرضنا بالليل.. دون أن يدري أحد.  
حوادث كثيرة.

وأخي عبدالرحمن يحمل بندقيته ومعه أثنان من رجالنا،  
يطوفون طول الليل حول الأرض، وزريرة البهائم، والمخزن،  
ليصدوا اعتداءات رجال الدائرة.  
وبرغم ذلك.

برغم كل ذلك.

لم يكن أبى ثائرا على الأمير.. الأمير ولى الدين سامح..  
كان ثائرا على كامل بك مرتضى وحده.. وكان يؤمن بأن  
لو انزاح كامل بك مرتضى من منصبه، فستصلح الأمور.. بل  
كان أبى يكتب كثيرا من العرائض والاسترحامات إلى الأمير  
يشكو له ظلم ناظر الدائرة، ويطالب بعزله.. بل إن أبى حاول  
أكثر من مرة أن يتفاوض مع كامل بك مرتضى وذهب إليه فى  
السراى بنفسه أكثر من مرة.  
وفى آخر مرة ذهب معه.

ذهبنا إلى سراى الأمير التى تقع فيها مكاتب الدائرة.

وجلست بجانب أبى على دكة خشبية بجوار باب مكتب  
كامل بك مرتضى.. جلسنا طويلا.. من الساعة العاشرة صباحا  
حتى الثانية بعد الظهر.. لم يقدم خلالها فنجان قهوة إلى أبى..  
ولا أهتم به أحد.. ثم فجأة فتح باب المكتب وخرج كامل  
مرتضى، منقوشا، سميئا، له كرش ضخم، ووجهه لون  
طربوشه الطويل المعوج فوق رأسه، ووقف أمام أبى ينظر إليه  
فى قرف، وقد هم أبى واقفا أمامه.. وقال كامل مرتضى فى  
عجرفة تنطلق من أنفه كالصفيح :



- نعم.. افندم.  
وقال أبى فى دعة :  
- أنا قلت يمكن سعادتك مش عارف اللي بيحصل آيه،  
أصل..  
وقاطعه كامل مرتضى صارخا :  
- أنا عارف كل حاجة.. اسمع يا راجل يا دجال أنت، إذا  
ما كنتش حتبطل نمردة، وتمشى زى الجزمة القديمة، أنا  
حاوديك فى داهية، حاظ ذقنك فى الطين.. فاهم.  
وارتعث أبى فى غضب، وقال فى صوت يحاول جهده ألا  
يكون صراخا :  
- أنت ما تقدرش تعمل حاجة.. فيه اللي أكبر منك.. واللى  
أكبر من اللي أكبر منك.  
وصرخ كامل مرتضى :  
- أنت بترد على يا راجل يا دجال.  
ثم رفع كفه وهوى بها على صدغ أبى.  
ووجدت نفسى أهجم على كامل مرتضى أضربه بيدي فى  
كرشه، وأضربه بقدمى فى ساقه.  
وكامل مرتضى يصرخ :  
- امش اطلع بره.. خدوا الراجل ده بره.  
وأبى حنى رأسه صامتا.  
وجذبنا رجال الدائرة إلى الخارج.  
وظل أبى صامتا، وأنا صامت بجانبه أقاوم دموعى بكل  
إرادتى، وما كدنا نقترّب من القرية، حتى تركته، وجريت إلى  
شجرة الجميز، وألقيت بنفسى تحتها.. دفتت رأسي فى  
ترابها.. وبكيت.. بكيت كثيرا.

وعندما انتهت كل دموعي، ورفعت رأسي، وجدت رزق جالسا بجانبى ينظر إلى بعينين حزينتين، وفمه مفتوح إلى آخره يسيل منه لعابه.. وقلت وأنا ما زلت أنهنه بالبكاء :  
- ضربوا الشيخ القماش يا رزق.. الراجل ضرب أبويا..  
ضربه قدامى.

وأحسست بأسيخ حادة من الكراهية تنطلق ساعتها فى صدرى.. الكراهية والحقْد.. الحقْد على كامل مرتضى.. وعلى الأمير.. وعلى الملك.. وعلى الدنيا كلها.  
ورزق ينظر إلى صامتا.

ثم لمعت عيناه فجأة.. انزاحت منهما النظرة الحزينة، وحلت محلها نظرة مرحة ضاحكة.. ثم أخرج من عب جلاببه الممزق القدر، حبة جوافة، وقال فى بلاهة :  
- خد دى.

ولا أدري لماذا نظرت إلى رزق ساعتها كأنه منقذى الوحيد.  
وأخذت منه حبة الجوافة صامتا، وفى عيني تساؤل، كأنى أسأله عن الطريق.

وبعد يومين.

يومين فقط.

استيقظت القرية كلها على لهب حريق كبير، يشتعل هناك.. بعيدا.. فى زراعة الدائرة.. وخرج الناس كلهم إلى أطراف القرية يراقبون ألسنة النار وهى تلتهم فى سرعة وجنون أعواد القمح الصفراء التى كانت على وشك الحصاد.. وألثفت أبحاث بين الناس عن رزق.. ولكن رزق لم يكن بين الناس.. ولم يهتم أحد غيرى بالبحث عنه.

واستمر الحريق يوما وليلة.. والتهم أكثر من مائة فدان  
قمح. فقد كانت الأعواد جافة والرياح هائجة.  
وجن كامل مرتضى.  
وجن الأمير فى القاهرة.  
وجنت وزارة الداخلية، والمدير، والمأمور، والضابط،  
والعمدة، وشيخ الخفر.  
وإدار تحقيق قاس سريع.  
وكان يمكن أن يقبض على أبى.. ولكن أبى كان قد سافر  
منذ يومين إلى القاهرة ليحاول أن يقابل الأمير ليشكو له كامل  
مرتضى، وثبت أنه قضى هذين اليومين على باب الأمير.  
لم تثبت التهمة على أحد.  
حجزوا العشرات فى المركز، ولم تثبت التهمة على أحد.  
ولم يكن أحد يعلم من أشعل الحريق.. أبى كان صادقا وهو  
يقسم أنه لا يعلم من الجانى.. وكل الناس لا يعلمون.  
أنا وحدى الذى كنت أعلم.  
إنه رزق.

وذهبت ليلة الحريق أبحث عن رزق فى كل بيت من بيوت  
القرية، فلم أجده.. وذهبت إلى شجرة الجميز وانتظرته تحتها..  
انتظرته طويلا.. وعند الفجر رأيته قادمًا من بعيد يعرج على  
ساقه اليمنى، ويرفع كتفه الكتفاء، وصندوقه الصفيح تحت  
أبطه.. وما كاد يقترب حتى لمحت عينيه متسعيتين اتساعا غريبا،  
تطلان من خلال الطين الذى يكسو وجهه وتلمعان لمعة  
الجنون، وصرخ بمجرد أن رأتى :  
- شفت النار يا مأمون.. النار.. النار.. النار أكبر من كرش  
كامل مرتضى.. أكبر.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

وجلس بجانبى تحت الشجرة.  
وقلت له مبتسما كأنى أستدرجه :  
- كنت فين يا رزق ؟  
ونظر إلى بعينه المجنونتين، ثم قال بصوته المحشرج الذى  
يتعثر فى عاهته :  
- النار يا مأمون.. النار.. النار..  
ثم مدد جسده على الأرض، وألقى رأسه على ساقى، ونام..  
كالطفل البرىء.. وفمه لا يزال مفتوحا ولعابه يسيل.. وعلبته  
الصفيح الصدئة فى يده يضغط عليها بكل أصابعه.  
وركزت عيني فوق العلبة الصفيح.  
إنى أعلم ما فيها.  
أنا الوحيد فى القرية كلها الذى يعلم ما فى العلبة الصفيح  
الصدئة.

وقد حفظت سر رزق.  
ومع الأيام حفظ التحقيق فى حادث الحريق، وأضيف إلى  
رصيد كرامات أبى كرامة جديدة، فقد انتشرت بين الفلاحين  
قصة تقول إن الشيخ القماش ذهب وهو فى القاهرة إلى  
ضريح الحسين، وأشعل عودا من الثقاب وألقاه فى الهواء،  
فسقط العود مشتعلا فى بلدنا وأحرق قمح الدائرة.



وزوجوا «سبيلة» وهى فى الرابعة عشرة من عمرها..  
زوجوها إلى كلاف كأبيها يعمل فى زرائب الدائرة.  
واستسلمت لزواجها.. حاولت قدر طاقتى أن أقنع نفسى  
بأن الأمر لا يهمنى.. تجمدت.. وازددت انطواء تحت الجدار  
الأسود العالى الذى يفصل بينى وبينها.. وأصبحت أتعمد أن

أتجنبها.. ألا ألتقى بها.. كأنى كنت أخشى لو واجهتها أن ينهار  
الجدار العالى.. كأنى فى دخيلة نفسى كنت حريصا على  
الإبقاء على هذا الجدار العالى أكثر من حرصى على الإبقاء على  
حبنى.

ولكننا التقينا.. فى صباح يوم زواجها.. التقينا فى حوش  
دارنا.. ووقفت أمامى صامتة، تنظر إلى بعينيها المستغيثتين..  
وكانت استغاثتهما فى هذا اليوم أكبر وأعنف.. استغاثت  
كالصراخ.. ولم أستطع أن أواجه نظرتها طويلا.. ماذا أستطيع  
أن أفعل.. كيف أغيتها وأغيت نفسى.. لا شىء أستطيعه.. هذه  
الجدر العالية قائمة، وستظل قائمة.. إنها أقوى منى ومنها..  
ومن القرية كلها.. ومن مصر كلها.. ومن العالم أجمع..  
وتمتت :

- حاتجوزى الليلة يابت.

وأكدت على كلمة «بت» كأنى أصلب الجدار العالى الذى  
يقف بينى وبينها.

ولم ترد على .. ظلت تنظر إلى بعينيها المستغيثتين.  
وعدت أتمتم :

- والله كبرتى واتجوزتى يا سبيلة.. مبروك..

ولم ترد على أيضا.. وسحبت عينيها المستغيثتين وجرت  
من أمامى، قبل أن أرى دموعها.

وأصبحت لا أطيق حياتى فى القرية.

بدأت أشعر بطاقة ثورية هائلة تتململ فى صدرى، وتهدر  
كأنها بركان على وشك الانفجار.. لم يعد شىء يرضينى،  
ولا شىء يكفينى.. وهذا الشعب الصغير الذى يحيط به -  
شعب القرية - أصبح يمثل حدودا ضيقة تلتف حولى كقضبان

السجن.. وعناد أبى وصلابته لم يعد يكفى لإقناعى.. إنى اتطلع إلى حدود أوسع.. إلى معركة أكبر.. وفترات طويلة من الزهق، والملل تنهشنى .

إلى أن نلت الشهادة التوجيهية ، والتحقت بكلية التجارة ، وانتقلت إلى القاهرة لأقيم فى شقة صغيرة استأجرها لى أبى فى حى المنيرة.

وخلال الأسابيع الأولى من إقامتى فى القاهرة التقيت بعبد الحميد أبو الذهب.. طالب فى كلية الحقوق.. يكبرنى بثلاثة أعوام.. من عندنا.. من الدقهلية.. وهو جاد فى مظهره.. تبرق عيناه الضيقتان وسط وجهه الأبيض، وشفتاه الرفيعتان مزمومتان دائما كأنه يخفى خلفهما قنبلة، وأنفه الكبير مشفوط دائما كأنه يضيق بالهواء الذى يتنفسه وشعرات قد سقطت عن رأسه كأنها احترقت بنار فكره.. وبرغم مظهره الجاد قلم يكن عبد الحميد متزمتا لا ثقيل الظل، بل كان يبدو أحيانا مرحا، وكان يشارك زملاءه فى لهوهم وفى لعب البوكر والكونكان والكومى.. وكانت له قدرة عجيبة على اكتساب قلوب الناس.. وهو لم يكتسب قلبى فحسب، بل كسب اقتناعى.. وعلمنى.. علمنى الثورة.. وربما كان أول ما تعلمته منه هو أن كل هذه المظاهر السياسية والاجتماعية التى تحيط بى، ليست ظواهر طبيعية.. ليست حقائق علمية كدوران الأرض، وشروق الشمس.. ولكن الذى يصنع الحياة السياسية والاجتماعية هو الإنسان.. وهى تتشكل حسب قيمة الإنسان فى بلده.. حسب قدرته.. وحسب حاجته.. حسب ضعفه أو قوته.. واقتنعت.. اقتنعت بأن الملك ليس جالسا على عرشه لأن الطبيعة أرادت له أن يجلس عليه.. وهذه الأحزاب ليست كواكب نثرها الله فى

السماء.. وهذه الشخصيات الزعامية التي كانت تملؤنى رهبة وأنا أردد اسمها فى القرية، ليست شخصيات أنبياء، ولا رسل، ولا عباقره، إنها مجرد ناس.. وكل شىء يمكن تغييره.. أسهل مما تغير فردة الحذاء.

وبدأت تجتاحنى شهوة عارمة للتغيير.. تغيير كل شىء.. حتى التقاليد الاجتماعية التى عشت حريصا عليها طول عمرى، يجب أن تتغير.. والسخط يستبد بى.. سخط عنيف يعذبنى.. يحرقنى.. وينطلق كألسنه النار ليحرق كل من حولى.. وكفرت بكل شىء.. كفر فيه مقت، وفيه كراهية، وفيه ازدراء.. لم أعد أومن بشىء إلا بمعان مجردة، ليس لها شكل، وليس لها مقر.. الحرية.. العدالة.. الشعب.. التقدم.. و.. و.. وأسير دائما خلف عبدالحميد.. يأخذنى معه إلى اجتماعات الثوار.. وأشترك معه فى تدبير المظاهرات، وطبع المنشورات وتوزيعها، وتدبير عمليات التخريب.. وكنت عنيفا حادا، واكتسبت اسما كبيرا بين ثوار الطلبة، وقبض على أكثر من مرة.. ويفرج عنى لأعود أكثر عنفا وحدة، ومجال ثورتى يتسع أمامى.. إنه يتسع ليضم مصر كلها.. ولكنى ما زلت أحس فى قرارة نفسى بأن كل هذه الثورة تنطلق من قرىتى.. وأن أساس كل التغييرات التى أسعى إليها هو تغيير ما يجرى فى قرىتى.. أن أعزل كامل مرتضى.. وأن أذل الأمير ولى الدين سامح.. وأن أهدم أملاك الدائرة التى تحاول أن تمتد لتبتلع الأربعين فدانا التى نملكها.



وجاءت أمى لتزورنى فى القاهرة تحمل أسبقة الفطير المشلتت، والزبد والقشطة، والعسل، وقفص الفراخ والبط، وتجر وراءها سبيلة.

نعم، سبيلة.

حبيبتى سبيلة.

ونظرت إلى سبيلة فى هلع.. كنت أعلم لماذا جاءت بها أمى إلى.. فقد جرت التقاليد فى طبقتنا - طبقة أعيان الريف - عندما ترسل أحد أولادها إلى القاهرة ليتعلم، أن ترسل معه امرأة من الفلاحات.. قد تكون مطلقة، أو قد تكون زوجة.. ولا تكون أبدا بكرا.. لتخدمه، ولتشبع شبابيه حماية له من نساء المدينة.. إنها تقاليد يقرها الآباء والأمهات ويقرها الفلاحون.. تقاليد، حتى لو كانت فى حقيقتها نوعا من الدعارة السرية.

وحاولت أن أجادل أمى :

- ليه يا أمه جبت معاك سبيلة.

ونظرت إلى أمى وقد شق وجهها الطيب ابتسامة خبيثة :

- أهى يا بنى تخدمك بدل ما تحتاج لحد من بتوع مصر..

دى بنت زى الجن.

قلت :

- بس دى مسئولية.. وأنا طول النهار برة البيت.. وأخاف

أسيبها لوحدها .

وقالت أمى وذكأؤها الطيب المسكين يلمع فى عينيها،

وابتسامتها الخبيثة تتسع :

- ما تخافش.. أنا ضمناها.. يعنى مش عارف سبيلة.

وعبثا حاولت إقناعها.

وقد عادت أمى إلى القرية بعد أيام، ورفضت بإصرار أن

تأخذ معها سبيلة.. تركتها لى.

وقضيت الليلة الأولى أتقلب فى فراشى.. عروقى تتمزق..

ضلوعى تنطبق على صدرى.. أكاد لا أستطيع أن ألتقط



أنفاسى.. وسبيلة راقدة فى المطبخ، على البلاط.. هل يمكن أن  
أدعوها إلى فراشى.. هل يمكن أن ينقلب كل هذا الحب الذى  
عشت فيه عمرى كله، إلى مجرد امرأة فى الفراش.  
وقمت من فراشى وخرجت من الغرفة.. لا أدري لماذا.. ربما  
اقنعت نفسى بأنى فى حاجة إلى كوب ماء.. وما كدت أفتح  
غرفتى حتى وجدت سبيلة مكومة على الأرض بجانب الباب..  
ورفعت إلى وجهها الذى يختلط فيه لون الأرض بلون المرض،  
وفى عينيها هذه النظرة المستغيثة.

إنها تعلم لماذا جاءوا بها إلى.

إنها تعرف دورها، وقد ارتضته، كالقدر.

ووجدت نفسى أصرخ فيها وأنا أرتعش :

- قاعدة هنا ليه يا بت.

وقالت وهى تهب واقفة وتقف مرتعشة كرعشتى :

- يمكن تكون عايز حاجة يا سى مأمون.

ودون أن أدري، رفعت يدي وهويت على صدغها.. ثم أنهلت

عليها ضربيا.. لم أكن أضربها.. كنت أضرب هذه التقاليد..

أضرب هذا الذل.. أضرب نفسى.. وأضرب حبى.. وأنا أصرخ :

- اوعى تانى مرة تخرجى من المطبخ من غير ما قولك..

انجرى قدامى.

وجرت من أمامى مذعورة.

ومضت ثلاث ليال وأنا أتعذب.

أتعذب بثورتى.

وأتعذب بشبابى.

وأتعذب بحبى.

وأتعذب بهذه التقاليد.

ثم لم أعد أطيق.. استيقظت فى الصباح، وصرخت فيها :  
- لى هدومك يا بت.

ثم أخذتها وهى مستسلمة ودموعها تنبثق من عينيها  
المستغيثتين، وعدت بها إلى القرية.. ركبت معها القطار حتى  
محطة المركز، ثم تركتها تسير وحدها إلى الكفر وهى تتعثر  
وتنتفض كالعصفور المبلل المكسور الجناح.. ولم أدخل أنا  
القرية.. انتظرت فى محطة المركز حتى ركبت القطار الذى عاد  
إلى القاهرة.



ومرت سنوات.

سنوات عنيفة.. وثورتى تزداد حدة وتهورا.. لم أعد أرى  
شيئا إلا بريق الثورة.. ولم أعد أريد شيئا إلا أن تشتد عاصفة  
الثورة حتى تقتلع كل الأشجار، وكل البيوت وكل الجذور..  
ودخلت السجن مرة أخرى.. وفى هذه المرة علم أبى، فجاء إلى  
القاهرة ليتوسط حتى يفرج عنى.. يتوسط لى من.. لى  
الأمير ولى الدين سامح.. وقد أفرج عنى فعلا، ولا أدرى هل  
أفرج عنى بفضل وساطة الأمير، أو لأن الحكومة رأت الإفراج  
عنى بلا وساطة.. لا أدرى.. ولكنى أحسست بدمائى كلها  
تنزف من أعصابى عندما علمت أن أبى كان يتوسط لى لى  
الأمير.. إنه لا يعلم أن ثورتى ثورة على الأمير.. إنه لا يعلم أنى  
سأسير إلى آخر الطريق حتى أحطم هذا الأمير، وكل الأمراء..  
سواء سجنى أو شنقت.. ومن هذا اليوم تعودت أن أحتفظ فى  
البيت بمجموعة من الخطابات كتبتها مقديما إلى أبى، حتى إذا  
سجنى مرة أخرى تولى أحد أصدقائى إرسالها إليه الواحد بعد  
الأخر، فيطمئن إلى أنى خارج السجن.

وأذكر أيامها أن أبى سألنى بعد أن أفرج عنى، وهو جالس  
فى شقتى بالمنيرة، ومسبحته بين يديه، والوقار والهيبة  
يكسوان وجهه، ولحيته البيضاء تشع نورا :  
- أوعى يا بنى تكون شيوعى.

وسكت.. ترددت.. لم أدر بماذا أجيبه.. وعاد صوت أبى  
الوقور يردد :

- إوعى يا بنى.. دول كفرة وملحدين.

وقلت فى اختصار وأنا أدير عينى عنه :

- لا.. مش شيوعى.

والواقع أنى لم أكن شيوعيا.. ولم أكن أيضا شيئا آخر..  
لا شيوعى.. ولا إخوانى.. ولا وفدى.. ولا دستورى.. فقط  
ثائر. ثائر من أجل المعانى المجردة التى تملأ رأسى، وقلبى،  
وأعصابى.. الحرية.. العدالة.. التقدم.. مصر.  
والثورة تستبد بى.

إلى أن حدثت.

تحققت ثورة ٢٣ يوليو.

وبسرعة.. أسرع من خيالى.. سقط كل شيء كالأوراق  
الهشة المحترقة.. سقط الملك.. وسقط الأمراء.. وسقطت  
الأحزاب.. وسقط كامل بك مرتضى.. وسقطت دائرة الأمير..  
لقد استولت الثورة على كل الأرض، ووزعتها على الفلاحين..  
صغار الفلاحين.

وذهبت إلى قرينتنا لأحضر الاحتفال بتوزيع الأرض.

ولم يشهد أبى هذا اليوم.. لقد مات فى يوم ٢٦ يوليو.. بعد  
الثورة بثلاثة أيام.. ودفنوه تحت هذه القبة الخضراء.  
وفى هذا اليوم.. يوم الاحتفال بتوزيع الأرض.. اقترب منى

رزق العبيط، وفمه مفتوح، ولعابه يسيل، ثم نظر إلى بعينين خيل إلى أن فيهما لمحة من الخوف، وصاح كأنه رأى فى وجهى شيئاً أخافه :

- حاسب يا مأمون.. حاسب لتقع.

ثم ضحك ضحكة كبيرة كريهة وانصرف عنى بسرعة كأنه يخاف منى.

ولم أعلق يومها أهمية، لما يقوله رزق.. إنه عبيط. وعدت إلى القاهرة وأنا أشعر براحة.. راحة عميقة حلوة شملت كل كيانى.. ارتخت أعصابى.. وهدأ قلبي.. وخدمت النار فى رأسى.. إنى أحس أنى أديت واجبى وانتهيت.. من حقى الآن أن أستريح.

ونعمت بهذه الراحة.

ولعلى نسيت قريننا.

تركت لأخى عبدالرحمن الأربعين فداننا كلها ليديرها.. وبقيت أنا فى القاهرة. مستريحاً.



وسنوات الراحة تتوالى.

وكان صديقى عبدالحميد قد عين رئيساً لمجلس إدارة شركة المعادن، ولم يرشحه لهذا المنصب كفاءته فهو كخريج فى كلية الحقوق ومحام سابق، لا يفهم شيئاً فى المعادن، وإن كان يدعى الفهم.. ولكن رشحه لهذا المنصب ماضيه الثورى، وهو ماض لا يستطيع أحد إنكاره.

وعيننى عبدالحميد، مديراً عاماً للشركة.. فى الواقع أنه عين فى الشركة كل أفراد شلتنا القديمة.. إن العمل يتطلب تفاهما

وتجانسا بين القائمين به خصوصا فى هذه المرحلة التى نجتازها، ولا يمكن أن يتحقق التفاهم والتجانس أكثر مما يتحقق بين أفراد الشلة الواحدة التى تزاملت منذ أيام الدراسة. وانتقلت من شقتى فى المنيرة.. إلى شقة كبيرة أنيقة فى الزمالك تطل على نادى الجزيرة.. شقة من شقق الحراسة دلتى عليها صديقى عبدالعزيز رفعت عضو مجلس إدارة شركة الحياة للتأمين، وهو من الثوار القدماء أيضا.. إنها شقة لقطة.. خمس غرف، والإيجار اثنا عشر جنيها فى الشهر.. ولم أرفع خلو رجل.. ولكنى كنت محتاجا لحوالى ألفى جنيه لأشتري أثاثا يليق «بالديكور» الذى تركه فيها صاحبها السابق الخواجة الذى هاجر من مصر.. وكان هذا سهلا أيضا فقد اقترضت المبلغ من بنك النهضة، بضمان صديقى على المرجوشى، عضو مجلس إدارة البنك، وهو أيضا صديق قديم من الثوار. إن تأثيث شقة ليس أمرا هينا كما كنت أعتقد.. لقد قضيت ستة أشهر مشغولا بتأثيثها قبل أن أستطيع الانتقال إليها، والإقامة فيها.

وأخذنى صديقى عبدالحميد إلى النادى يوما.. نادى الجزيرة.. ليعرفنى بخطيبته الأنسة نيفين.. إنها ابنة فؤاد باشا خليل.. باشا سابقا طبعاً.. وكل شىء فيه سابق.. إنه وزير سابق من وزراء ما قبل الثورة.. وصاحب ألف فدان، سابقاً.. وصاحب نفوذ، سابقاً.

وعندما قدمنى عبدالحميد إلى نيفين، قدمنى أيضا إلى شقيقتها مرفت.. وبسرعة أحسست كأنى واحد من العائلة.. عائلة مرفت.. أحسست بنفسى كأنى كنت أعرفها دائما.. كأنى كنت أبحث عنها دائما.. أتطلع إليها.. أتمناها.. إتنا نتحدث حديثا

واحدا.. ونبدو كأنى أنا وهى تربينا فى بيت واحد.. ومرت بخاطرى صورة السنين الماضية عندما كان يقف بينى وبين مرفت جدار أسود عال.. جدار يفصل بين شاب يمتلك أبوه أربعين فدانا، وفتاة يمتلك أبوها ألف فدان.. ووزير.. ولكن الثورة حطمت هذا الجدار.. حطمت الجدار الذى يفصل بينى وبين مرفت.. ولكن.. الثورة لم تحطم الجدار الأسود الذى يفصل بينى وبين سبيلة.. لم تحطم الجدار الذى يفصل بين «سى» و«اللاسى».. و..

وطردت كل هذه الخواطر من رأسى بسرعة.. مالى ومال سبيلة الآن.. مالى ومال القرية.. إن عملى ومستوليتى هنا فى القاهرة.

ولم أكن أذهب إلى القرية خلال هذه السنوات إلا مرة أو مرتين فى العام.. لأقضى فى كل مرة، يوما أو يومين.. وكان رزق العبيط كلما ذهبت يجرى إلى وهو يعرج بقدمه اليمنى، ويرفع كتفه الكتعاء، العلبة الصفيح الصدئة تحت إبطه، ثم يبطلق فى وجهى، ويصرخ بصوته المشلول :

- والله وقعت يا مأمون.

ثم يعود ويجرى من أمامى كأنه يهرب منى، وضحكته المجنونة تمزق أذنى.

أف.. لقد بدأت أزهد من رزق.. لماذا يتركون هذا العبيط مطلق السراح هكذا فى أزقة القرية.. إنه إنسان خطر. وكنت أقضى اليوم أو اليومين فى القرية، وأنا أرقب أخى ساخرا وهو يحاول أن يقلد أبى.. يجلس جلسته.. ويلبس عمامته.. ويمسك مسبحته.. ويتحدث بصوته العميق المتزن.. ويمد فى كل ليلة صوانى العشاء. ولكن الملتفين حول

الصوانى، تغيرت وجوههم.. إنهم ليسوا من أهل القرية وفلاحيتها.. إنهم ضابط المركز، والعمدة، وموظفو الجمعية التعاونية، وأعضاء الاتحاد الاشتراكي، وموظفو الوحدة الاجتماعية.. و..

والفلاحون تمد لهم صوان أخرى فى حوش الدار. إلى أن كانت هذه المرة الأخيرة التى زرت فيها القرية. ولا أدري كيف حدث ليلتها كل هذا.. لا أدري ماذا حدث لى، ولا أى شيطان ركبنى.. فقد ذهبت إلى غرفتى فى الدار، بعد أن جلست مع أمى، وحضرت مجلس أختى.. وقبل أن أخلع ثيابى، رأيت سبيلة تمر فى القاعة الخارجية، فناديتها.. واقتربت فى خطوات مترددة ووقفت عند الباب، وهى تنظر إلى بهاتين العينين المستغيثتين.

وقلت لها بلهجة أمرة.. لهجة السيد.. إنى سيدها فعلا :  
- خشى يا بت.

ووقفت جامدة عند الباب.

فتقدمت منها وجذبته من يدها فى عنف، وأنا أصرخ :  
- باقولك خشى.

وأدخلتها غرفتى.

وأغلقت وراءها الباب.

وألقيتها على فراشى.

وشهوة قاسية، عريضة، مجنونة، تستبد بى.

لم أكن أشعر بجسد سبيلة.

ولكنى كنت أشعر بلذة قسوتى عليها.

ثم..

عندما أطلقتها.. وخرجت من غرفتى تترنح كالفرخة

المذبوحة.. أحسست بنفسى أتضائل.. وأتضائل.. إنى صغير.  
إنى حقير.. وألم كوخز الإبر ينطلق فى صدرى.. ألم فظيع..  
وانكفأت على وجهى أبكى..الرجل يبكى.. الثائر يبكى.. المدير  
العام يبكى.

وخرجت فى الصباح أطوف بالدار، منكس الرأس.. جلست  
مع أمى وأنا لا أستطيع أن أرفع عينى إليها.. وجلست مع أخى  
وأنا أنظر بين قدمى.. وقابلت الناس وجلست وجفونى  
مسدلة.. كأنى كنت أخشى أن يكتشف أحد أنى انتهكت  
عرضا.. عرض القرية كلها.

وجاء رزق العبيط إلى البيت، ونظر فى وجهى ثم صرخ :  
— كده يا مأمون.. كده تقع يا مأمون.

وهربت منه.

إنى أخافه.

وسألنى أخى فى المساء قبل أن يتجه إلى القاعة حيث مدت  
صوانى العشاء :

— صحيح الكلام اللى بيقولوه ده.

قلت وأنا ما زلت منكس الرأس :

— بيقولوا إيه.

وقال أخى فى حدة :

— بيقولوا إنهم حايددوا الملكية بعشرين فدانا.

ولم يكن سؤاله مجرد سؤال ، كان فيه تمرد، وسخط،  
وتربص.. ورفعت رأسى فى وجهه وفتحت عينى كأنى رأيت

الطريق الذى يقودنى إلى أن أرد للقرية عرضها الذى سلبته :

— ياريت يا شيخ.

وأشاح أخى بذراعه فى وجهى وهو يقول :



- والله أنتم حاتودوا البلد فى داهية.  
ثم قام إلى القاعة وأنا أسير خلفه، وأنظر إلى قفاه فى  
شماتة.. شماتتى فيه يوم تحدد الملكية بعشرين فدانا.  
وانتهى العشاء.

وانقض مجلس أخى.  
وما كدنا نتصرف إلى النوم.. حتى علا صراخ عنيف فى  
القرية، نزعنا جميعا من أسرتنا.. وجرينا إلى الخارج ورأينا  
الناس متجمعين عند حافة القرية ينظرون إلى حريق بعيد.  
إن الحريق فى أرضنا.  
أرض أخى.

وهرع أخى إلى أرضه وخلفه خمسة من رجاله المدججين  
بالسلاح.. وبقيت أنا فى مكاتى، وعلى شفتى ابتسامه  
مسكينة.. إنه نفس الحريق الذى شب منذ عشر سنوات.. ولكنه  
شب هذه المرة فى أرضنا.. وأنا أعلم من الجانى.  
إنه رزق.

رزق العبيط.  
ولن أدل أحدا عليه.  
ولكن.

لماذا أحرق رزق أرضنا ؟

وبقيت فى القرية لأكتشف ما جناه أخى عليها.  
لقد استطاع أخى أن يضع جميع أفراد عائلتنا فى قائمة  
المعدمين الذين وزعت عليهم الأرض، وأضاف إليهم أسماء  
جميع من ظن أنهم يدينون له بالولاء.. وبعد أن تسلموا الأرض  
استولى عليها لنفسه، أصبح هو الذى يزرعها.. هو الذى يعطى  
الحب، والمياه، والكيماوى.. و.. و.. وفى آخر العام يختص

نفسه بمعظم الدخل، ويترك الفلاح بلا شيء.. وكان يؤجر أرضه للفلاحين بعقود سرية، ويطالب بالإيجار مقدما.. و.. و.. وضع أهل البلدة من جشع أخى.. وبدأوا يلتفون حول عوض إسماعيل.. إن عوض إسماعيل كان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة عندما تركت القرية منذ أكثر من عشر سنوات وهو يملك فى زمام القرية عشرة أفدنة، هو وإخوته.. وقد رفض أن يخضع لزعامة أخى وجشعه.. إنه يتحداه فى إصرار وعناد. كما كان أبى يتحدى كامل بك مرتضى.

وقبل أسبوع ذهب عوض اسماعيل إلى أخى، ليحاول اقتناعه بعدالة مطالب أهل البلدة، فاحتد عليه أخى، وصفعه. كما صفع كامل مرتضى أبى.

وحرق رزق أرض أخى كما سبق أن حرق أرض الأمير. وقررت أن أعمل.. أن أتحرك.. أن أحاول استرداد صداقة الفلاحين وثقتهم بنا.. ولكن عبثا.. إنهم يستقبلوننى كما كانوا يستقبلون كامل مرتضى.. وينافقوننى.. ويكذبون على، كانى عدو لهم لا يملكون إلا سلاح الكذب ليصدوا اعتداءه. بقيت شهرا فى القرية.

ولا أمل..

ورزق ينظر فى وجهى ويصرخ :

– والله وقعت يا مأمون.

ثم يهرب منى.



وفى هذه الأثناء وقعت حادثة رزق.

لقد أراد بعض شباب القرية أن يداعبوه، فتركوه نائما تحت شجرة الجميز، وسرقوا علبته الصفيح من تحت ذراعه.

واستيقظ رزق.. وعندما لم يجد علبته، جن.. وجرى وراء الشبان، ولحق بواحد منهم، فأطبق على عنقه، وألقاه على الأرض، وظل يضغط على عنقه وهو يصيح «العبية.. العيبة» إلى أن اختنق الشاب بين يديه ومات.

وقبضوا على رزق وهو لا يزال يصرخ بصوته المشلول :  
- العيبة.. العيبة.

وهم يضربونه على قفاه.  
وسجنوه فى سجن المركز.

وقد درت أياما أبحث عن عيبة رزق.. العيبة الصفيح الصدئة.. إلى أن وجدت لها ملقاة فوق أكوام السباح.. فحملتها وذهبت إلى المركز، وطلبت مقابلة رزق.. ومددت له يدي بها.. وما كاد يلمح علبته حتى انطلقت الفرحة فى عينيه.. والتقطها منى فى لهفة، وأخذ يمسح عليها بيده، ثم فتحها، وبعد أن اطمأن إلى ما فيها، أعاد إغلاقها.. ثم تردد قليلا ورفع إلى عينيه.. ورأيت فى عينيه هذا الحب الذى لم أره فى عيني صديق آخر.. ورأيت فى عينيه شيئا آخر.. رأيت فيهما هذه النظرة التى كان أبى يستقبل بها الفلاحين الذين يطردهم من بيته عندما يعودون إليه بعد أن يطهروا نفوسهم.. وأحسست كأن هذه النظرة.. تغسلنى.. تغسل روحى.. تغسل قلبى.. تغسل عقلى.. تطهرنى.

ومد رزق إلى يده بالعبية، وقال بصوته المحشرج الذى تمرقه عاهته :

- خليها معاك.. أمانة.

قلت :

- دى عليك يا رزق.

■ عليه من الصفيح الصدىء .. ■

قال وهو يبتسم ابتسامته البلهاء :

– عليتنا احنا الاثنين.

ثم أدار لى ظهره، وتركنى، وسار بقدمه العرجاء ، وكتفه  
الكتعاء، عائدا إلى سجن المركز.

● ● ●

والقطار يعود بى إلى القاهرة.

– العلية الصفيح الصدئة فى جيبي.

لا أعلم إلى متى أستطيع أن أحتفظ بها، وهل لى من القوة  
ما يعيننى على الاحتفاظ بها.

لا أدرى.

كل ما أدريه أنى لن أتزوج مرفت.

■ عليه من الصفيح ■ ٤٣ ■

## كل هذا الحب

متى رأيتها لأول مرة ؟..

لا أدري..

ولا أدري متى اكتشفت أن ما بينى وبينها

هو الحب.

لقد فتحت عينيّ على الحياة وهي فيها.. تسكن في حيننا..  
حي حدائق القبة.. في نفس الشارع.. في البيت المجاور..  
والعائلتان تتزاوران.. وهي صديقة لأختي..  
وكنت أكبرها بعامين.

ووجدت نفسي دائما معها.. منذ كنت تلميذا في روضة  
الأطفال، وأنا أعود من المدرسة لأجدها في بيتنا تلعب مع أختي ..  
وكنت ألعب معهما .. لا لم تكن تلعب .. كانت أختي عادة  
تنصرف إلى اللعب، وأجلس أنا وصفيّة نتحدث.. ربما كنا نحكى  
حكايات الأطفال.. ولكنه كان دائما حديثا هادئا ناعما.. ليس فيه  
صراخ الأطفال ولا مشاداتهم.. وكانت صفيّة، ونحن مازلنا في

■ علية من الصفيح ■

■ كل هذا الحب ■

ذلك العمر، تشعرنى دائما بأنى أكبر منها.. وأنى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وكانت تستمع إلى كل ما أقبوله وهى مبهورة مستسلمة، كأنى أفتح لها أبواب دنيا عجيبة.. وكنت أنا أحس - منذ ذلك العمر - بإحساس غامض بمسئوليتى عن صفية.. كنت أدخر نصيبى من مكسرات رمضان، ومن كعك العيد ومن قطع الشيكولاتة التى توزعها علينا أمى فى المناسبات، لأعطي لصفية.. وكنا عندما ننزل إلى الشارع.. لألعب أنا الكورة مع الأولاد، وتلعب هى الحجلة، أو «نط الحبل» مع البنات، أجد نفسى التقت بين الحين والحين باحثا عنها.. عن صفية.. كأنى أطمئن عليها.. فإذا حدث لها شئ.. أى شئ.. كأن وقعت وانجرحت ركبته، أو عاكسها، أحد الأولاد، جرت إلى باكية، وهى تصرخ :

- محمد.. محمد..

ثم تشكو إلى..

وكنت دائما قادرا على أن أجفف دموعها، وأرضيها، وأحميها.. وكانت العائلتان معترفتين بهذا الصداقة، أو هذا الحب، أو هذا الإندماج.. لا أدري ماذا أسميه.. ماذا أسمى ما كان بينى وبين صفية ونحن مازلنا طفلين.. لا ادري.. فكانت أمى لا تسأل عنى إلا ويشمل سؤالها صفية :

- محمد وصفية راحو فين ؟..

وكانت أم صفية ترسل وراءنا الخادمة.

- روى شوقى محمد وصفية فين ؟

دائما، محمد وصفية.

وربما كانت هذه العاطفة الحلوة المبكرة هى التى جعلت منى

### ■ كل هذا الحب ■

هذا الطفل الهادئ، العاقل الذى تفتخر به أمى.. لقد كنت طفلا أكبر من عمري.. لم أكن متعاليا على أصحابى الذين فى مثل عمري.. ولا جافاً.. لا.. كنت أَلعب مع الأطفال، وأتحدث حديثهم، ولكنى كنت أكثر منهم جدية.. أو على الأصح كنت أكثر منهم اكتفاء وشبعاً عاطفياً.. لم أكن أرتكب حماقات الأطفال.. لم أفكر يوماً فى أن أعاكس المدرس.. أو أسرق شيئاً من وراء ظهر أمى.. فكنت رجلاً فى عمر الأطفال.

ثم لا أدري متى بدأ يتطور حبى لصفية.. ربما عند ما بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.. فقد بدأت أكتشف لون عينيها، وأنفها الصغير.. وشفتيها.. وتسريحة شعرها.. وبدأت أكتشف الثوب الذى ترتديه، والطريقة التى تنقل بها خطواتها فى مشيتها. وبدأ هذا الإحساس الجديد يقلقنى.. يحيرنى.. لم تعد صفية مجرد حقيقة بديهية فى حياتى، بل أصبحت موضوعاً يأخذ تفكيرى.. وبدأت أعانى اللهفة عليها.

لم أعد أعود إلى البيت وأنا واثق من أنى سأجد فيه صفية.. أصبحت أتساءل هل سأجدها فى البيت.. ويفوص قلبى عندما يداهمنى الاحتمال بأنى قد لا أجدها.. وعندما كنت طفلاً لم أكن واثقاً ولا حائراً.. ولم أكن أعود إلى البيت لا ملهوفاً، ولا غير ملهوف.. إن كل هذه العواطف والانفعالات.. الثقة والشك.. والتأكد والحيرة.. و.. و.. كل ذلك لا يخطر فى حياة الإنسان إلا عندما يبدأ الإنسان فى صنع حياته بنفسه.. والأطفال لا يصنعون الحياة، ولكن تصنع لهم الحياة. وكننت دائماً - إلا نادراً - أجدها فى البيت.

وكنت ألمح فى عينيها نفس الحيرة التى أعانيتها.. الحيرة فى عواطف وأحاسيس بدأت تملأ صدرها كالبخار، دون أن تفهمها أو تعرف من أين انطلقت ولا إلى أين تستقر.. وكان يبدو أنها لم تعد تأتي إلى بيتنا تلقائياً، ولكنها كانت تأتي عن عمد، وقد بدأت تعرف أنها تأتي لترانى، لا لتزور أختى.

وتطور حديثنا.. كبر.. لم يعد حديث أطفال.. ولا حديث ناضجين.. ولكنه حديث هذا العمر الحلو الذى يختلط فيه الخيال بالواقع، وتبدو فيه البديهيات كأنها اكتشافات، ويبدو فيه كل شئ كأنه شئ جديد يثير الدهشة.. ولكن صافية خلال أحاديثنا لم تتغير، إنها لا تزال دائماً تشعرنى بأنى الأكبر منها.. وأتى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وأنى المسئول عنها.. تكاد تشعرنى بأنى رجلها.  
وأنا أكبر.

وكلما كبرت عذبنى شئ غامض لم أكن أدرى سره.. ولكنى أشعر به كلما استوعبت عيناى تفاصيل أكثر من الخطوط التى ترسم صافية.. خطوط وجهها.. وخطوط قوامها.. وهذه الخصلة من شعرها الناعم التى تقع أحيانا فوق جبينها، فقزيعها بيدها كأنها تنهرها.. وهذه النظرة المتسائلة المترقبة التى تطل من عينيها كأنها تبحث عن شئ جديد.. وهذه الابتسامة الهادئة الناعسة التى ترقد فى استسلام بين شففتيها، كأنها مستسلمة لى.

وقد عرفت الآن أنى أحب صافية.

ولكنه ليس الحب الذى يعذبنى.. إنه شئ آخر.



## ■ كل هذا الحسب ■

شئ ربما كان داخل الحب، وربما كان خارجه.  
وكان هذا الشئ، يتطلب كل إرادتى، إرادتى الفجة الصغيرة  
لأقاومه.. وكلما شعرت بحاجتى لبذل مجهود أكبر فى المقاومة،  
انتابنى شعور غريب بالخوف.. نعم، الخوف.. لا أدرى من  
ماذا.. ولكن بدأت تمر على فترات كثيرة أشعر فيها بهذا  
الخوف.. الخوف على حبى.

وفى هذه السن.. وكنت فى الخامسة عشرة، وصفية فى  
الثالثة عشرة.. لاحظت لأول مرة أنها قد بدأت تسوى حاجبيها  
بالمقاط وثررت على غير عادتى، وصرخت فيها :

- إيه اللى عاملاه فى حواجبك ده ؟

ونظرت إلى بعينين مرتعشتين وقالت فى ذهول :

- مش عاجبينك ؟

قلت وأنا ما زلت أصرخ :

- لا.. مش عاجبنى.

ونظرت إلى صفية برهة ثم انبثقت الدموع من عينيها،  
وجرت من أمامى وهى تبكى.

ولم أشعر يومها بدموع صفية، ولا جريت وراءها  
لأصالحها، فقد وقعت ساعتها فى نوبة عارمة من هذا الخوف..  
الخوف الذى بدأ ينتابنى منذ شهور.. ولكنه فى هذا اليوم كان  
خوفا أكبر.. أحسست أنى بدأت أكتشف سر هذا الخوف.. إن  
صفية تكبر أسرع مما أكبر.. إنها ليست أصغر منى.. إنها  
أكبر.. وستكبر أكثر.. وأكثر ولن أستطيع أن ألحق بها أبدا..  
ستضيع منى.

ولم تعد صفية إلى تسوية حاجبيها بالملقاط.  
وكنت ألحظ الشعيرات الخضراء تنبت حول حاجبيها دون  
أن تنزعها، فلا أبتسم لها، ولا أعلق بشئ.. ولا حتى أشعر  
بالامتنان لها لأنها أطاعت كلامي.. فقد كنت أشعر بالغيظ..  
الغيظ منها لأنها تكبر في عمرها أسرع مما أكبر في عمري ..  
وامتناعها عن تسوية حاجبيها لن يوقف سرعة عمرها.. لن  
يعيدها إلى عمري.

وجاءت يوماً.. ودخلت هي وأختي إلى حجرتي.. وكنت  
جالسا إلى مكتبي أستذكر دروسي .. والتفت إليهما وبدأنا  
نتحدث.. وقد كنت ألاحظ في نفسي أني بدأت أتحدث كلما  
كانت صفية معي بلهجة فيها كثير من التعالي والغرور، كأني  
أحاول دائما أن أقنعها بأنى أكبر منها، ومازلت أفهم  
مالاتفهمه.. مازلت رجلها.

وتركتنا أختي وخرجت من الحجرة لبعض شأنها، كما  
تعودت أن تفعل في كثير من الأحيان.. لا تعمدا منها، ولكن لأن  
صفية لم تكن أبدا ضيفة في بيتنا.. إنها واحدة منا.

وانحنت صفية على مكتبي تقلب في الكتاب الذي أقرأ فيه..  
كما تعودت أن تفعل منذ كانت طفلة.. ووجدت نفسي فجأة  
أعاني هذا العذاب الذي عانيت منه طويلا.. أعانيه وصفية قريبة  
جدا مني.. كتفها تلامس كتفي.. وعطر أنفاسها يملأ أنفي..  
وشعرها الناعم المسترسل يهف على وجهي.. وهي تتكلم..  
ولكني لا أسمعها.. إن كل حواسي مركزة في استجماع إرادتي  
لأقاوم بها هذا العذاب الذي يمزق عروقي.. وبدأ كلام صفية

### ■ كل هذا الحب ■

يتقطع.. ثم صمقت.. وأنا صامت.. ومضت برهة طويلة..  
طويلة.. ونحن صامتان.. ثم رفعت إلى عينيها.. والتقت نظراتنا  
لقاء طويلا.. صامتا.. وأنفاسنا مبهورة.. وشئ كصهد النار  
يلف وجهينا.. ثم اقتربنا، وجهى من وجهها.. ثم استقر خدها  
على خدى.. برهة.. لحظة.. ثم رفعت وجهها فى انتفاضة كأنها  
خافت أن تحرقها النار، وجرت متعثرة خارج الغرفة.. خارج  
البيت.

وكانت هذه قبلتنا الأولى.

أول قبلة فى حياتها.

وأول قبلة فى حياتى.

ولم تكن قبلة.

كانت مجرد لمسة.

وانحنيت فوق مكتبى أرتعش.

ولم أستطع النوم ليلتها.

إنى مازلت أرتعش.. وفى طيات رعشتى أشياء كثيرة.. فيها

عذاب، وفيها فرحة.. فرحة كبيرة.

وفى اليوم التالى جاءت خادمة صفية الصغيرة إلى بيتنا

تبحث عنى.. وأعطتنى كتابا قالت إن صفية ترسله لى كما

وعدتنى.. كتاب من كتب المدرسة لا قيمة له.. وقبل أن أتعجب

اكتشفت أن بين صفحات الكتاب خطابا كتبت لى صفية.

أول كتاب تكتبه لى.

وبدأنا عصر الخطابات.

والعجيب أن هذه الخطابات أبعدت بيننا أكثر مما قربتنا..

## ■ كل هذا الحب ■

فلم تعد صفية تأتي إلى بيتنا كل يوم كما تعودت.. ربما لأن حبنا منذ أن تلامسنا بدأ يرتبط بالواقع الإنساني.. وهو واقع نخافه نحن الاثنين منذ أن اكتشفناه.. نخافه وفتعذب به. وعندما جاءت صفية بعد أربعة أو خمسة أيام، تبادلنا خلالها في كل يوم خطابا.. جاءت - لا كواحدة منا - ولكنها جاءت كأنها ضيفة.. اختارت ثوبا أنيقا لا تلبسه إلا وهي ضيفة.. وشفقت شعرها بعناية كأنها ذاهبة إلى حفلة.. وعندما نظرت إلى حاجبيها لاحظت أنها عادت وسوتهما بالملقاط.. ولم أثر.. ولم أغضب.. لقد شعرت يومها أنها سوتهما من أجل.. حتى عندما شعرت أنها تجملت بحيث تبدو كبيرة.. لم أغضب، فقد شعرت أيضا أنها كبرت من أجل.

ولم نستطع يومها ولا بعدها، أن نتبادل النظرات بنفس البساطة التي كنا نتبادلها بها.. ولم يستطع حديثنا أن يتصل بيننا بنفس السهولة التي كانت تجرى بها.. كان كل منا يعلم أنه أصبح في حاجة إلى أكثر من النظرات. وأكثر من الأحاديث.. وكل منا يتقرب اللحظة التي ستركنا فيها أختى وحدنا.. وربما خيل إلينا يومها أن أختى. تتباطأ في الخروج عن عمد.. لتغيظنا. وبرغم ذلك فعندما خرجت أختى تسمرنا في مكاننا.. احترنا ماذا نصنع.. كيف أقوم من مكاني إليها، وكيف أقوم من مكانها إلي.. بل ربما احترنا فيما نريد.. ماذا يريد أحدنا من الآخر.. ولفتنا عاصفة عصبية من الارتباك، والخفر واللهفة.. ولم أعد أستطيع أن أنظر في عينيها.. ولم تعد تستطيع أن تنظر في عيني.. ثم فجأة.. وكأننا خفنا أن يسرقنا الزمن

■ كل هذا الحسب ■

ونشيخ ونحن متباعدان.. اندفع أحدنا إلى الآخر.. ورقد خدها على خدى.. وقلبي يخفق بخفقات قلبها.. ثم طافت شففتاي تمسحان على خدها.. من الذى علمنا أن الشفاه تحمل كل هذه الحساسة.. كل هذه المعانى.. كل هذه الدنيا.. لست أدري.. ورئتاي تتنفسان من أنفاسها.. وأعصابى تنبض بنبضات أعصابها.. ثم فجأة أيضا ابتعدنا أحدنا عن الآخر.. كيف تنتهى القبله.. ولماذا تنتهى.. بل لماذا تتوقف، لست أدري.. وهى تنظر إلى بعينين مبهورتين، مالبثتا أن ارتختا ونامتا تحت جفنيها كأنهما طفلتان شبعتا.. وخرجت أنا من الحجرة فى خطوات بطيئة كأنى أسير على قطع من السحاب.. وذهبت إلى حجرتى.. ورقدت فى فراشى.. مستسلما فى هدوء إلى رعشتى.. رعشة قلبى.

وكان هذا هو كل ما بيننا.

هذه القبلات.

وهذه الخطابات.



وكنت فى الثامنة عشرة، وصفية فى السادسة عشرة، عندما خطبت، خطبت صفية إلى رجل يكبرنى باثنى عشر عاما، ويكبرها بأربعة عشر عاما.

وتلقيت الخبر فى استسلام عجيب، كأنه حدث كنت أنتظره منذ زمن طويل.. ربما منذ ولدت.. وكان إحساسى بانتظاره مختبئا فى منطقة اللاشعور.. أشياء كثيرة ننتظرها دون أن نحس بانتظارها.. الموت.. إننا ننتظر الموت دون أن نتعمد

### ■ كل هذا الحسب ■

انتظاره.. ومهما بكينا وصرخنا فإننا لانستطيع أن نصد الموت.. ولا نحاول أن نعيد الحياة. إننا فى قرارة أنفسنا مستسلمون له، وكنا دائما فى انتظاره.. وكذلك.. زواج صفية من رجل آخر.. وكانت التقاليد الاجتماعية متمكنة منها ومنى إلى حد الإيمان.. كالإيمان بالموت.. فلم نحاول أن نثور، كما لا يثور الناس على الموت.. ولم نحاول أن نهرب، كما لا يهرب الناس من الموت.

وحدد يوم الزفاف على عجل.. بعد أسبوعين.. فالرجل مسافر فى بعثة إلى إنجلترا وسيصحب صفية معه.

ولم أر صفية خلال هذين الأسبوعين.. وكنت خلالهما أعيش صامتا واجما كالمصعوق وأتحرك فى خطوات بطيئة متئدة كأنى أحكم الحكماء أو كأن فى صدرى قنبلة أخشى أن تنفجر لأقل حركة.

وفى صباح يوم زفافها جاءت.

جاءت إلى بيتنا.

شعرها مهوش فوق رأسها.. ووجهها ممتقع.. وبصمات الأرق تحت عينيها.. وشفثاها ترتعشان وقد بهت لونهما.

واتجهت إلى غرفتى مباشرة، كأن ليس فى البيت أحد غيرى.

وألقت نفسها بين ذراعى.. ورأسها على كتفى.. ثم أجهشت

بالبكاء.. وهى تتمتم :

- محمد.. محمد..

ثم أخذت وجهى بين كتفيها.. وأصابها ترتعش.. وألقت

بشفثيها بين شفثى.. قبلة كبيرة عصبية عنيفة.. ليس لها طعم،

■ كل هذا الحب ■

عنفها يغلب طعمها.. كأنها كانت تحاول أن تأخذ منى فى قبلة  
واحدة مايكفيها عمبرها كله بعيدا عنى وأختى كانت واقفة على  
الباب، تنظر إلينا، وتبكي.

إن أختى خطبت فى نفس العام.. قبل صافية.. ومن يدرى  
ربما كان لها هى الأخرى حب ودعته.

وأنا جامد.. لا يستطيع إحساسى أن يلتقط شيئا.. ولا حتى  
قبلة صافية.. لم أبك معها.. ولا لفتتها بذراعى.. ولا بادلتها  
قبلتها.. ولا كلمة.. إنى جامد.. كل شئ فى قد توقف.. وكل  
ماحولى توقف.. إنى ميت.

وجرت صافية خارجة من البيت تتعثر فى دموعها.  
وأنا جامد.

ميت.

وفى المساء كان مفروضا أن أذهب إلى حفل الزفاف.. وأمى  
تتعجلنى - ياللا يامحمد.. مايصحش نروح متأخرين.. ده احنا  
أهل.

وخرجت وراء أبى أمى وأختى.. وأنا مازلت جامدا.. تائها..  
أسير فى خطوات ساهمة وثيدة، وفى صدرى هذه القنبلة التى  
أخشى فى كل خطوة أن تنفجر.. وما كدت أقترب من بيت  
صافية حتى دهمتنى أضواء الزينة.. حرقت عيني وأصابتنى  
برعشة كرعشة الحمى وخفت.. هلع.. أحسست بالمصابيح  
الملونة كأنها عيون شياطين تنطلق فى وجهى.. كأنها فوهات  
مدافع تطلق على النار.  
وتراجعت فى خوف.

## ■ كل هذا الحب ■

تركت أبى وأمى وأختى يدخلون.. واستدرت أنا وجريت..  
جريت بكل قواى.. قواى.. جريت إلى أن اجتذرت حى حدائق  
القبه.. ثم هدأت خطاى وأنا أتجه إلى حى العباسية.. وسرت..  
سرت طويلا.. وأسياخ من الألم تشق كل قطعة منى.. سرت  
إلى أن وصلت إلى صحراء العباسية.. وأقدامى قد ثقلت وهى  
تتعثر فوق الرمال.. والليل يتكاثف حولى حتى لم أعد أرى  
شيئا.. والألم.. ألم قاس.

ثم شعرت بشئ يسقط على الرمال.. إنه أنا.. وإذا بى أبكى..  
أبكى فى عنف.. كل قطعة منى ترتعش وتبكى معى.  
وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها كل هذا البكاء.. والمرة  
الأخيرة.

ورطب البكاء أعضابى.. هدأت.. وسكت عنى الألم.. ورفعت  
رأسى الذى وقع منى فوق الرمال، وإذا بى ألمح نورا.. نور  
ينطلق من داخلى.. من صدرى.. إنه نور الحب.. إن الحب  
لا يزال معى.. لم يأخذ أحد الحب منى، الحب لم يتزوج رجلا  
آخر.

والحب هو صافية.

وشعرت بابتسامة تمسح الأسى من شفتى.. ورموشى تهتز  
وتنفض عنها الدموع، كما تهتز أجنحة العصافير لتنفض عنها  
الندى.

وعدت.

هادئا.. مستقرا.. تملأ السكينة نفسى.. ورقدت فى فراشى  
لأقرأ كتابا.. والحب يحملنى فى حنان ودعة إلى النوم.





■ كل هذا الحب ■

كم مضى ؟

عشر سنوات..

وقد حدثت أثناء هذه السنوات أشياء كثيرة.. نلت  
بكالوريوس الهندسة.. واشتغلت مهندسا فى إحدى الشركات..  
وتزوجت أختى وأصبح لها بيت وأولاد.. وأحيل أبى إلى المعاش،  
وقضل أن يأخذ أمى وبقينا فى بلدتنا.. واستأجرت أنا شقة  
صغيرة فى شارع القصر العينى، جمعت فيها كل حياتى..  
كتبى.. واسطواناتى.. ومائة الرسم.. وهذه الأشياء الصغيرة  
الكثيرة التى تخلق من كل فرد شخصية متميزة مستقلة بذاتها.  
شئ واحد لم يتغير خلال هذه السنوات.

حبنى.

صفية.

إنى أعيش فى انتظارها كل يوم.. ليس انتظارا.. ولكنه  
انتظار يسرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تتردد أنفاسى.  
انتظار كانتظار المتصوف للقاء ربه.. انتظار حلو هادىء،  
مستسلم.. وكلما دق جرس الباب مر بى خاطر سريع.. إنها قد  
تكون صفية.. وكلما دق جرس التليفون رفعت السماعه بلهفة  
فقد تكون صفية.. وكلما ذهبت إلى زيارة أختى خيل إلى أنى  
سأجد صفية معها.. وكلما ذهبت إلى حدائق القبة ومررت  
ببيتنا القديم خيل إلى أنى سأجد صفية تطل من الشرفة..  
وأخرج خطاباتها وأقروها ولم أكن أقروها بعينى.. ولكنى  
أقروها بأذنى.. إنى أسمعها.. ليس مجرد خيال.. ولكنى  
أسمعها.. كان صوتها حقيقة يملأ كيانى كله.. ثم أعود وأنتظر.

■ ٤٦ ■ علبة من الصفيح ■

■ كل هذا الحبيب ■

كان هذا الانتظار هو نبضى.  
ولم تدخل حياتى خلال هذه السنوات العشر أية امرأة.  
ولا حتى امرأة عابرة.  
هل هذا شذوذ.. أبدا.. إن الذى يرسم تصرفاتنا هو  
ما نريده.. وأنا لا أريد أية امرأة.. إنى أنتظر صفية.  
وأمى تلح علىّ فى كل يوم أن أتزوج.. وأضحك.. إن أمى تعتقد  
أن فى الدنيا فتاة أخرى غير صفية.. لا.. لا.. بالنسبة لى. لا.  
وفى يوم.  
بعد عشر سنوات.  
دق جرس التليفون فى مكتبى بالشركة.  
وما كدت أسمع كلمة : الو.. حتى صرخت :  
- صفية.  
لقد عرفت صوتها قبل أن تتكلم وبعد عشر سنوات من الصمت.  
وقلنا فى التليفون كلاما كثيرا مرتبكا، كأننا كنا نحاول فى  
هذه اللحظات أن نسترد كل ما فاقنا من كلام خلال عشر  
سنوات.. ومن ضحكات.. ومن عتاب.. و.  
واتفقنا ببساطة على اللقاء فى مقهى هادىء منزو فى  
شارع الهرم.  
هى التى اختارت هذا المقهى للقائنا.. وقالت لى إنها كانت  
تمر بهذا المقهى منذ خمس سنوات.. وكلما مرت به تمننت أن  
تجلس فيه معى.. رفضت أن تدخله إلا معى.  
والتقينا.  
ووقفنا ينظر كل منا للأخر وبين شفاهنا ابتسامتان  
حائرتان مترددتان لا تدريان أى معنى تحملانه.

■ كل هذا الحب ■

ولكنى وجدت نفسى أعود عبر الزمن إلى عمر الثامنة عشرة.. وصفية تعود إلى السادسة عشرة.. ربما كانت صفية قد سمعت قليلا، وربما كان فى حديثها معان لم أسمعها منها من قبل.. ولكنها لا تزال فى عمر السادسة عشرة.. لم تمر بنا عشر سنوات.. لم نفترق أبدا.. إنها كانت معى بالأمس.

ويدي فى يديها.

ونتكلم.

لم تترك يدي يدها.

ولم نكف عن الكلام.

وأصبحت تتصل بى كل صباح بالتليفون.

وعشت فى كل تفاصيل حياتها.

وعاشت فى كل تفاصيل حياتى.

ثم كان لقائنا الثانى بعد أسبوعين.

فى شقتى.

وأحاسيسنا أكثر نضجا.

وقبلاتنا أكثر وعيا.

وكانت صفية أول امرأة فى حياتى.. كما كانت أول فتاة فى

حياتى.. الفتاة الوحيدة، والمرأة الوحيدة.

وصفية !!؟

لا.. لا تقلها.. لم يكن فى حياة صفية رجل آخر.. إنك لا تفهم

ما تقول.. إنك تعلم أن كل إنسان له حياة عامة يعطيها للمجتمع،

وحياة خاصة يحتفظ بها لنفسه.. إنه دين عليك نحو المجتمع

الإنسانى أن تخصص جزءا من حياتك له.. والجزء العام.. أو

■ كل هذا الحب ■

الحياة العامة.. وإلا كنت إنساناً أنانياً تافهاً.. ودين المجتمع الإنساني نحوك أن يترك لك حياتك الخاصة تتصرف فيها كما تريد ما دمت لا تعتدى بتصرفاتك على أحد.. وحياتي العامة التي أعطيها للمجتمع، هو عملي كمهندس.. والحياة العامة التي تعطيها صافية للمجتمع.. هو عملها كزوجة وأم.. ليس معنى هذا «رجل آخر».. إنه مجرد عمل.. كعملي في الشركة.. وأنا أحترم زوج صافية احترامى لرئيس الشركة.. ما دام يقوم بواجبه نحو الشركة.. صحيح أنه في حالات كثيرة تستطيع المرأة أن تجمع في بيتها بين حياتها الخاصة وحياتها العامة.. كأن تتزوج رجلاً تحبه.. ولكنها إذا لم تستطع ذلك فإن هذا لا يحرمها من حياتها الخاصة، ولا يعفيها من واجبها نحو تقديم حياتها العامة للمجتمع.. أن تقدم للمجتمع شيئاً.. ولو كانت صافية قد استكملت دراستها وقدمت للمجتمع عملاً، كأن تكون طبيبة لأعفاها هذا من الزواج من شخص لا تحبه.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقدم للمجتمع إلا عملها كزوجة وأم.. فاضطرت.

هل تفهمنى ؟

إنى أرفض أى تفسير آخر.. وأرفض كلمة «رجل آخر».. إنه عمل.. مجرد عمل.. مهما تسامت فيه العواطف، فهو عمل. وانتظمت الحياة.. هادئة، حلوة، رقيقة، بينى وبين صافية.. كانت تحادثنى صباح كل يوم فى التليفون.. لا تحادثنى فى المساء، ولا فى أيام الجمع.. وتتلاقى فى فترات متباعدة.. أحياناً كل أسبوعين.. وأحياناً كل شهر.. وكانت أحياناً تسافر مع زوجها عندما ينتدب للعمل فى الخارج.. وتغيب شهوراً..

■ كل هذا الحسب ■

وفي مرة غابت سنتين.. وأنا أنتظر.. هذا الانتظار الذي يسرى  
في هدوء خلال أعصابي، كما تسرى أنفاسي.  
ولم نعتد على أحد بحبنا.  
بالعكس.

إنى عندما استكملت سعادتي بحبي، استطعت أن أقدم  
إنتاجا أكثر في عملي.. وعندما سعدت صافية استطاعت أن  
تضفي على بيتها وأولادها سعادة أكبر.. أن الإنسان الناقص  
لا يمكن أن يقدم شيئا كاملا.. وأنا لم أكتمل إلا بصافية..  
ولم تكتمل صافية إلا بي.. وعند ما اكتملنا استطعنا أن نقدم  
للناس عملا كاملا، يسعدهم كسعادتنا.



كم مضى ؟  
عشرون عاما.  
أصبحت في الثامنة والخمسين من عمري، وصافية في  
السادسة والخمسين.  
واتصلت بي بالتليفون وصوتها يرتعش.  
لقد مات الزوج ؟؟  
وكنت أول من تبلغه النبأ كعادتها منذ كانت طفلة.. تلجأ إليّ  
كلما ألمّ بها حدث.  
وحزنت صافية على زوجها حزنا عميقا صادقا.  
وحزنت معها.. حزنا حقيقيا، لا رياء فيه.  
ومضى أكثر من عام قبل أن يتبدد جزننا إلى ذكرى عاطرة.  
وأنا وصافية كما نحن.. تتصل بي صباح كل يوم في

■ كل هذا الحب ■

التليفون.. لم تكن تتصل بى فى المساء، ولا فى أيام الجمع..  
حتى بعد أن مات الزوج.. ثم كنا نلتقى فى فترات متباعدة..  
أحيانا كل أسبوعين وأحيانا كل شهر.

ثم قلت لها :

– أظن من حقنا نتجوز بأه يا صافية.

ورفعت إلى عينيها الناعستين الهادئتين، وصمتت.

ولم يكن هناك ما يمنع من زواجنا.. فأولادها قد كبروا  
واستقل كل منهم فى بيته.. وهى مصممة على ألا تعيش مع  
أحد منهم.. إنها تعيش فى بيتها وحيدة مع مربية أولادها.  
ولكنها ظلت صامته.

وعدت أقول :

– إيه رأيك !؟

وتلونت وجنتها بلون الخفر، وقالت وهى ترخى رموشها  
فوق عينيها :

– مش عارفه يا محمد.. أنا عمرى ما فكرت إننا نتجوز..  
متهياً لى إن حبنا أكبر من الجواز.

قلت :

– حيناً من حقه يستريح ولو اليومين اللى فا ضلين.

قالت :

– أنا خايفة يا محمد.. خايفة على حبنا من الجواز.. مش  
عارفة ليه.. بعد ده كله، نبتدى حاجة جديدة.

وفى الواقع أنى كنت أشاركها نفس الخوف.. ونفس التردد.  
لقد عاش حبنا طويلاً، واكتسب عادات معينة، وطريقة

■ كل هذا الحسب ■

للتعبير عن نفسه.. وارتقى بنا إلى أعلى قمم السمو.. قمم أعلى من كل القمم التي وضعها المجتمع للحياة الفاضلة.. وربما لو نزلنا بحبنا إلى تقاليد المجتمع، لفقد روعته.. وفقد صلابته وعناده.. فقد أفضل ما فيه.

ولم نتزوج.

أصرت صفية على ألا نتزوج.

ومضت ست سنوات ولم يزد علينا شيء، إلا أنى بدأت أقوم لها ببعض مطالب حياتها التي لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل. ولم تقدمنى صفية إلى أولادها بعد أن مات زوجها، ولكنها كانت تحدثهم عنى قليلا كصديق من أصدقاء عائلتها منذ أيام حدائق القبة.

ثم مرضت صفية.

وعندما مضى أكثر من شهر وهى لا تستطيع أن تغادر الفراش.. صممت على أن أزورها.. وكانت المرة الأولى التي أزورها فيها فى بيتها.. دخلت البيت كأنى أدخل قدس الأقداس، خاشعا لرهبته.

وقالت فى ضعف :

- ماكنتش عيزاك تشوفنى وأنا عيانة يا محمد.

إنها لا تدرى.

لا تدرى أنى مازلت أراها إلى اليوم كما كانت وهى فى السادسة عشرة.. أراها بعينى، لا بخيالى، ولا بأوهام حبى، أرى عينيها الناعستين الهادئتين، ووجنتيها العاليتين، وشفتيها المكتنزتين الملوؤتين بالحب، وبشرتها الناعمة السمراء،

■ كل هذا الحب ■

وشعرها الأسود المسترسل.. إنها لم تكبر أبدا.. أبدا.. إنها  
الفتاة التي أحبها.  
وذات ليلة.

صحوت منزعجا من نومي.. وارتديت ثيابي بسرعة،  
وجريت إلى الجراج، وقدمت سيارتي إليها.. إلى صفية..  
والساعة حوالى الثالثة صباحا.

فضغط على جرس الباب.

وعدت أضغط بإصرار

يجب أن أراها الآن.. الآن.

وفتحت لى بعد فترة طويلة، المربية العجوز.. وهرعت إلى  
غرفتها وكانت راقدة فى فراشها.. بيضاء فى لون الفل،  
وشفتها ترتعشان.. وفتحت عينيها عند ما اقتربت منها..  
وبرقت ابتسامة خاطفة بين شفثيها.. وسمعتها تهمس.

- محمد.

ثم ارتخت يدها فى يدي.



إنى الآن فى السادسة والستين من عمري.  
وقد مضت أربع سنوات وأنا فى انتظار صفية.. هذا  
الانتظار الهادىء المتصوف الذى يسرى فى أعصابى كما  
تسرى أنفاسى.. وأنا واثق أنها ستأتى يوما وتدعونى إلى  
لقائها فى مقهى صغير منزو ترفض أن تجلس فيه إلا معى.  
مقهى فى الجنة.



## الله .. الله .. يا سيدي

بدأ أفراد الشلة يتوافدون على منزل السيد المهندس محمد برعى أحد مديري العموم بوزارة الأشغال.. وقد تعودوا أن يجتمعوا فى مثل هذا اليوم من كل شهر، فى منزل أحدهم، لسماع حفل السيدة أم كلثوم المذاعة من الراديو. وكان أول الواقدين السيد إسماعيل سكر مدير مكتب وزير الأوقاف والسيدة حرمه.. واستقبله محمد برعى فاتحا ذراعيه، واحتضنه إلى صدره صائحا :  
- ازيك يا أبو السباع.. وحشتنا.  
وتبادلت حرم إسماعيل سكر وحرم محمد برعى طرقة القبلات.  
وقالت حرم محمد برعى :  
- ازيك يا إنصاف.. ازي عروستنا الحلوة.  
وقالت إنصاف وشفتها مشدودتان إلى آخرهما ترسم ابتسامة مفتعلة :

- ازيك إنتى يا دودى، وإزى الولاد.  
وشدتها دودى من يدها وجلستا فى الركن البعيد من غرفة  
الصالون.. وأخذ محمد برعى صديقه اسماعيل سكر وجلسا  
فى الركن الآخر بجانب الراديو.. وهو يقول :  
- اقعد يا اسماعيل.. إزى الحال.. خصموا منك كام الشهر  
ده.. وتنهد إسماعيل قائلا :  
- مييتين خمسة وأربعين قرش.. زيادة ضريبة الدفاع،  
والادخار.  
وقال محمد برعى وهو يقهقه :  
- يعنى كمان حفلتين لأم كلثوم والماهية ما يفضلش مېها  
حاجة.  
وقال اسماعيل :  
- والله ما فى حاجة بتخفف المصايب إلا أم كلثوم.. الواحد  
يقبض من هنا، ويتغم.. ويفضل مغموم لغاية ما يسمع الست.  
ودق جرس الباب، ثم دخل الأستاذ عبدالعزيز على المحامى،  
والسيدة حرمه.. وتكررت الأحضان وطرقعة القبلات.. ثم  
وصل السيد شكرى ناجى، الموظف بالاستعلامات والسيدة  
حرمه.. والدكتور رفعت عبدالله طبيب مستشفى الرمد والسيدة  
حرمه.. وتجمعت السيدات فى الركن البعيد، والتف الرجال فى  
الركن الآخر حول الراديو.  
وعاد محمد برعى يقول :  
- اللى عايز أعرفه الخصومات اللى نازلة ترف على  
الماهيات دى آخرتها إيه.  
وقال السيد شكرى :  
- أنا مش مجننى إلا الادخار ده.. طيب واحد مش عايز  
يدخر حد شريكه.

وقال الاستاذ عبدالعزيز :  
- يا جماعة، لا تنظروا إلى الموضوع من وجهة المصلحة  
الفردية.. البلد عليها التزامات كثير ولازم كلنا نتحملها.  
وقال الدكتور رفعت :  
- التزامات إيه بأه يا سي عبدالعزيز.. آه.. قول لنا إيه هي  
الالتزامات دي.  
وأطلقت دودي ضحكة مجلجلة لوت أعناق الرجال.. ثم  
خففت صوتها وقالت :  
- ده الراجل يا حبة عيني ماخدش منهم يومين.. ويا أختي  
ماتعرفيش إزاي لفوه.. وراح متجوز الست الكركوبية.  
وقالت قدرية حرم السيد شكرى ناجى :  
- يعنى بالميت ما يجيش عندها أربعين سنة.  
وقالت إنصاف :  
- وأكثر.  
وقالت خديجة حرم الاستاذ عبدالعزيز :  
- إنما صحيح حاتعمل فرح وزفة ؟  
وقالت سوسن حرم الدكتور رفعت :  
- دي كانت تبقى فضيحة.. دي تبقى فضيحة. دي تالت  
جوازة.. فرح إيه وهباب إيه.  
وارتفع صوت إسماعيل سكر :  
- الساعة كام يا جماعة.. اوعى تكون الست ابتدت.  
ونظر شكرى ناجى فى ساعته وقال :  
- ياه.. الساعة عشرة ونص.. دي زمانها ابتدت من زمان.  
وقام محمد برعى وأدار مفتاح الراديو، ثم التفت قائلاً :  
- طيب لو كانت البلد عليها التزامات، وكلنا لازم نتحملها

يبقى لازمة الأرباح اللي بيوزعوها دي إيه.. طيب ما بلاش  
أرباح، ويسيبوا ماهيتنا فى حالها.  
وقال الأستاذ عبدالعزيز :  
- الأرباح دي لها هدف تانى.. هدفها إشعار العمال بأنهم  
ملاك.

وقال شكرى ناجى :

- واشمعنى يا أخى العمال وموظفى الشركات يبقوا ملاك..  
واحنا يا بتوع الحكومة.. احنا يا للى شايلين الهم على دماغنا،  
اشمعنى احنا كمان ما نبقاش ملاك.. ليه ما يوزعوش علينا  
نسبة من أرباح الحكومة.

وقال الدكتور رفعت :

- مش مفروض الحكومة تريح.

وقال محمد برعى :

- بلاش نقول ربح.. نسميه دخل.. نسميه إيراد.. الحكومة  
إيرادها بيزيد كل سنة، ليه ما يوزعوش علينا نسبة من زيادة  
الإيراد، باعتباره أرباح.

وقال الأستاذ عبدالعزيز :

- يا جماعة ماتنسوش أن الموظفين كانوا دايما متمتعين  
بضمانات كافية.. عندهم معاشات، وأجازات وحماية من  
الرفق.. إنما العمال ماكانش عندهم حاجة أبدا.. ومن حقهم  
أنهم ياخدوا حقهم.

وقال شكرى ناجى :

- طيب بلاش الموظفين.. الفلاحين.. فلاحين الإصلاح  
الزراعى.. مش الإصلاح الزراعى بيحقق أرباح .. طيب

■ الله .. الله .. يا ست ■

الفلاحين اللى بيشتغلوا فيه واللى ما أخذوش خمس فدادين.  
ما بياخدوش أرباح ليه.

وقال الدكتور رفعت :

- والله الكلام دم لازم يتكتب فى الجرايد.

وقال الأستاذ رفعت :

سيبك من الجرايد.. كل اللى بيتكتب فى الجرايد نوع من  
اللى نسميه مقالات تبريرية.. يعنى الحاجة تتعمل الأول  
وبعدين الصحافة تبررها، تقول اتعملت ليه.. ما عندناش  
مقالات توجيهية.. ولا كاتب توجيهى.

وقال شكرى ناجى موظف الاستعلامات :

- لا.. مالکش حق يارفعت.. الجرايد مش ساكتة.. ده احنا  
عندنا كل يوم ميت شكوى من الجرايد يبيعها الوزراء  
ورؤساء مجالس الإدارات.. هو بس.

وقطعت حديثه دودى وقد قامت تطوف بعربة الشيكولاتة.

وقال الدكتور رفعت وهو يلوك قطعة من الحلوى فى فمه :

- ما تخرجش من الموضوع.. تعرفوا العامل النهاردة  
بتوصل ماهيته كام.. أربعين وخمسين جنيه.. وامبارح عبدالله  
خليل المهندس فى مطبعة النهضة قاللى إن الأسطى عندهم  
ماهيته وصلت لمائة جنيه.

وقال اسماعيل :

- والله أنا بافكر ما ادخلش ابنى الجامعة ووديه يتعلم  
صنعة.

وقال عبدالعزيز :

- صح.. ده اللى لازم يحصل.. جامعة إيه وبتاع إيه.

وقال محمد برعى :

■ ٦٨ ■ علية من الصفيح ■

- برضه يا عبدالعزيز.. يعنى لو جالك عامل يخطب بنتك  
ترضى .

وقال عبدالعزيز :

- ما أرضاش ليه.. مادام بيكسب، ويقدر يعيشها كويس.  
وقالت دودى وهى تسحب صندوق الشيكولاتة من تحت  
يده :

- إزاي بأه يا عبدالعزيز بيه.. بأه ده كلام.. الأصل برضه  
عليه عمل.

وقال عبدالعزيز :

- أصل إيه يا دودى هانم.. ده كلام بتاع زمان.

وقال محمد رفعت :

- والثقافة .

وقال عبدالعزيز :

- الثقافة فى القرية، مش فى الشهادة.. يعنى أنا كنت  
اتثقت فى كلية الحقوق.. أبدا والله، لولا الكام كتاب اللى  
قريتهم كان زمانى حمار.

وابتعدت دودى بعلبة الشيكولاتة واتجهت إلى ركن  
السيدات.. واستقبلتها إنصاف قائلة :

- إلا قوليلى يا دودى.. أنتى لقيتى رز الشهر ده .

وقالت دودى :

- أبدا والله يا أختى.. بعث الواد النهاردة الصبح رجع من  
غير رز.. إنما أنا دايمًا عاملة حسابى.. مخزنة شهرين لقدام.

وقالت قدرية :

- أنا مريحة نفسى.. عملت ماهية ثابتة للموظف بتاع  
الجمعية. جنيه فى الشهر.. ومافيش جنس حاجة أطلبها

مالقيهاش... وأول الحاجة ما تنزل الجمعة، أبس ألاقها عندي  
في البيت.

وقالت خديجة :

- أنا الشهر اللي فات كنت حاجيب لهم البوليس..

وقالت إنصاف :

- أوعى.. ده اللي بيحبيب البوليس.. بيفضل بعد كده جعان  
طول عمره.. الموظفين بتوع الجمعة بيطلعوا دينه.. أوعى  
تروحي للبوليس.

وقالت سوسن :

- أنا يا أختي عارفة الحاجات دي كلها بتروح فين.. دي  
الحاجة يدوبك تنزل الجمعة أول الشهر، تبصى ماتلقياهاش  
بعد ساعتين.

وقالت دودي ضاحكة :

- يمكن بيودوها غزة بدل البرفانات وعلب البلوبيف اللي  
بتيجي من هناك.

وقالت إنصاف :

- يا أختي الناس هي اللي فجعانة.. والفلوس بقت كثير في  
أيدين اللي يسوي واللي ما يسواش.. وكل واحد همه على  
بطنه.

ومد محمد برعى عنقه من ركن الرجال، صائحا :

- مش نتعشى بأه يا دودي !

وقالت دودي :

- هي الوصلة خلصت.

والتفت محمد برعى إلى الراديو، ثم عاد إليها قائلا :

- آه.. خلصت من زمان.

■ الله .. الله .. يا ست ■

- وقالت دودي :  
- طيب اتفضلوا.  
وقام الجميع يتدافعون إلى حجرة الطعام.. وقال الدكتور  
رفعت للأستاذ عبدالعزيز :  
- تفتكر الست حاتغنى إيه الوصلة الجاية ؟  
وقال عبدالعزيز :  
- أمل حياتي طبعاً.  
وقال شكرى :  
- يا سلام.. عظيمة الست دى.

■ ٢١ ■ غلبة من الصفيح ■



## المدرسة الحديثة

أنا رجل حرفتى الكلام .  
لست محاميا .

لا .. إن المحامى يتحرك لسانه فى أفق ضيق  
محدود ، ومهما كان عبقرىا فإن عبقريته سجينه  
وراء قضبان من نصوص القوانين .. أما أنا   
فلسانى مطلق ، وعبقريتى مطلقة .. إنى أضع العالم كله على  
طرف لسانى ، وعبقريتى تجوب السماء والأرض بلا حدود ..  
وبلا قوانين .. بلا أى شىء .ولست خطيبا .

لا .. إن الخطيب يخاطب عواطف الجماهير .. أما أنا  
فحرفتى مخاطبة عقول الناس .. ليس كل الناس .. إنى أكره  
مخاطبة كل الناس .. ولكنى أخاطب مجموعة الأفراد الذين  
يملكون مصائر الناس .. الأفراد العباقرة الممتازين ، الذين  
تتطلب مخاطبتهم عبقرية خاصة ، عبقرية إنسان موهوب ..  
ويساوى إقناع الواحد منهم ، إقناع شعب بأكمله . والانتصار  
على واحد منهم - الانتصار بالمنطق - يساوى الانتصار على  
أمة .. يساوى فتح بلد واحتلاله .. أما الخطيب فهو ليس أكثر

## ■ المدرسة الحديثة ■

من راعى ماشية .. كل قدرته - مهما تفوق - هو أن يتجه بالماشية إلى حيث يريد .. ثم إن الخطيب يحتاج إلى صوت عال .. وأنا أكره الصوت العالى .. حديثى كله همس .. وصدقونى أن الكلمة الخفيفة الصوت أقوى ألف مرة من الكلمة العالية .. أقوى من كل صراخ العالم ، لو قالها لسان موهوب مثل لسانى.

أنا - ببساطة - دبلوماسى .

لست وزيرا ولا سفيرا .. لا يمكن أن أضحي بمواهبى لأحمل هذه الأعباء الإدارية ، وأعباء البروتوكول وأعباء التحركات والإجراءات الرسمية التى حملها الوزير أو السفير .. وبرغم ذلك فإن لى مركزا فى حكومتى لا يقل خطورة عن مركز الوزير أو السفير .. مركز خاص ممتاز ، برغم أنى لا أتردد كثيرا على الحفلات الرسمية .. ولا يشاهدنى أحد فى الاجتماعات العامة ، ولا تتحدث عنى الصحف إلا نادرا .. ولكنى دائما فى مقابلات .. مقابلات هادئة حول فنجان شاي أو فنجان قهوة أو كأس من النبيذ .. مقابلات تنتهى دائما بحدث كبير .. حدث سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى .. ولا يهم بعد ذلك أن صورتى لا تبدو فى هذا الحدث .. وأن الفضل فيه لا ينسب إلى .. لا يهم ..

وفى كل حكومات العالم رجل مثلى .. رجال لهم أهميتهم القصوى .. ولكنهم لا يظهرون على المسرح ، إنهم دائما بين الكواليس البعيدة ، الهادئة .. الخافتة الضوء .. فى لقاءات مع رجال الدول الأخرى .. ويتكلمون .  
والكلام ليس مجرد حرفة .

إنه فن .

فن اختيار الكلمة .

وفن النطق بالكلمة .

إن اختيار الكلمة ، بمثابة اختيار اللون عند ما يهم الرسام برسم لوحة .. الكلمة هي اللون الذى يرسم آراءك ، ويرسم أهدافك .. والنطق بها بمثابة وضع اللون على اللوحة .. هل تضعه فى خط عريض .. أو تضعه فى خط رفيع .. وهل تضعه فاقعا أو تضعه خافتا .. وهل تضعه فى جرة فرشاة واحدة متصلة .. أو تضعه فى نقط مبعثرة .. و .. وأنت تختار الكلمة بعقلك .. أما لسانك فهو الفرشاة التى ترسم بها كلامك .  
إنه فن .

فن كبير .

وهو فن يتطلب إعدادا خاصا لا يستطيعه أى واحد من هواة الكلام .. إنه يتطلب كنزا من المعلومات .. ليس فقط معلومات عن الموضوع الذى تتكلم فيه .. بل معلومات عن كل موضوع ، حتى نكون دائما على استعداد لنتكلم فى أى موضوع .. وأنا - بكل تواضع - أحمل فى رأسى معلومات تكفى لتوزع على ألف رجل كل منهم متخصص فى موضوع ، ويحمل فيه شهادة دكتوراه .. إن رأسى أنسكلوبديا قائمة بذاتها .. لا تقل اتساعا عن دائرة المعارف البريطانية .

والكلام فن يتطلب أيضا إجابة أكبر عدد من اللغات ، فإنك عندما تتحدث بنفس لغة محدثك تستطيع أن تكسبه بسهولة أكثر .. ثم إن استعانتك بمترجم تفقدك ثلاثة أرباع تأثيرك .. إن المترجم صديق تشك دائما فى خيانتك لك مع زوجتك .. وأنا أكره المترجمين ، ولا أثق فيهم ولست فى حاجة إليهم .. إنى أجيد سبع لغات .. أجيدها قراءة وكتابة وكلاما .. فما حاجتى إلى مترجم .

وفن الكلام يحتاج أيضا إلى قدرة على التمثيل .. لا يكفى

## ■ المدرسة الحديثة ■

أن تتكلم بلسانك .. بل بعينيك .. ويديك .. وأنفك .. وليس معنى هذا أن تقوم بحركات تمثيلية بحيث تبدو كممثل .. لا .. ولكن يجب أن يبدو الصدق في عينيك عندما تريد أن تبدو صادقا حتى لو كان كل كلامك كذبا .. ويجب أن يبدو التساهل على وجهك حتى لو لم تكن متساهلا .. و.. و.. لا تنس أبدا أن الذى تحدث إليه ينظر إليك بعينيه ، وأن كلامك يجب أن تكون له صورة على وجهك .

وأخيرا فإن فن الكلام يحتاج إلى مرونة .. مرونة فى كل شىء حتى فى مبادئك .. فليس المهم هو المبادئ .. ولكن المهم هو أن تصل إلى ما تريد .. وبعد هذا فإن الخطيئة يمكن أن تلبسها ثوب الفضيلة .. والنفاق يمكن أن تلبسه ثوب الصداقة .. و.. إن العن أنواع المتحدثين هم هؤلاء الذين يتحدثون باسم المبادئ ، إنهم غالبا لا يصلون إلى شىء .  
إنه فن شاق .

وثقوا أنى ألث عب كل لقاء أتكم فيه .. إن ما يتطلبه الكلام من القدرة على تركيز الذهن .. والسيطرة التامة على خلية من خلايا عقلك وعضلاتك ، عملية منهكة .. عنيفة .. إنى أحتاج إلى راحة ست ساعات على الأقل عقب كل ساعة كلام .. وبرغم ذلك فإن تعبى لا يهم مادمت أستطيع أن أرسم بلسانى هذه اللوحات الرائعة .. اللوحات التى أقنعت وآمن بها كل من تحدثت إليهم ، وانتهت بعقد كثير من المعاهدات بين حكومتى والحكومات الأجنبية ، وكثير من الاتفاقات التجارية والمالية ، بل حلت كثيرا من الأزمات السياسية .

ولا تعتقدوا أنى كبير فى السن .. لا .. فبرغم موهبتى ونجاحى ، فأنا اليوم لا أتجاوز الأربعين من عمري ، وكنت فى الثامنة والثلاثين من عمري عندما التقيت بكوثر لأول مرة .

التقيت بها فى حفل صغير ضم بعض الرجال الدبلوماسيين - أمثالى - وزوجاتهم .. ووقعت عليها عيناي وهى ترقص « التويست » .. آسف لعلها كانت ترقص « الباسانوفيا » .. وجدت نفسى أتتبعها باهتمام كبير حتى إنى - ربما لأول مرة - نسيت أن وزير خارجية بولونيا يجلس بجانبى وأنها فرصة مناسبة لأرسم له بلسانى لوحة من لوحاتى .

إن كوثر رائعة .. إن جسدها ينساب وهى ترقص كأنه قطعة موسيقية قائمة بذاتها .. وكل قطعة من جسدها ترقص فى رقة وبساطة وحلاوة حتى أصابع يديها ترقص .. ليس فيها قطعة واحدة ليست متأثرة باللحن ومنساقاة إليه .. واستنتجت أن كوثر لا بد أن تكون كريمة أحد الزملاء المدعويين .. ف عمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية والعشرين .. والأسلوب الذى ترقص به لا يمكن أن يكون أسلوب سيدة متزوجة .. ونظرات عينيها فيها هذه اللمعة وهذا النشاط الذى لا تجده فى الزوجات ، وشعرها الفاتح الساقط على عينيها لا يمكن أن يكون شعر زوجة .. إنى خبير ، وأستطيع أن أفرق بين « الزوجة » و « الكريمة » فى لمحة واحدة .

وأخذت أسائل نفسى : ترى كريمة من من الزملاء ؟

وقبل أن تدلنى فراستى على أبيها انتهت الرقصة .. وجاءت كوثر وجلست بجانبى ولا أدرى هل جاءت بجانبى بمجرد الصدفة ، أو لأن المقعد الذى اختارته كان أقرب مقعد إليها ، أو أنها تعمدت أن تختارنى لتجلس بجانبى .. لا يهم .. لقد التقت إليها وعلى فمى هذه الابتسامة التى تعودت أن أفتح بها قلب محدثى وأجذب بها اهتمامه .. إنى أثق كثيرا فى هذه الابتسامة .. إنها فى قوة الافتتاحية الموسيقية التى تعزف قبل رفع الستار عن الأوبرا .. ولكن يبدو أن كوثر كانت مشغولة

## ■ المدرسة الحديثة ■

عن ابتسامتى .. فقد جلست بجانبى وهى تدق على الأرض  
بقدمها الصغيرة الأنيقة على نغمات الموسيقى الراقصة ..  
وجسدها يتميل فى هزات رشيقة .. وتطرق بأصابعها بين  
الحين والحين .. وهى تغنى فى صوت خفيض هامس :  
- تويست .. تويست .

لا يهم .. إنى واثق أنى أستطيع أن أرسم لها بلسانى لوحة  
شائقة تبهرها وتجذب انتباهها .. وقد كنت دائما قادرا على أن  
أبهر النساء .. بل إنى كنت أتعهد أن اجتذب اهتمام السيدات  
كوسيلة من وسائل إقناع أزواجهن ، وكان مبدئى : « إذا  
كسبت الزوجة فقد كسبت الزوج » ، وقد كسبت جميع زوجات  
الرجال الكبار الذين كلفتنى حكومتى بالتحدث إليهم ..  
وقلت لكوترا بادئا الحديث معها ، وقد وضعت فى عيني  
نظرة فيها بعض البريق ، وبعض الحنان ، وبعض الجدية ،  
وجعلت صوتى مليئا ولكن لا يخلو من المرح :

- إنتى بترقصى مدهش يا آنسة .. تعرفى أن الرقصات  
الحديثة دى زى التويست والباسانوف ، دى فى الواقع مش  
حديثة .. دى مأخوذة من الفولكلور الإنسانى .. أقدم فولكلور  
فى العالم .. يعنى أيام ما كان الإنسان لسه عايش فى الغابة ..  
كان يرقص كده . وعلشان كده أول ما ظهرت الرقصات دى  
كانت قريبة من قلب الإنسان و ..  
وقاطعتنى كوترا قائلة بسرعة :

- واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها ..  
وانطلقت تضحك ، ضحكات رقيقة ناعمة لها صوت كصوت  
الأجراس المعلقة فى رقاب البقر وهى ترعى فى جبال سويسرا .  
وارتبكت أنا ..  
الواقع كانت مفاجأة لى .. ولكنى تماكنت نفسى بسرعة ،  
وضحكت معها .

### ■ المدرسة الحديثة ■

ثم كفت كوثر عن الضحك ، وعادت تتمايل وتدق بقدميها على أنغام الموسيقى الراقصة .. وعدت أنا إلى رسم لوحتي بلساني ، وقلت :

الواقع مش بس الرقص هو اللي أصبح يستمد خطواته من الفولكلور القديم .. الحلى مثلا .. يعنى الأساور اللي بنشوفها النهارده فى إيدين الستات و .. وعادت كوثر تقاطعنى قائلة :

- مرة واحدة حلق والثانى غويشة .. ها .. ها ..

وسخسخت على نفسها من الضحك ..

وارتبكت مرة ثانية ، ولكنى بسرعة ضحكت معها .. سخسخت أنا الآخر .. ثم عدت أقول بعد أن أفقنا من السخسخة:

- أنا مرة كنت فى إنجلترا وزرت قصر اللورد .

وقاطعتنى كوثر

- واحد نوبة راح قصر الدوبارة اتكعبل .. ها .. ها ..

واستطردت بسرعة :

- واحد نوبة ربي قراخ فى قفص صدره ، ها.. ها.. ها..

و ..

- واحد راح سينما رياتو نزلت .. ها.. ها..

و ..

- واحد قالوا له الصالون الأخضر فاتح ، راح لقاها غامق..

ها.. ها.. ها..

ولم تسكت إلا عند ما تقدم لها أحد الضيوف وطلبها للرقص .

وتركتنى مذهولا ..

لا يمكن أن تكون كوثر سخيفة وتافهة إلى هذا الحد .

## ■ المدرسة الحديثة ■

لا .. ليست سخيقة ولا تافهة .. افهموني ، كل ما هناك أن  
كوثر تؤمن بمدرسة فنية غير المدرسة التي أوّمن بها .. إنها من  
أنصار المدرسة التجريدية .. والتجريد في الرسم معناه أن  
تجرد اللوحة من الموضوع ، وتقتصر فيها على الألوان  
والخطوط . وتأثير الألوان والخطوط يغنى عن الموضوع .. أى  
أن تضع اللون الأسود ، بجانب الأبيض ، بجانب الأخضر ،  
بجانب الأسود .. وهذا يكفي .. يكفي لتكوين لوحة رائعة ..  
لوحة تجريدية .. وكذلك فى فن الكلام ، إنك تستطيع أن تجرد  
كلامك من الموضوع ، ثم تنتقى مجموعة من الألفاظ تضعها  
بجانب بعضها البعض بحيث تترك تأثيرا على السامع .. أى  
تأثير .. تأثير بلا موضوع .. وهذه هي المدرسة الحديثة ..  
والمدرسة الحديثة فى الرسم لها أنصار كثيرون ، وبعض  
اللوحات التجريدية تباع بالآلاف الجنيهات ، وكذلك المدرسة  
الحديثة فى الكلام ، لها أنصار كثيرون ، ولها تأثير كبير .

وبدأت أراجع كلام كوثر :

- واحد حلق والثانى غويشة .. ها .. ها .. ها ..  
ضحكت فعلا .. ضحكات من كل قلبى .

- واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها .. ها ..

إنى أضحك .. أضحك كما لم أضحك قط فى عمري .. إن  
المدرسة التجريدية لها تأثير كبير .. تأثير مباشر .

وكوثر ليست تافهة ولا سخيقة ، إنها من أكبر أنصار  
المدرسة التجريدية .

ولا أطيل عليكم .

لقد تزوجت كوثر .

ومضى عام ونحن نكاد نطير من السعادة .. إننا فى جنة  
صنعناها من حبنا ومن توافق أمرجتنا وشخصياتنا . وإيماني



## ■ المدرسة الحديثة ■

بالمدرسة التجريدية يشدد ، وقد جمعت خلال هذا العام من لوحات الكلام التجريدى ، عشرات .. مئات .. ربما أكثر مما جمعت كوثر طول حياتها .

ثم لا أدري ماذا حدث .

ماذا حدث حتى تطردنى حكومتى من عملى هذه الطردة الشنيعة ، دون ذنب جنيته ، وبعد أن خدمت عشر سنوات ساهمت خلالها فى عقد كثير من المعاهدات والاتفاقات وحل كثير من الأزمات .

كل ما أذكره أن الوزير استدعانى مرة إلى مكتبه ، وبدأ يحدثنى عن الأوضاع السياسية فى الكونغو وقال فى ضمن كلامه:

– إن مبادئ المرحوم لومومبا لا تزال .. وقاطعته قائلاً :

– واحد لومومبا والثانى مالوش .. ها .. ها .. ها ..  
إنها لوحة تجريدية رائعة ..

ولكن الوزير لم يضحك .. لقد نظر إلى نظرة هائلة ، وزم شفتيه فى قرف .. لا يهم .. إن سيادته ليس من أنصار المدرسة التجريدية فى الكلام .. وأنا برغم إيمانى بالمدرسة التجريدية ، لست متعصبا لها ، إنى أقبل جميع المدارس الأخرى واحترمها .

ولكن السيد الوزير ظل ينظر إلى هذه النظرة الهائلة ، وشفتهاه مزمومتان فى قرف .. ثم أنهى المقابلة فجأة ، وصرفنى من مكتبه .

وفى اليوم التالى تلقيت خطاب الاستغناء عن خدماتى .  
لماذا ؟

لست أدري .

## غاية من السيقان ..

لم أكن أبدا هذا الإنسان.  
كنت دائما إنسانا مثاليا.. ربما منذ ولدت وأنا  
مثالى.. ولم أكن أدري أنني مثالى.. لم أر صورة  
□ أخرى من صور الحياة حتى أقارن بينها وبين  
صورة حياتي، ثم اكتشفت من المقارنة أنني مثالى.. أبدا.. كنت  
أعتقد أن الحياة كلها هي هذه الحياة التي أعيشها، الحياة  
الهادئة، الجادة.. طريقها نور، وسماؤها عفة، وأرضها علم  
وثقافة وعمل.

وبيتنا الكبير هادىء دائما، نظيف دائما، لم ترتفع فيه يوما  
كلمة نابية، ولا دوى فيه صراخ، ولا مر بين جدرانها حادث  
يمكن أن يضع معانى الفضيلة والعفة موضع مناقشة.. وأبى  
يملا البيت بهيبته، وطيبة قلبه، وإحساسه الكبير بالمسئولية..  
وأمى تملؤه بجمالها، وحنانها، وبأرقى صورة من صور  
الأمومة الطاهرة.. وأنا أذهب إلى المدرسة وأعود لأستذكر  
دروسى ثم أشغل نفسى بهوايتى للرسم، أو أذهب إلى النادي

القريب لألعب التنس.. وهى هواية ثانية من هواياتى.. أو أنزل إلى ورشة النجارة الصغيرة التى أقامها لى أبى فى البديروم، لأصنع أشياء من الخشب.. فقد كانت النجارة هوايتى الثالثة.. أو أقرأ، فالقراءة أيضا إحدى هواياتى.. وإخوتى لكل منهم هوايته التى يشجعهم عليها أبى.. وكلنا نعيش فى هذا العالم المثالى النظيف.. عالم كله حب، وكله طهر، وعفة، وفضيلة، ومتع راقية عميقة.. متعة العقل.. متعة الروح.. متعة الرضا عن النفس.. متعة المثالية.

إلى أن تخرجت فى كلية الحقوق.

وعملت محاميا فى مكتب أبى.

ومكتبنا - أقصد مكتب أبى - كبيتنا.. مكتب نظيف، عف، مثالى.. لم يدخله أبدا مجرم، ولا تولى الدفاع أبدا عن جان.. وليس بين دوسيهاته قضية مخدرات أو زنا، أو أى قضية أخرى من هذه القضايا التى تمس الفضيلة والشرف.. كانت كل قضايانا قضايا أنيقة مهذبة، تقوم على خلاف فى تفسير القانون، أو على أخطاء فى الإجراءات، أكثر مما تقوم على نية الإجرام والتعدى.. قضايا الشركات والضرائب، والاستشارات القانونية للهيئات المحلية والأجنبية.. و.. و.. وكان أبى - رحمه الله - يقول لى دائما إن المحامى يجب أن يكون أولا قاضيا، يحكم فى القضية التى تعرض أمامه، قبل أن يعرضها على المحكمة.. ليس من مهمة المحامى أبدا أن يستغل علمه بالقانون ليتحايل على العدالة، ولا أن يبىء مجرما.. إن مهمته هى نفس مهمة القاضى.. وكما يعد القاضى حيثيات حكمه.. فكذلك يعد المحامى دفاعه عن حكمه.. ولذلك سميت المحاماة : « القضاء الواقف » ، لأن القضاء الآخر « قضاء جالس » ..

وعلى هذا الأساس كان أبى يرفض كثيرا من القضايا التي يأتى بها أصحابها إلى مكتبنا.. يرفضها مهما بلغ إغراء الأتعاب التي تعرض عليه.

وسلكت سلوك أبى فى المحاماة، السلوك العف النزيه الجاد.. وتفوقت.. تفوقت لأنى أحببت عملى.. بل إن المحاماة لم تعد مجرد عمل.. بل أصبحت هواية أضمتها إلى مجموعة هواياتى الكثيرة.. وعندما توفى والدى إلى رحمة الله، لم أخسر موكلا واحدا من موكلية.. كلهم وثقوا بى ثقتهم بأبى.. وفى نفس العام الذى تخرجت فيه فى كلية الحقوق، تزوجت نيفين.

تزوجت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمري.

وكانت نيفين أجمل فتاة التقت بها عيناى فى حياتى.. وبرغم ذلك لم يكن جمالها هو كل شيء.. كان فيها هذا العبير الهادئ العميق الذى يفوح من بنات الناس الأصلاء.. عبير الحنان.. الطهر.. التعفف.. الرقة.. الطيبة.. الفهم.. عبير المثالية.. كانت نيفين مثالية مثلى.. ولم نكن فى حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لنشعر بارتباطنا إلى الأبد.. رباط الحب الأكيد، الحلو، الرائق كقطرات الندى.

وأصبحت زوجا مثاليا.

أذهب إلى المحاكم فى الصباح، وأعود فى الساعة الواحدة لأتناول طعام الغداء، وأستريح قليلا ثم أذهب إلى النادى لألعب التنس.. وفى المساء أذهب إلى المكتب لأبقى فيه حتى التاسعة وأعود إلى بيتى لأجلس مع أولادى، أو أمارس إحدى هواياتى، إن لم تكن - نيفين وأنا - مدعوين على العشاء عند أحد من أصدقائنا الكثيرين.

خمسة عشر عاما مرت وأنا هذا الزوج المثالى.. عشقتها بين  
عيني نيفين الهادئتين، وابتسامتها الحلوة، وحنانها الفياض،  
وروحها النقية. وأولادنا حولنا ملائكة، أى والله.. ملائكة.  
إلى أن دخلت حياتى سميحة.

سميحة هانم.. حرم المهندس المعروف مصطفى الشريف.  
جاءت إلى مكتبي تستشيرنى فى مشكلة خاصة بضريبة  
التركات المستحقة عليها بعد وفاة والدها.. ولم أكن أعرفها..  
ولكنى كنت أسمع عن زوجها المهندس الكبير مصطفى  
الشريف.. وكنت أحد المعجبين بفنه المعماري الرائع.. ومن أجل  
زوجها، واسمه الكبير، استقبلتها باهتمام واحترام شديد.

ولا أدري كيف وجدت نفسى بعد دقائق من دخولها إلى  
مكتبي، أستمع إليها وهى تحدثنى فى مواضيع بعيدة كل البعد  
عن ضريبة التركات.. كانت تحدثنى عن حياتها العائلية، وعن  
الناس الذين تعرفهم وعن الأفلام، وعن الكتب.. وكان حديثها  
من هذا النوع الذكى الذى يشدك إليه.. ولا تمله.. الحديث الذى  
يوقظ انتباهك كلما فتر.. ويثير فيك كل ما تملكه من عواطف..  
إثارة عابرة.. لقد جعلتني أضحك.. وجعلتني أحزن.. وارتفعت  
بى وانخفضت بى.. إنى لم أقابل أبدا مثل هذه السيدة..  
واكتشفنا أنه مرت بنا ساعة.. ربما أكثر.. ونحن لم ننته بعد  
من بحث موضوع ضريبة التركات.

وانصرفت على أن تعود.

وليلتها قلت لزوجتى نيفين :

— جاءت إلى المكتب الليلية سميحة هانم حرم المهندس  
مصطفى الشريف.. أتعرفينها ؟  
قالت فى صوتها الهادىء ولسانها العف :

- سمعت عنها .

قلت :

- إنها سيدة مليئة بالحيوية.

وقالت نيفين :

- كلها نشاط.. إنها فى كل مكان.

والواقع أن سميحة لم تترك فى أثرا بعد لقائنا الأول إلا انبهارى بشخصيتها النشيطة المتدفقة.. انبهار كاد يتلاشى مع الصباح.

ثم عادت سميحة.

وعادت مرة أخرى.

إنها قطعاً ليست أجمل من نيفين.. ولكن فيها شيئاً.. ليس فى نيفين هذا التدفق.. هذه القدرة الطاغية على جذب كل خيوط انتباهك.. وتحريك مشاعرك.. إنه شىء ليس فى نيفين. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقارن فيها بين نيفين وأى امرأة أخرى.. بل كانت المرة الأولى التى أعتقد فيها أن هناك أى امرأة يمكن أن تقارن بنيفين.. أكثر.. كانت المرة الأولى التى أرى فيها بعينين يقظتين متعمدتين امرأة أخرى غير نيفين. وجاءت سميحة ذات مساء.

وجلست تستولى على كل اهتمامى.. كأنها تذيمنى تنويماً مغناطيسياً.. ثم قالت :

- ليس معى سيارتى.. هل توصلنى بسيارتك.

ونظرت فى ساعتى.. التاسعة، موعد انتهاء العمل.

- لا مانع.

وركبت بجانبى، وحديثها لا يكف عنى.. تجعلنى أضحك وتجعلنى أفكر معها.. أفكر فى أشياء تافهة لم يكن يخطر ببالى

أنى سأفكر فيها يوماً.. الأزياء، نجوم السينما، أى شىء..  
ووقفت بها أمام بيتها.. وقالت فى بساطة :  
- هل لك فى كأس ؟

وترددت.. فعادت تقول :

- قد نستطيع فى جلسة عائلية أن نحصر تفكيرنا فى  
موضوعنا.. أقصد قضية الضرائب.

وعدت أنظر فى ساعتى.

التاسعة والنصف.

أستطيع أن أتأخر قليلاً عن البيت.

ودخلت معها.. وكنت أعتقد أنى سأقابل زوجها المهندس  
مصطفى الشريف.. ولكنه لم يكن فى البيت.. إنه فى  
الاسكندرية.

وعدنا إلى حديثنا.

وشىء أكثر صراحة ينطلق من عينيها، وينطلق فى كلماتها..  
ولم أكن ساذجا إلى هذا الحد.. إنى أعرف بالضبط ماذا تريد..  
ويجب أن أقاوم.. يجب.. إنى رجل مثالى.. وزوج مثالى.. وهى  
زوجة.. وزوجها معروف.. إنى أحترم زوجها.. ولكنى كنت قد  
نسيت الزوج.. نسيت ريماء من أول لقاء.. إن شخصيتها الطاغية  
لا تترك مجالاً لذكر زوجها.. ومقاومتى تضعف.. وتضعف..  
إلى أن وجدت عمرى كله ينهار.. ثمانية وثلاثون عاماً من  
المثالية تتساقط هشة كالأوراق المحترقة.

وعدت إلى بيتى.

ولأول مرة لا أستطيع أن أواجه نيفين بعينى.. ولا أولادى..  
عيناى منكستان.. رأسى منكس.. قلبى منكس.. ضميرى  
منكس.. فى ضميرى حسرة صارخة كأنى خسرت كل رأس

مالى على مائدة القمار فى لحظة واحدة.. ولم يكن لى رأس  
مال أعز على من مثاليتى.  
ولم أنم..

ونسيت فى الصباح أن أقبل أولادى.. وأقبل نيفين.. وجرت  
نيفين ورائى، ولحقت بى عند الباب وهى تنظر إلى فى دهشة  
بريئة.. ومدت إلى خدها، فقبلتها قبلة سريعة كأنى كنت أخشى  
على خدها الطاهر أن تلوثة شفتاى.  
وكان يحب أن أقاوم.  
أقاوم سميحة.

وقد استطعت أن أقاومها فى التليفون، ولكنى لم أستطع أن  
أستمر فى مقاومتها عندما جاءت إلى مكتبى بنفسها لتأخذنى  
إليها.. إن سحرا طاغيا يرقد فى عينيها السوداوين الكبيرتين..  
سحر الخطيئة.. وانهرت.. أنا الذى كنت أفخر دائما بقوة  
إرادتى.. انهرت.. ربما لأن كل قوى فوقه من هو أقوى منه..  
وهاتان العينان السوداوان الكبيرتان أقوى منى.  
والانهيار يأكل أعصابى.

إنى أتغير.. إنى لم أعد هذا الإنسان الهادىء الطاهر المثالى..  
إنى إنسان عصبى.. تافه.. ضائع.. أهملت جميع هواياتى بما  
فيها هواية الحمامة.. أسرح كثيرا.. وكما وخزنى ضميرى  
صرخت فى وجه نيفين.. كأنى أحاول أن أسكت صوت  
الضمير تحت صوت الصراخ.. أو كأن نيفين هى ضميرى الذى  
أحاول أن أسكته. وهى تنظر إلى فى رهبة تشوبها الشفقة،  
وفى عينيها تساؤل حائر.. ماذا بى.. لعل مريض.  
وسميحة تتحدث كثيرا عن نيفين.  
إنها تريد أن تتعرف إليها.



■ غابة من السيقان .. ■

- لماذا ؟

- لأزداد قربا منك.. يا حبيبي..

ولم أرد..

إنى لا أريد أن أجز خطيئتي إلى بيتي..

ثم فوجئت يوما بنيفين تقول لى فى صوتها الهادىء،  
ولسانها العف :

- أتدرى.. تعرفت اليوم إلى سميحة هانم حرم المهندس  
مصطفى الشريف.. إنها سيدة رائعة.. دعوتها غدا إلى الشاى  
مع بعض الصديقات.. دعوة للسيدات فقط.  
وذعرت..

لقد وصلت الخطيئة إلى بيتي..

ولكن..

هل الخطيئة هى سميحة ؟

وأنا.. أأست النصف الآخر من الخطيئة.. وأنا أقيم فى هذا  
البيت.. فلماذا لا تأتى إليه سميحة أيضا.  
وسكت..

وجاءت سميحة..

وزوجتى مبهورة بها.. إنها تتحدث عنها كأنها تسير فى  
مظاهرة تهتف باسمها.. تحيا سميحة.. تعيش سميحة.. إلى  
الأمام يا سميحة.. وشعرت بنوع من الزهو الخبيث المريض،  
وزوجتى تتحدث عن إعجابها بسميحة.. شعرت كأن زوجتى  
تهنئنى على ذوقى فى اختيار النساء.. كأنها تهنئنى على هذا  
الانتصار يوم نلت سميحة..

وسميحة تتحدث كل يوم فى التليفون مع زوجتى.. فى  
البيت..

■ غابة من السيقان .. ■

وتتحدث معى كل يوم فى التليفون.. فى المكتب.  
ثم مفاجأة أخرى.  
إن سميحة تدعونا - زوجتى وأنا - إلى العشاء عندها.  
وقد وجهت سميحة الدعوة عن طريق زوجتى دون أن  
تخبرنى بها.. كأنها بذكائها النسائى كانت تعلم أن زوجتى  
أقدر على إقناعى بقبول الدعوة.  
لا.. لن أقبلها.. إنى مشغول.. مشغول.  
وزوجتى تلح.  
ثم فوجئت بالمهندس مصطفى الشريف يتحدث إلى فى  
التليفون.. وارتعشت يدي التى تحمل السماعة عندما نطق  
اسمه.. وسقط قلبى.. ولكنه يشكرنى.. يشكرنى على اهتمامى  
بقضية زوجته ويكرر دعوة سميحة التى وجهتها إلى زوجتى..  
كل الأصول روعيت.  
هى دعت زوجتى.  
وزوجها دعانى.  
فلا أستطيع الرفض.  
وزهبنا.. وكل شىء منى ليس فى مكانه.. ابتسامتى ليست  
فى مكانها المعتاد فوق شفتى.. ونظرتى ليست فى مكانها  
المعتاد من عينى، وقلبى ليس فى مكانه المعتاد بين ضلوعى..  
وأشياء فى داخلى ترتعش.. كأنى آلة انفكت صواميلها..  
وخفت.. خفت أن يلمح الناس عى وجهى بصمات خطيئتى..  
خفت أن يكون فى صدرى ميكروفون يذيع على الناس كل  
ما فيه من أسرار.  
ولكن لا شىء حدث.  
سميحة تبدو طبيعية.. مرحة، رائعة.

ولا بد أنى أنا الآخر أبدو طبيعيا.  
إن الخطيئة تتحرك ببساطة فى بيوت الناس دون أن يلمحها  
أحد.. الخطيئة ليس لها وجه.. ليس لها رائحة.. ليس لها  
صوت.

وراعتنى هذه البساطة التى يمكن أن تعيش بها الخطيئة  
فى المجتمعات، ووجدت نفسى أتساءل.. إذا كانت هذه هى حال  
الخطيئة فى المجتمع.. لماذا لا يكون فى هذا الحفل خطايا أخرى  
غير خطيئتى أنا وسميحة.. لماذا أفترض أنى بين كل هؤلاء  
المدعويين الزوج الخائن الوحيد.. ولماذا أفترض أن سميحة هى  
الزوجة الخائنة الوحيدة؟

وبدأت دون أن أشعر أبحث عن خطايا الناس فى  
تصرفاتهم، وفى كلماتهم، وفى نظراتهم.. إن فلانا ينظر إلى  
فلانة طويلا.. وفلانة تركت يدها مدة أطول من المعتاد فى يد  
فلان وهى تصافحه.. و..

وأصبحت هذه هى هوايتى الجديدة.  
هوايتى الوحيدة.

وقد أصبحنا - نيفين وأنا - نخرج كل مساء مع سميحة  
وزوجها.. وكنت أضحك فى صدرى ونحن نتحرك معا.. إن  
عددنا ليس أربعة.. عددنا ستة.. زوج وزوجته، وزوج آخر  
وزوجته، ثم عشيق وعشيقتة.. والمجموع ستة لا أربعة.. ها..  
ها.. ها.. فلسفة، عبقرية.. وفى كل مكان كنا نذهب إليه، سواء  
ذهبنا إلى حفلة أو إلى سينما أو إلى ملهى.. أبدأ فى ممارسة  
هوايتى.. اكتشاف خطايا الناس، واستنتاجها من تصرفاتهم  
وهمساتهم.. وكنت أجد لذة فى ممارسة هذه الهواية.. لذة  
فائقة.. أسابيع طويلة مرت وأنا أمارسها.. ولذتى بها تكبر.

ثم..

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. أسف نحن الستة.. إلى حفل ساهر.. وسقطت عيناى على وجه نيفين.. زوجتى نيفين.. وإذا بى أتساءل : لما أعفيت نيفين من هوايتى.. لماذا لم أبحث فيها هى الأخرى عن الخطيئة.. لماذا.. لأنها مثالية ؟ ولكنى كنت أنا الآخر مثاليا، ولم أعف عن الخطيئة.. ربما هى الأخرى وقعت كما وقعت ؟

وبدأت أنظر إلى نيفين بعينين جديدتين.

وخيل إلى أنى أرى فى عينيها نفس اللمعة التى أراها فى عيني سميحة.. وأرى على شفثيها نفس الابتسامة الواثقة المتحدية.. وألمح فى حديثها نفس الذكاء ونفس الشخصية الجذابة.. و.. و.. وبدأت أختل.

إنى لا أرفع عيني عن نيفين.. وقد كنت أمارس هوايتى على الناس فى الحفلات والمجتمعات فقط.. فأصبحت أمارس هوايتى على نيفين طول النهار والليل.. فى البيت وخارج البيت.. إنى أتصنعت عليها وهى تتحدث فى التليفون.. وأفتح دواليبها فى غيبتها.. وأتظاهر بالنوم حتى تنام، ثم افتح عيني وأبقى يقظا طول الليل لعلها تقول شيئا فى أحلامها يدلنى على ما فى ضميرها.

ونيفين صابرة.

وأنا أختل.. وفى كل يوم أختل أكثر.

إلى أن كان هذا اليوم.

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. أسف.. نحن الستة.. إلى حفل عشاء يضم أكثر من عشرين مدعوا ومدعوة، التقوا جميعا

حول مائدة واحدة كبيرة.. كل زوجة بجانبها رجل ليس زوجها.. وكل رجل بجانبه سيدة ليست زوجته.. هذه هي التقاليد.. التقاليد الاجتماعية المعترف بها.. ليس من حقه أن تطالب بأن تجلس زوجتك بجانبك.. عيب أن تجلس الزوجة بجانب زوجها.. فضيحة كبرى.. إن زوجتك بجانب رجل آخر.. وكان زوجاتنا كلهن من بنات الجيشا، مفروض أن ترفه كل منهن عن الرجل الذي يوضع بجانبها تقول له كلاما حلوا.. وتبتسم له ابتسامة حلوة.. وتنظر إليه نظرة حلوة.. تقاليد الجيشا.

ووضعوني بجانب سميحة.. أو وضعوا سميحة بجانبى.. إنهم دائما يضعون أحدنا بجانب الآخر وكان هناك اعترافا ضمنيا من المجتمع بخطيئتنا.

ومدت سميحة ساقها ولفتها حول ساقى من تحت المائدة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى. إنها دائما تلف ساقها على ساقى من تحت المائدة، وتخبط ركبتيها بركبتي، كلما جلست بجانبى. واستسلمت ساقى لساقها.

نامت عليها.

ثم فجأة تذكرت نيفين.

من أدرانى؟!

واعتدلت فى جلستى.

إنها تجلس فى الناحية المقابلة من المائدة.

ولا يبدو على وجهها شىء.

ولكن سميحة أيضا لا يبدو على وجهها شىء.. ولو نظر

■ غابة من السيقان .. ■

المهندس مصطفى الشريف فى وجه زوجته فلن يرى ساقها ملتفة حول ساقى.

إن الخطيئة لا تبدو فوق المائدة، ولكنها تعيش تحت المائدة. وتعمدت أن أسقط السكين الذى أكل به على الأرض، وانحنيت لألتقطه، ونظرت تحت المائدة.. ولكنها نظرة سريعة غير مركزة لم ألمح من خلالها شيئاً.

وبعد فترة عدت وأسقطت الشوكة.. وحاولت أن أنظر تحت المائدة.. كانت نظرة أطول وأكثر جرأة من النظرة الأولى.. ولكنى لم أتمكن أيضاً من التأكد من حقيقة ما يدور تحت المائدة.

وحاولت أن أهدأ وأن أنسى الموضوع.. ولكن رغبة جامحة عنيفة تتمكننى لأرى ما يدور تحت المائدة.. ولعل سميحة لحظت اضطرابى فبدأت تتحدث إلى وتحاول أن تثير اهتمامى، وحاولت أنا الآخر أن أستمع إلى حديثها وأهتم به، ولكن الرغبة الجامحة العنيفة تلح على.. وتستبد بى.. تستبد بعقلى.. بأعصابى.. بدمائى.. إن بى رغبة جامحة فى أن أرى ما يدور تحت المائدة.

ولم أعد أستطيع أن أقاوم.

أسقطت نفسى من فوق مقعدى، وزحفت على يدي وركبتي ودخلت تحت المائدة.. ووجدت نفسى فى عالم غريب.. عالم خافت الضوء.. مثير.. ومن حولى سيقان كثيرة.. سيقان فى بنطلونات.. وسيقان حريمى.. سيقان رفيعة، وسيقان مليئة.. إنها غابة.. غابة من السيقان، ولو هبت الريح لاصطدمت السيقان بعضها ببعض كما تتصادم أفرع أشجار الغابة.. تتصادم هكذا.. هكذا.. وبدأت أمسك بالسيقان من حولى

والصقها بعضها ببعض.. وأنا أصرخ : الريح هبت.. الغابة..  
الغابة.. الغابة.



لقد كنت يومها أدري تماما ما أفعله.. كنت فى وعيى.. كنت  
أعى أنى اسقطت نفسى من فوق المقعد، وزحفت إلى تحت  
المائدة، وأمسكت بالسيقان أصدم كل ساق رجل بساق امرأة..  
وكنت أسمع صوتى وأنا أصرخ : الغابة.. الغابة.. لم أكن  
مجنونا . كل ما هنالك أنى لم أستطع أن أقاوم هذه الرغبة  
الجامحة العنيفة التى استبدت بى.

ولكنهم اعتبرونى مجنونا.

وجذبونى من تحت المائدة.

ونقلونى إلى مستشفى بهمان.

وكان آخر ما رأيته هو دموع زوجتى نيفين، قبل أن يسرى

المخدر الذى حقنوني به فى عروقى وأنام.

وقد قضيت فى مستشفى بهمان ستة شهور.

وبرغم ذلك.

صدقونى.

أنا لست مجنونا.

وأنا أبحث عن عمل.

## عبد الله .. وناظمة

يا حضرات القضاة.

أنا لا أطلب الرحمة.. أنا أطلب العدل.. وإذا كان هناك من يقول «الرحمة فوق العدل»، فإنى أقول «العدل فوق الرحمة».. إنى أتمسك بالعدل، وأرفض الرحمة.. ولا أريد أن أخاطب قلوبكم لأبحث فيها عن الرحمة، بل أكتفى بمخاطبة عقولكم باحثا فيها عن العدل.. ومهما بدا فى حالتى التى أعرضها عليكم من غرابة تصل إلى حد الشذوذ، فإنى واثق من أن عقولكم التى تمرست طويلا على اكتشاف خيط العدالة، قادرة على أن تنصبنى.. قادرة على أن تعطينى حقى، وتأخذ للمجتمع حقه على.

كل ما هنالك يا حضرات القضاة أنى لا أريدكم أن تحكموا على بالظروف التى أحاطت بى عند ما ارتكبت جريمتى.. بل أريدكم أن تبحثوا عما فعلته هذه الظروف فى نفسى.. فى داخلى.. إن نفس الإنسان عالم قائم بذاته.. فى داخل كل إنسان مدينة كبيرة. أكبر من مدينة القاهرة.. مدينة فيها شوارع



وحوارى وأزقة.. وفيها أتوبيسات وترموايات وسيارات  
تاكسى.. وفيها عمارات تنهدم، وعمارات تبنى.. وفيها زحام  
من الناس.. ناس كثيرون، يضحكون ويبيكون، ويتناقشون،  
ويصرخون.. ناس أشرار، وناس أخيار.. ناس ضعفاء وناس  
أقوياء.. والجريمة التى ارتكبتها وقعت داخل هذه المدينة..  
جريمتى لم تقع فى شارع «السد» بحى السيدة زينب، كما  
تقول أوراق التحقيق.. ولكنها وقعت فى شارع آخر له اسم  
آخر، وفى حى آخر، وفى مدينة أخرى.. إنها وقعت فى هذه  
المدينة التى تسمى مدينة النفس الإنسانية.. المدينة التى تعيش  
داخلى.. وأنتم لن تجدوا الحقيقة إلا فى هذه المدينة. الحقيقة  
التي ستهديكم إلى العدالة.

يا حضرات القضاة.

إنى أرفض فى إصرار هذا التحليل الذى تقدم به الأستاذ  
المحامى الذى انتدب للدفاع عنى.. إنه يحاول أن يبرر جريمتى  
بالجنون.. وبرغم أنى أقدر حسن نواياه، وأقدر أن محاولة  
إثبات جنون المتهم هى أسهل الطرق للدفاع عنه.. إلا أنى أرفض  
هذه المحاولة.. أرفض أن أكذب عليكم.. أنا لست مجنوناً  
يا حضرات القضاة.. أنا فى كامل قواى العقلية.. ولو أحلتمونى  
على الطبيب الشرعى، فيسكتشف بعد دقائق أنى عاقل.. عاقل  
جدا.. ولكن الأجدى لعدالتكم أن تنتدبوا خبيراً من خبراء علم  
النفس لينير أمامكم هذه الشوارع والحوارى والأزقة التى  
تتكون منها هذه المدينة الواسعة التى ترقد بكل ضجيجها داخل  
صدرى.. وعندما يضاء النور ستكتشفون أنى عندما ارتكبت  
جريمتى كنت فى حالة يسمونها فى علم النفس، حالة ازدواج  
الشخصية.. لم أكن ساعتها شخصاً واحداً.. بل كنت

شخصين.. كنت عبدالله محمد على جابر وكنت فى الوقت نفسه فاطمة السيد شفيق.

نعم يا حضرات القضاة.. كنت شخصين.. اثنين.. ولكن الجريمة كما ثبت فى التحقيق ارتكبتها شخص واحد.. فمن الذى ارتكبتها؟

هل ارتكبتها أنا عبدالله محمد على جابر.

أم ارتكبتها أنا فاطمة السيد شفيق؟

وتحديد الشخص الذى ارتكب الجريمة، أو على الأصح تحديد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة، يتوقف عليه حكمكم.. فإن ظروف كل من الشخصين مختلفة، والدافع لكل منهما على ارتكاب الجريمة يختلف.. والظروف والدوافع هى التى تحدد الحكم.. قد تحكمون بالإعدام، وقد تحكمون بالحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر، وقد تحكمون بالبراءة.. ولكن يجب أولاً أن تحددوا الشخص الذى ارتكب الجريمة.. أقصد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة.  
يا حضرات القضاة.

أرجوكم.. طولوا بالكم على.. ولا تنظروا إلى هكذا كائنات مجنون.. إن حديثى قائم على أسس علمية صحيحة.. وقد درست علم النفس.. قرأت فيه أكثر مما قرأ الديكاترة المتخصصون.. وقد دفعتنى إلى دراسة علم النفس هوايتى للأدب.. أنا أديب يا حضرات القضاة.. قصاص.. صحيح أنى مغمور، لم تنشر لى الصحف شيئاً، ولا صدر لى كتاب.. ولكن ليس معنى هذا أنى لست أرقى فى إنتاجى الأدبى، وأعمق، وأكثر تمكناً، من كثير من الأدياء والقصاصين المعروفين الذين تنتشر أسماؤهم فوق بقع سوداء كالبراطيش .. متى بدأت

هوايتى للأدب.. ربما منذ ولدت، فأنا لا أعى نفسى إلا وفى  
يدى قلم.. إن الموهبة تورث يا حضرات القضاة.. وقد كان  
جدى الشيخ على جابر أديباً موهوباً، وربما ورثت عنه الأدب،  
كما ورث أسكندر ديماس الابن موهبته عن أسكندر ديماس  
الأب.. وكنت أطمع دائماً أن يكون عندنا بين الأدباء العرب  
«جابر الجد» و «جابر الحفيد» أى أنا.. و..

حاضر يا سيادة الرئيس.. سأختصر.. ولكنى يجب أن  
أحدثكم عن هوايتى للأدب وكتابة القصة حتى تصلوا إلى  
الحقيقة.. الحقيقة التى دفعتنى إلى الوقوف أمامكم فى قفص  
الإتهام.. إن هوايتى هى التى تحدد شخصيتى.. أو هى - كما  
يقول الأستاذ العقاد فى كتب العبقريات - مفتاح شخصيتى ..  
وقد حالت ظروفى دون أن أتم تعليمى.. انقطعت عن المدرسة  
قبل أن أحصل على الشهادة الثانوية، وحصلت على وظيفة  
ساع فى شركة المقاولات.. وقد أتاح لى انقطاعى عن المدرسة  
فرصة أكبر للتفرغ لهوايتى.. قرأت.. قرأت كثيراً.. عشرات  
الكتب فى الأدب، فى علم النفس، وفى التصوف، وفى العلوم،  
وكتبت.. كتبت كثيراً.. عشرات القصص.. وعشرات البحوث  
الأدبية القيمة.. إن ما كتبه يكفى لإنشاء مكتبة قائمة بذاتها..  
مكتبة جابر.

وكانت لى دائماً قارئة وحيدة..

فاطمة.

جارتى فاطمة.

وكنت أختص فاطمة بقراءة قصصى.. لا أكاد أنتهى من  
قصة حتى أشير لها من الشباك، فتأتى إلى بيتنا، وتجلس  
بجوار أمى وأقرأ عليها القصة وأنا أرقب عينيها وهما تسرحان

وراء أبطالى وبطلاتى.. وأرى صدرها يتهدج كلما قرأت عليها  
مشهد غرام، وأرى وجهها يتقلص فى مواقف العذاب،  
والضحكة تكاد تنطلق من شفثيها فى مواقف المرح.. لقد كانت  
فاطمة معجبة بكل ما أكتبه، متأثرة به.. كانت مؤمنة بى،  
وبأدبى.. بعبريتى..

إلى أن أحبت فاطمة.

لم تحبنى أنا.

ولكنها أحبت المجنى عليه، إبراهيم الدسوقى مرعى.

كان إبراهيم موظفا فى مصنع النسيج الذى تعمل به  
فاطمة.. وقد أعجبت به فاطمة قبل أن يعجب بها.. وجاءت إلى  
وصارحتنى بإعجابها وعواطفها، وآمالها.. ثم طلبت منى أن  
أكتب لها خطابا ترسله إلى إبراهيم.. ولم أتردد.. كتبت لها  
الخطاب ووقعته باسمها.. فاطمة.. وكان الخطاب يا حضرات  
القضاة قطعة أدبية رائعة، بلغ من قوة تأثيره أن رد عليه  
إبراهيم فى اليوم التالى.. إن إبراهيم أيضا صاحب أسلوب.. إنه  
يستطيع أن يكتب هو الآخر.. ولكنه طبعاً لا يستطيع أن يرتقى  
إلى مستواى.. وقد فرحت فاطمة بخطاب إبراهيم، وطلبت منى  
أن أكتب له خطابا ثانيا.. وثالثا.. ورابعا.. خطابات أكتبها  
بلسان فاطمة، وبشخصيتها، وبعواطفها، وبعينها، وأوقعها  
باسمها.

. يا حضرات القضاة.

هل تعلمون حال الأديب عندما يكتب بلسان فتاة، أو يعبر  
عن شخصية فتاة.. إنه يتقمص هذه الشخصية.. إنه يصبح  
وهو يكتب هذه الفتاة.. ينقلب فى داخله إلى فتاة.. ويفكر كما  
تفكر.. ويحس كما تحس.. ويضحك كما تضحك.. ويبكى كما

تبكى.. وكلما استطاع أن يندمج فى شخصية الفتاة أكثر، تمكن من التعبير عنها أكثر.. إن الكتاب كالممثلين.. يمثلون.. يمثلون الشخصيات التى يرسمونها بأقلامهم والتى يعبرون عنها.. الممثل يمثل على المسرح.. ومسرح الأديب هو داخله.. إنه يقوم بالتمثيل داخل نفسه.

ومر عامان وأنا مندمج فى شخصية فاطمة.. أكتب كل يومين أو ثلاثة خطابا لإبراهيم.. أبثه عواطفى، وآلامى، وأحلامى.. أقصد عواطف فاطمة وآلامها وأحلامها.. وكانت فاطمة خلال هذين العامين قد بدأت تلقى إبراهيم، وكانت تعود لتروى لى كل ما حدث بينهما.. كل التفاصيل.. وكانت فى بادئ الأمر تتردد فى أن تروى لى كل شىء.. ولكنى أقنعتها بأنى لكى أكتب لها خطابات صادقة يجب أن أكون فى نفس حالتها.. فلم تعد تتحرج.. كل شىء ترويه.. أدق التفاصيل.. وأنا أعيش فى هذه التفاصيل.. أحس بلمسات أصابع إبراهيم.. وأحس بقبلاته.. وأسمع كلماته.. أحس بكل ذلك كما تحس به فاطمة.. لقد أصبحت أنا فاطمة يا حضرات القضاة.. أصبحت فاطمة كاملة.. لم أكن أفيق من شخصية فاطمة إلا عندما أذهب إلى عملى فى الصباح.. ثم لا أكاد أعود إلى البيت حتى أصبح فاطمة.. أعيش فى قصة حبي لإبراهيم.. أقرأ خطباته.. وأكتب له خطابات.. وقد أصبحت أكتب لإبراهيم دون أن تطلب منى فاطمة أن أكتب له.. بل أصبحت أرسل له الخطابات دون أن تقرأها فاطمة.

إلى أن استسلمت فاطمة لإغراء إبراهيم.

أصبحت امرأة.

وجاءت تروى لى كل التفاصيل..

وأحسست بكل ضعف فاطمة، وكل خلجات عواطفها التي دفعتها إلى الاستسلام.. وعشت كما تعيش فى الأمل الكبير.. الأمل فى أن يتزوجنى إبراهيم.. أقصد يتزوج فاطمة.. وأصبحت خطاباتى له تنبض بهذا الأمل.. خطابات فيها ضعف.. ضعف لحظة الاستسلام.. وفيها رجاء.. وفيها توسل.. وفيها استكانة وذل لجبروت إبراهيم بعد أن بدأ يتمرد.

وخطابات إبراهيم تبرد وتتباعد.

وتزداد برودا وتباعدا.

إلى أن تحرك الجنين فى أحشاء فاطمة.. وفى أحشائى أنا أيضا.. وأحسست بكل آلام فاطمة.. آلام مريعة.. وكل ضياعها.. ضياع فى دوامة هائلة مخيفة.

ولم يعد إبراهيم يكتب إلى.

عشرات الخطابات كتبتها إليه، ولم يرد على.. خطابات فيها توسل استغاثة.. وفيها تهديد.. توعد.

ولكن التوسل لم يحزن قلبه.

والتهديد لم يخفه.

وبدأ يهرب من لقاى.. أقصد لقاء فاطمة.

إلى أن جاءت إلى فاطمة يوما وهى كالمجنونة.. لقد خطب

إبراهيم فتاة أخرى.

وانهارت فاطمة.

وانهزت معها.

لم تعد المشكلة بالنسبة لى مشكلة شخص آخر.

لم تعد فاطمة فى هذه اللحظة شخصية أخرى.

أنا فاطمة.

وأنا الذى خدعت.. وأنا الذى يتحرك الجنين فى أحشائى..  
وأنا الذى هجرنى إبراهيم للضياع، والعذاب، والتشرد..  
وجلست أكتب له خطابى الأخير.. لم يكن عبدالله هو الذى  
يكتب، ولكنها كانت فاطمة بكل آلامها وتمزقها النفسى.. وكان  
خطابا رائعا.. قطعة من الأدب العاطفى تستحق أن أنال عليها  
جائزة الدولة.

ولم يرد إبراهيم.

والغيظ يقرينى.. والحدق يمزقنى.. والرغبة فى الثأر  
تستبد.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل فاطمة عن  
أحاسيسها حتى أحس بما تحس، لقد أصبحت أنا فاطمة..  
ودون أن أناقش فاطمة الحقيقية، بدأت أعد للجريمة.. إن فاطمة  
الحقيقية يا حضرات القضاة لا تعلم شيئا عن هذه الجريمة،  
ولم تشترك فى تدبيرها.. ولكن التى دبرتها هى فاطمة  
الأخرى.. فاطمة التى تعيش فى داخلى.

وقد اشترت زجاجة ماء النار الكاوية.. وأرجو أن تضعوا  
فى حسابكم أن التفكير فى تشويه وجه المجنى عليه لا يمكن  
أن يكون تفكير رجل.. ليس من طبيعة الرجل عندما يفكر فى  
الانتقام أن يقرر تشويه وجه غريمه، ولكنه تفكير امرأة.. فلم  
يكن عبدالله هو الذى يفكر، ولكنها كانت فاطمة.

وحملت الزجاجة فى جيبى، وذهبت إلى إبراهيم فى بيته..  
وحادثته فى موضوع فاطمة، وحاول أولا أن ينكر علاقته بها..  
ولكنه فوجئ بالتفاصيل الكثيرة التى ذكرتها له.. كأنى كنت  
معهما فى كل لقاء، وفى كل لحظة، وفى كل خطاب.. لقد كنت  
معهما فعلا.. بل كنت أنا فاطمة.. وحاولت كثيرا أن أقنع  
إبراهيم بأن يصون وعده لى.. أن يتزوجنى.. حرام عليك

يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا  
يا إبراهيم.. ارحم ابنك اللي فى بطنى يا إبراهيم.. وكنت أتنبه  
أحياناً بأنى أحدث إبراهيم بلسان فاطمة .. كانى امرأة ..  
فأحاول أن أتخلص من شخصية فاطمة ، وأحدثه كعبد الله..  
رجل لرجل.. ولكنى لا ألبث أن أعود وأتحدث كفاطمة.. حرام  
عليك يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا  
يا إبراهيم.

وربما ظننى إبراهيم مجنوناً، فبدأ يدفعنى خارج الغرفة..  
بدأ يدفعنى فى عنف.. ولم أحتمل عنقه.. فرفعت الشمعدان  
النحاسى، الذى كان قريباً من يدي وضربته به على رأسه..  
وسقط تحت قدمي.. فأنهلت عليه ضرباً، إلى أن سكت عن  
الحركة.. ثم أخرجت ماء النار وسكبته على وجهه، ووقفت  
أرقبه.

أتدرون ماذا كان إحساسى فى هذه اللحظة يا حضرات  
القضاة.

أحسست بالدهشة.

نعم دهشت.. فقد أفقت فى هذه اللحظة من الشخصية  
الأخرى، وعدت إلى شخصيتى الحقيقية.. أصبحت عبدالله..  
وعبدالله لا يريد أن يقتل إبراهيم، ولم يفكر فى تدبير الجريمة..  
ولكنها فاطمة.. فاطمة هى التى دبرت، وهى التى قتلت.

يا حضرات القضاة.

إن وكيل النيابة يقول إنى قتلت إبراهيم بدافع الغيرة، لأنى  
كنت أحب فاطمة.

لا.. لم أكن أحب فاطمة.. كيف أحبها وأنا الذى كنت أكتب  
خطاباتها لإبراهيم.. لا.. لم أحب فاطمة.



كنت أنا فاطمة.

فاطمة التي تعيش فى داخلى هى التى قتلت إبراهيم..  
وفاطمة لديها أسباب مخففة.. القانون لا يمكن أن يحكم بإعدام  
فاطمة، ولا العدالة.

وعدالتكم تأبى أيضا أن تحكموا بإعدام عبدالله، لأن عبدالله  
لم يرتكب الجريمة.. عبدالله لم يقتل، وليس لديه دافع لقتل  
إبراهيم مرعى الدسوقى.. والدافع شرط أساسى لتوفر أركان  
الجريمة.

وأنا واثق من عدالتكم.

وعذرا إن كنت قد أطلت عليكم.

## كل هذا الجمال

أنا هذه السيدة التي يعرف كل الناس أنها  
ليست جميلة.

وأقول : «ليست جميلة» لأنى لا أستطيع أن  
أقول «قبيحة» أو «دميمة» أو أى وصف آخر من  
هذه الأوصاف المباشرة القاسية التي يمكن أن يصفنى بها  
الناس.

والناس تتساءل دائما : كيف استطعت أن أحتفظ بزوجى  
كل هذه السنين برغم أنى لست جميلة ؟  
وزوجى رجل وسيم، أنيق، ناجح، رائع، إنه حلم.. تحلم به  
أجمل الجميلات.. فكيف استطعت أن أحتفظ به.. أنا.. أنا التي  
ليست جميلة.

بعض الناس يعتقد أنى احتفظت به بذكائى.. وعندما  
يصفوننى بالذكاء، لا يقصدون الذكاء الطيب الحلو، بل  
يقصدون الذكاء الشرير الخبيث.. الذكاء الذى استطاع أن  
يسجن هذا الرجل الرائع داخل سجن له عظام بارزة مديبة

■ كل هذا الجمال ■

كالشوك وله جلد أزرق مكرمش، وله وجه تعيس ليس فيه خط واحد من خطوط الجمال. وبعض الناس يعتقد أنى أحتفظ بزوجى عن طريق إثارة إحساسه بالمسئولية نحو أولادنا الخمسة.. كأنى كنت أقصد أن أحمل وأن ألد لا لشيء إلا لأزيد عدد الحبال التى تربطه بى، وتقيدته إلى.

وبعض الناس يعتقد أن زوجى رجل طيب، وأنه احتفظ بى بداعى الشفقة.. الغلبانة.. المسكينة.. الوحشة.. إنه لا يستطيع أن يلقىها فى الشارع.. لن تجد رجلا آخر يأويها.. فاحتفظ بها.. شفقة عليها، وتقربا لله.

و.. كلام كثير يقوله الناس، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يتصور قسوة العذاب الذى احتملته حتى أحتفظ بزوجى.. عذاب كل يوم.. عذاب كل ساعة.. عذاب كل دقيقة.. فأنا أعلم - قبل أن يعلم الناس - أنى لست جميلة.. وأرى نفسى أكثر مما يرانى الناس.. وأكره نفسى.. أكره هذا الجسد النحيل الذى يلتصق جلده فوق عظامه.. وأكره لونه الغامق الذى يميل أحيانا إلى اللون الأزرق وأحيانا إلى اللون الأخضر.. وأكره أنفى.. وأكره شفتى.. حتى رموش عيني أكرهها.. وأنا أعلم أن المرأة لا يمكن أن تكون مجرد رفيقة حياة.. ولا مجرد صديق.. ولكنها يجب أن تكون شيئا جميلا فى حياة الرجل.. يتزين بها.. ويتباهى بها أمام أصدقائه.. وأنا لست جميلة.. لا يستطيع زوجى أن يتزين بى، ولا أن يتباهى بى.. ولذلك حاولت ألا أتزوجه.. حاولت.. حاولت كثيرا.. حاولت لأنى كنت أحبه، ولم أكن أريد له زوجة ليست جميلة مثلى.. إنه ابن خالتى.. وعلى عادة العائلات القديمة تقرر زواجنا منذ ولدنا..

■ كل هذا الجمال ■

وربما ولدت وأنا أعد نفسي له.. ومنذ بدأت أرى نفسي فى المرأة وأنا أعرف أنى لست جميلة.. ولكن كنت دائما أتعلق بأمل كبيرة أن شيئا ما سيحدث لى أصبح بعده جميلة.. وكل صباح أطل فى المرأة لعل هذا الشيء يحدث.. ولكنه لم يحدث أبدا. وأطل فى عيني حسن فأحترار فيهما.. هل يرانى كابنة خالته، أو يرانى كحبيبته وخطيبته وزوجة مستقبلة.. إنه مرح دائما.. رقيق.. حتى هذه الأوامر الصغيرة التى يلقيها على بين الحين والحين.. ما تخرجيش.. ماتلبسيش الفستان ده.. و.. و.. قد تكون أوامر رجل يحب ويغار على حبيبته، وقد تكون أيضا أوامر أخ، أو ابن خالة.

وحيرتى تكبر مع عمرى.. إنى لا أستطيع أبدا أن أعرف إذا كنت حبيبته أم ابنة خالته.. ولم يكن بيننا هذه المواقف العاطفية التى قد تساعدنى على الخروج من حيرتى.. لا كلمات حب.. ولا قبيلات.. ولا خلوات.. إنه دائما فى بيتنا، وأنا دائما بين أفراد عائلتنا.. ودائما قد أكون بالنسبة له ابنة خالته، وقد أكون حبيبته.

وحبى يكبر مع حيرتى.. إنى أحبه.. إنه بالنسبة لى ليس ابن خالتي، إنه حبيبي.. إنه خفقات قلبي.. إنه دنياى.. لست حائرة فى حبه له، ولكنى حائرة فى حبه لى.

والتردد والشك يمزقنى.. هلى يمكن أن يحبني.. هلى يمكن أن يحب هذه الفتاة الدميمة.. هلى يمكن أن يتزوجها.. وإذا تزوجها، فهل تزوجها لأنه يريد لها أو لأنه مسئول عنها.. ولأنه يشفق عليها.. ولأنه تورط فى زواجها. وبدأ الشك يغلبني.

وبدأت أفكر فى الهروب من هذا الزواج، لا لأنى لا أريده،

ولكن لأنى لا أريد له أن يتزوج فتاة مثلى.. ليست جميلة.  
إلى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرى، وبدأت العائلة  
تتفاوض لتحديد يوم الزواج.. ولجأة وجدت نفسى أصرخ :  
- مش عايزة أتجوز.

وبهت كل من فى العائلة.. كان زواجنا حقيقة بديهية بين  
أفراد العائلة، منذ ولدنا، إلى حد أن تركت صرختى أثرا  
كانفجار القنبلة الذرية.  
وحاولوا معى كل الوسائل.

وحاولوا إقناعى بالرفق.. وحاولوا إجبارى بالتهديد.. ولكنى  
استعنت بكل عنادى، وأصررت على موقفى، وكانت حجتى أنى  
أريد أن أتم تعليمى الجامعى، ثم أبحث عن عمل.  
إلى أن دخل حسن إلى غرفتى ذات يوم، وأنا مازلت  
بقميص النوم.. ووقف أمامى وفى عينيه نظرة حازمة غاضبة،  
وصرخ فى وجهى :

- اسمعى.. أنا مش عايز دلع.. حانتجوز يعنى حانتجوز..  
وحانتجوز الخميس الجاى.. مش عايز اسمع كلام بعد كده.  
وهم أن يتركنى ويخرج من الغرفة، ولحقت به، ورفعت إليه  
عينين خائفتين متوسلتين، وقلت :

- حسن.. أنت صحيح عايز تتجوزنى ؟

ونظر إلى كائى مجنونة وقال :

- أمال يعنى عايز إيه ؟

وعدت أقول وعيناي فيهما هذا الخوف والتوسل :

- أنت متأكد يا حسن.. متأكد أنك عايز تتجوزنى.

ونظر إلى حسن نظرة ملؤها الحنان.. ثم جذبنى إليه

وضمنى إلى صدره فى رفق، وقال وهو يربت على كتفى :

- متأكد يا سعاد.. ماتبقيش عبيطة.  
وكانت هذه أول لحظة حنان يمنحها لى حسن.  
وعندما تركنى يومها قررت أن أتزوجه.  
وقررت أيضا أن أحتفظ به كزوج.. مهما كلفنى الاحتفاظ  
به.

كيف ؟

كيف أحتفظ به والدنيا تزدهم بالجماليات، وأنا لست جميلة.  
وخيل إلى أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ به هي أن أجمع  
كل حياته فى يدي.. كل حياته.. أدق التفاصيل، وأكبر  
التفاصيل.. واستطعت بذلك أن أحقق كل ذلك.. أصبحت حياة  
حسن بين يدي، أنا التى أديرها، وأنا التى أشرف عليها.. أنا  
التى أشتري له ثيابه وأعداها له.. وأنا التى تختار له أصدقاءه  
وتجمعهم به أو تفضهم من حوله.. أنا ذاكرته فى عمله.. وأنا  
البنك الذى يحتفظ فيه برصيده.. وأنا.. وأنا.. لقد أصبح حسن  
طفلا لا يستطيع أن يتحرك بعيدا عن أمه.. وأنا أمه.. التى  
تصنع له دنياه.. وقد صنعت له دنيا ضيقة ليس فيها ولا امرأة  
جميلة.

ولكن الجميلات لسن فى المجتمع فقط.. إنهن فى المجالات،  
وفى السينما، وفى التلفزيون.. وأطل فى مرأتى فأرى وجهى  
ليس جميلا.. وأرى جسدى وقد التصق جلده فوق عظامه..  
والتفت فأجد حسن يبخلق فى صورة امرأة جميلة منشورة فى  
مجلة، أو يبخلق فى وجه امرأة تطل من شاشة التلفزيون،  
فتنتابنى موجة قاسية من الخوف.. أخاف.. أخاف على حسن..  
إن كل دقيقة من عمرى دقيقة خوف.  
وأنجبنا بنتنا فائزة.

ثم ايننا زياد.

وعندما حملت فى خالد قررت أن أتخلص من الحمل.. لقد بدأت أحس بأنى قد لا أكون صادقة مع نفسى وأنا ألد هؤلاء الأولاد.. خطر لى مثل ما خطر للناس الذين يتخذبون عنى، من أنى ألد لا حبا فى الأطفال، ولكن لأقيد بهم حسن إلى.. وحاولت فعلا أن أتخلص من حمل خالد.. وثار حسن.. إنه يريد.. ويريد أن يملأ البيت بكثير من أولاده وبناته.

ولكن هذه الفكرة التى سيطرت على جعلتني شبه مجنونة.. فعدت أحاول أن أتخلص من حملى دون علم حسن.. ولكنى لم أفجح.. وجاء خالد.

والخوف يستبد بى.

ليس الخوف وحده، إنما بدأ الإحساس بأنى أحرم حسن من حقه فى الجمال.. حقه فى أن تكون له امرأة جميلة، يتمتع بها، ويتزين بها، ويتباهى بها.

والخوف يكبر.

والإحساس بأنى جنيت على حسن يكبر.

إنى امرأة معقدة.

عقدتى تمزقنى.

ويمزقنى أكثر محاولة أن أخفى عقدتى عن حسن، أن أبدو أمامه دائما كامرأة طبيعية.

ثم لم أعد أحتمل كل هذا العذاب.

يئست من محاولتى الاستمرار فى كل هذه المعاناة.

وفى يوم قررت أن أغير كل هذه الحياة.

قررت أن أفرج عن حسن.. أن أطلق سراحه من هذه الدنيا الضيقة.. من هذا السجن الدميم.

وبسرعة فتحت كل الأبواب على الدنيا الواسعة.. بدأت  
أتعرف على المجتمعات التي تضم أجمل نساء مصر.. كل ليلة  
فى حفلة.

وعيناي لا تطرفان عن حسن.

إنه يبدو مبهورا بالدنيا الجديدة التي فتحتها له.. يبدو  
كالطفل وهو يتفرج على الصواريخ الملونة.. وقد نجحت  
شخصيته بين النساء.. وسامته، أناقته، نجاحه، رفته.. ويلتفتن  
حوله، يأكلنه بأعينهن، ثم يلتفتن إلىّ ويتهامسن.. وأنا أرقب  
حسن.. أرقب كل نظرة فى عينيه، وكل التواءة بين شفثيه،  
وكل كلمة يقولها، مهما بعدت عنه لا يفوتنى منه شيء.. وأكاد  
أسمع همسات الجميلات عندما ينظرن إلىّ.. أسمعها بخيالى..  
إنهن يتهامسن بأنى وحشة، قبيحة، ويتساءلن كيف استطعت  
أن أتزوج هذا الرجل الرائع، وكيف استطعت أن أحتفظ به.  
ونعود إلى البيت كل ليلة.. وحسن سعيد.. فى منتهى  
السعادة.. وأنا أكتم عنه عذابى ويأسى.

إلى أن تعرفنا بناهد.

إن نهاهد مطلقة شابة، شقراء، جميلة، رائعة الجمال.. أنا  
نفسى بهرنى جمالها عندما التقيت بها لأول مرة.  
وبهتت حسن.

ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن نهاهد قد أخذت من اهتمام  
حسن أكثر مما أخذت منه أى امرأة أخرى.. ولاحظت أنهما  
بسرعة.. فى ساعة واحدة.. أصبحا أصدقاء، إنهما يتحادثان  
فى بساطة وجرأة، ويتضحكان كأنهما عاشا العمر كله معا.  
وفى هذه الليلة.. الليلة الأولى التى التقينا فيها بناهد..  
قررت أن أترك لها حسن ليتزوجها.



لم أتركه لها مرة واحدة.. ولكنى تعمدت أولاً أن أصادقها..  
أصبحت أقرب الصديقات إليّ.. نتحدث كل صباح في  
التليفون، ونخرج معا لنطوف بالمحال.. ودائماً معا على العشاء  
أو الغداء.. فى بيتى، أو فى بيتها، أو مدعوين عند بعض  
الأصدقاء.. وحسن دائماً معنا، ثم بدأت خطوة أخرى.. بدأت  
أدعوها إلى الشاي أو العشاء، وقبل أن تصل أخرج من البيت  
وأنا أقول لحسن :

- ناهذ جاية دلوقتى.. أقعد معاها لغاية ما أرجع.. مش  
حاغيب.

ويأخذ حسن الأمر ببساطة.

وكنت بذلك أتعمد أن أدفعه إليها أكثر.. كنت أريده أن يصل  
إلى القرار الذى اتخذته أنا، أى أن يتزوجها.. وكنت أتركهما  
وحدهما فى البيت، وأخرج أجوب على قدمى ساعة أو ساعتين،  
وأنا أحس بأنى شهيدة.. شهيدة تضحى بنفسها من أجل  
إسعاد الرجل الذى تحبه.. إن هذا الإحساس.. الإحساس بأنى  
شهيدة.. يريحنى من عقدتى بأنى دميمة.. يرطب أعصابى..  
يملؤنى اعتزازاً بنفسى وبقوتى.. ثم كنت أعود إلى البيت  
لأجدهما.. حسن وناهد جالسين أمام التليفزيون.. أو يسمعان  
شرائط أم كلثوم.. وأبدو أمامهما مرحة وفى داخلى هذا  
الإحساس الطاغى الحلو بأنى شهيدة.

إلى أن كان يوم.

وخرجت من البيت وتركت حسن وحده.. وعدت بعد  
ساعتين أسأله :

- ما حدش ضرب تليفون؟

وقال حسن فى بساطة :

- ناهد اتكلمت، وقعدت ترغى معايا ساعتين.  
وجلست قبالة وانا ابتسم له ابتسامة حزينة.. ابتسامة  
الشهيد.. وقلت فى صوت هادىء اسيطر عليه بكل إرادتى :  
- حسن.. أنت لازم تاخذ قرار فى الموضوع ده.  
ونظر إالىّ فى دهشة، وقال :  
- موضوع إيه ؟  
قلت وأنا مسيطرة على كل عصب من أعصابى :  
- موضوعنا أنا وأنت وناهد.. اسمع.. أنا مستعدة لكل  
حاجة، إذا حببت تخليينى أربى العيال وتاخذ أنت وناهد بيت  
تانى.. ما عنديش مانع.. إذا حببت تطلق أنا.  
وصرخ حسن فى وجهى :  
- إيه الكلام اللى بتقوليه ده.. انتى اتجننتى يا ست انتى.  
قلت فى هدوء دون أن أهتز :  
- أنا عارفة أن ناهد حلوة.  
وصرخ حسن :  
- وأنا مالى إذا كانت حلوة.. هى بتاعتى.  
قلت :  
- حاتبقى بتاعتك.. اتجوزها.  
وصرخ حسن بأعلى صوته :  
- انتى بتخرفى بتقولى إيه.. إيه اللى حصل فى مخك.  
قلت وأنا ما زلت هادئة :  
- أنت لازم تتجوز واحدة حلوة.. حرام.  
وعاد حسن يصرخ كأنه جن :  
- وأتجوز واحدة حلوة ليه.. ما فيه ألف واحدة حلوة،

ما اتجوزهم كلهم.. اشمعنى ناهد.. ما خديجة حلوة.. وفيفى  
حلوة.. وخيرية حلوة.. و...  
وقلت وقد بدأ هدوئى يهتز :  
- حرام إنك تقعد طول عمرك متجوز واحدة وحشة زىي.  
وسكت حسن فجأة.. ونظر إلى طويلا.. ثم قال فى صوت  
هادىء عميق :  
- أنا ما أعرفش أنك وحشة يا سعاد.. أنا أعرف أنى بأحبك.  
وبكيت.



صدقونى أنى لا أبذل مجهودا للاحتفاظ بزوجى.. أعنى أنى  
لا أتعمد أن أبذل مجهودا خاصا أكثر مما تبذله أى زوجة  
فاضلة.

وإنى أؤمن الآن بأن ليس هناك زوجة جميلة، وزوجة ليست  
جميلة.. ولا زوجة ذكية.. وزوجة غبية.. ولكن هناك زوجة  
يحبها زوجها، وزوجة لا يحبها زوجها.. وعندما يوجد الحب  
يوجد معه الجمال والذكاء.. يوجد ما يكفى للاحتفاظ بالزوج  
مدى الحياة.

وزوجى يحبنى.  
وحولنا كثيرات من النساء الجميلات.. وأنا بينهن قوية..  
لم أعد معقدة.. إنى قوية.. أقوى منهن جميعا.. واثقة من  
نفسى.. لأنى واثقة من حب حسن.

## اكتشاف الأومنيوم

عاد جمعة عبدالصمد إلى القرية وهو يرفل فى جلباب حريرى، وفى قدميه حذاء أصفر لامع، وعلى رأسه طاقية شبكية تميل فوق حاجبه.. ويوسع فى خطاه فيخشخش طرف جلبابه بين ساقيه، وكأنه، يهمس «اسكت ما اسكتش».. وفى ذراعيه سبت كبير من الخوص محمل بالهدايا.. معظمها هدايا لخطيبته بهية، ولأمه، وحماته فى المستقبل، وهدايا صغيرة لأبيه وإخوته وأولاد عمومته.. وفى عينيه نظرة فرحة لا تخلو من التعالى الساذج والغرور الطيب.. ويتلفت حواليه فيرى كل شئ كما تركه منذ عشر سنوات.. أو أن خياله أبى أن يعترف أن شيئاً يمكن أن يتغير فى القرية وهو بعيد عنها.. فلم يلمح مبنى الوحدة الجمعة الذى أقيم خارج القرية.. ولم يلمح ظلمبة المياه.. لم يلمح أى جديد.. عيناه ممثلتان بصورة القرية كما تركها منذ عشر سنوات.. الساقية العتيقة فى مكانها، ولا تزال تدور، وخيل إليه أن الثور الذى يدور بها هو نفس الثور.. وزرعة القطن هى التى تركها فى الغيط.. وقبة الشيخ العتر..

### ■ اكتشاف الألومنيوم ■

والطرق المعفرة التي تكسوها طبقة من التراب الأبيض الناعم..  
والمصرف.. وشجرة الجميز.. ومنذ عشر سنوات ترك جمعة  
القرية، وانتقل ليعيش مع عمه فى البندر.. وكان عمه طباحا فى  
سراى المحافظة.. وقد تغير المحافظون ولكن عمه لم يتغير.. ظل  
طباحا فى السراى، منذ كان المحافظ «باشا» قبل الثورة، إلى أن  
شهد محافظين، يأكلون الملوخية بأصابعهم كالفلاحين ..  
واشتغل جمعة مع عمه.. فى المطبخ.. وعاش يسمع ترحم عمه  
على أيام زمان، عندما كان يطبخ كل يوم خروفا وعشرة  
أصناف من الطعام.. ولم يتأثر جمعة بأيام زمان ولا انصرف  
إليها خياله، فقد كان كل همه أن يتعلم من عمه فنون الطهو..  
وصاح فيه عمه وهو يرقب تلهفه على تلقى أسرار المهنة :  
- يا ابنى هو فيه حد بيطبخ الأيام دى.. دول كلهم صنفين  
تعملهم أمك وهى مغمضة.

وبرغم ذلك تعلم جمعة طهو أصناف من الطعام لا تعرفها  
أمه، ولا تذوقها فى بيته.. تعلم كيفية عمل اللحم الرستو،  
والحمام الكولباست والسماك الميونيز.. و.. و.. وعندما مرض  
عمه تولى مكانه.. ولم يشك البية المحافظ.. بل أشاد بمهارة  
جمعة.. ثم.. مات العم.. وأصبح جمعة هو طباح السراى.  
وفكر جمعة فى الزواج.. وكان تفكيره محصورا فى الزواج  
من إحدى بنات البندر، فهو قد تغير، لم يعد من أبناء القرية..  
إنه أحد أبناء البندر.. يلبس الجلابيب الصوف والحرير، وأحيانا  
يلبس القميص والبنطلون، ويجلس فى قهوة المحطة، مع  
أصدقاء كلهم أفندية ويقرا الأهرام كل مساء.. يقرؤه بصعوبة..  
ولكنه يقرؤه.. لقد تغير كثيرا، ولم تعد تصلح له إلا إحدى  
بنات البندر. وبرغم ذلك تردد طويلا.. لا يدري لماذا.. إن  
تفكيره فى الزواج ينقصه الاندفاع.. كان يفكر فى الزواج وهو

جالس فى المقهى.. أو وهو جالس فى غرفته يتحدث مع جيرانه.. ولكنه لا يكاد يتحرك من مجلسه حتى ينسى موضوع الزواج.

إلى أن جاء إلى البندر مدبولى عبدالرحمن ليجرى عملية جراحية فى المستشفى الأميرى.. وعم مدبولى يملك ثلاثة أفدنة فى القرية.. وكان بينه وبين والد جمعة - حميدة عبدالصمد - الذى يملك فدانين فى نفس الحوض، حزازات قديمة، ومشاحنات كانت تتسع حتى تخرج العائلتان لتواجه إحداهما الأخرى فى معارك عنيفة، ولكنها كانت كلها معارك بيضاء قد يسقط فيها جرحى، ولكن لم يحدث أن سقط فيها قتيل.. وقد هدأت هذه الحزازات مع الزمن، وبعد أن استقر العرف الذى يحكم مياه الري بين أرض عم مدبولى، وأرض عم عبدالصمد.. وأصبحت العائلتان على علاقات طيبة وإن ظلت كل منهما محتفظة بشخصيتها وبكيان زعامتها.

وقد أرسل عم عبدالصمد إلى والده جمعة يخبره بوصول عم مدبولى إلى البندر لإجراء عملية فى المستشفى.. وأوصاه بأن يزوره ويرعى شئونهم.. وكان عم عبدالصمد يبدو فى خطابه سعيدا معتزا بابنه الذى يقيم فى البندر والذى طلب منه مدبولى أن يوصيه عليه.. وفرح جمعة أيضا وازداد اعتزازا بنفسه وهو يشعر أنه سفير القرية فى البندر والمسئول عن شئون رعاياها.. وذهب لتوه لزيارة عم مدبولى.. وهناك التقى بابنته بهية.. ولم يصدق أن هذه هى بهية.. والله البت كبرت.. ونظر فى عينيها، تطلان عليه من فوق الشال الذى تلفه حول طرف أنفها فى حياء وخفر، وأحس أنه وجد بيته فى هاتين العينين.. قرر منذ اللحظة الأولى أن يتزوجها.

## ■ اكتشاف الألومنيوم ■

وفاض جمعة بكرمه على عم مدبولى وبهية، واستعمل نفوذ المحافظ، ونقل عم مدبولى إلى سرير فى الدرجة الثانية، وخصص بجانبه سريرا آخر لابنته التى تقوم على خدمته.. وهو دائما معهما.. عم مدبولى راقد فى سريره، وهو مع بهية يحدثها عن حياته فى البندر، ويبهرها بحكاياته، ولم يكن يحدثها عن فنون الطهو.. إن الطهو هو عمله، وليس من شيمة الرجل أن يحدث المرأة فى شئون عمله.. وبهية تنظر إليه وفى عينيها أمل كبير.. أمل لم تكن تعتقد أنه قد يتحقق.. إن جمعة يبدو أمامها إنسانا كبيرا من عالم بعيد، لا يمكن أن تصل إليه، ولا يصل إليها.. وبرغم ذلك فالأمل لا يريد أن يخبو، وعيناها تزدادان قربا من عينييه.. وكما رأى فى عينيها صورة بيته، رأت فى عينييه بيتها.

وما كاد عم مدبولى يعود إلى القرية بعد شفائه ومعه ابنته، حتى أرسل جمعة خطابا مستعجلا إلى أبيه يطلب منه أن يخطب له بهية، وأن يتفق نيابة عنه على كل التفاصيل.



وعاد جمعة إلى القرية بعد عشر سنوات ليعقد قرانه على بهية.

ورحبت به القرية.. وذبح أبوه خروفين أمام ضريح الشيخ العتر احتفالا بعودة ابنه.

وجلس جمعة مع بهية يحدثها وقال فى سخط :  
- وما نكتبش الخميس الجاي ليه.. ايه لزمة اللكاعة دى..  
وقالت بهية وهى تنظر إليه بعينين متوسلتين حتى لا يغضب:  
- أصل لسه النحاس.

ونظر اليها جمعة بعينييه الساخطين وقال :  
- نحاس إيه.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

قالت :  
- النحاس.. الحلال، والطشيب.. أبويا بيقول إن الحلة اللي أد الكوز بقت بأربعة جنيهات.  
وقال جمعة :  
- ومين قال له احنا عايزين نحاس.  
ونظرت إليه بهية فى دهشة وقالت :  
- نتجوز من غير نحاس يا جمعة.  
وصرخ جمعة :  
- نحاس إيه يا بت.. النحاس ده بطل من زمان.. وقالت بهية ودهشتها تشتد :  
- أمال الناس بتطبخ وتغسل فى إيه بأه.  
وقال جمعة وهو بيتسم فى وجهها ابتسامة ساخرة :  
- فى الألومنيوم.  
قالت بهية :  
- فى إيه ؟  
وقال جمعة وهو يضغط على مخارج الفاظه:  
- الألومنيوم.  
وقالت بهية وهى تمصمص شفيتها تعجبا:  
- وإيه بأه الألومنيوم ده.  
قال جمعة :  
- ده أحسن من النحاس.. أخف، وأرخص، وعمره ما يجنزر.. مش عايز تبييض ووجع قلب زى النحاس.  
ونظرت إليه بهية كأنها تنظر إلى مجنون، وعادت تقول :  
- نتجوز من غير نحاس يا جمعة.. نحاس أحمر.. البلد تقول علينا إيه ؟



■ اكتشاف الألومنيوم ■

وصرخ جمعة :

- يا بت انتورى بأه.. ماحدث دلوقتى بيحيب نحاس.. دى سراية البيه المحافظ كلها مافيهاش حته نحاس واحده.. كله الومنيوم.

وقالت بهية كأنها لم تسمعه :

- نحاس أحمر أفرح بيه.

وعاد جمعة يصرخ :

- وما تفرحيش بألومنيوم أبيض ليه.. اسمعى يا بهية.. كلمة واحدة.. أنا مش عايز نحاس فى بيتى.. ولو أبوكى جاب نحاس حايبعه واشترى الومنيوم.

وردت بهية والدموع تنبثق من عينيها :

- أتجوز من غير نحاس يا جمعة.. أنا أتجوز من غير نحاس.. ويخلصك برضه يا جمعة.

ثم فزعت من جانبه وجرت إلى أمها تسبقها دموعها.



فى صباح اليوم التالى دخلت أم بهية على أم جمعة، وجلست بجانبها وقالت :

- إيه يا ست أم جمعة الحكاية.. يعنى إيه سى جمعة مش عايز نحاس.. احنا كنا اشتكيننا ولا قصرنا.. النحاس حايبجى لو دفعنا بدل الجنيه ألف.

وقالت أم جمعة :

- يا أختى ماحدث قال كده.. بس أصل ابنى جمعة متنور وعائش طول عمره فى البندر.. وبرضه يفهم أحسن مننا يا فلاحين. وقالت أم بهية :

- ودى عايزة فهم.. هو فيه جوازه من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

■ اكتشاف الألومنيوم ■

- أصل سى جمعة بيقول النحاس بطل.. والناس بتطبخ  
وبتغسل فى حاجة مش عارفة اسمها إيه كده.

وقالت أم بهية :

- بأه فى نمتك يوم ماتجوزى بنتك فردوس، ترضى  
تجوزيها من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

- والنبي لو بنتى لقت راجل زى ابنى جمعة لأمشى كلامه  
عليها وعلينا وعلى البلد كلها.. الرك يا أختى ع الراجل.

وقالت أم بهية :

- والراجل يبهدلنا فى وسط البلد.. وده كلام تقوليه  
برضه.. والله بنتى ماتتجوز من غير نحاس أبدا.. نحاس أحمر  
وملعلع.. واللى مش عايز نحاس مايتجوزش بنتى.

وقالت أم جمعة وهى تصرخ :

- لا يا أم بهية.. ماتغلطيش.. اللى مش عايزنا مش عايزينه  
ده ابنى كانت بتجرى وراه كل بنات البندر.. غيرش أنه ابن  
أصل وحب ياخذ من بلده.

وقالت أم بهية وهى تصرخ هى الأخرى :

- والله يا أختى ضفر بنتى بكل بنات البندر.. هو حد كان  
شده من قفاه وقاله تعالى اتجوز من عندنا.. وعلى إيه..  
ما بلاش.. بلاش خالص.. بلاش نحاس وبلاش جواز.  
وقامت من جانبها تدب الأرض بقدمها الثقيلة..



وفى المساء اجتمع عم مدبولى، وعم عبدالصمد، والشيخ  
يحيى إمام الجامع، وإخوة جمعة، وأولاد مدبولى، ودار  
الحديث حول النحاس والألومنيوم.. وقال جمعة وهو يحاول  
أن يسيطر على أعصابه ويبدو هادئاً :

### ■ اكتشاف الألومنيوم ■

- اسمع يا عم مدبولي.. دى شغلتى.. أنا طباخ وأعرف اللي ينقع واللى ماينفعلش.. والنحاس الأحمر ما بقاش ينفع.. الناس الأكاير بتستعمل دلوقتى الألومنيوم.. حلل الألومنيوم.. وطشت الألومنيوم.. وأطباق الألومنيوم.. ليه.. اشمعنى الألومنيوم ومش النحاس.. لأن الألومنيوم مايجنزش.. ماقيش خوف أنه يسم حد زى النحاس المجنرما يسم الناس.. ومش محتاج نجيب مبيض نحاس يبيضه كل يوم والتانى.. ووزنه أخف.. يعنى بدل البت من دول ماتشيل حله واللاطشت نحاس يقسم وسطها، تشيل حله الألومنيوم خفيفة.. زى الريشة.. ثم إن الألومنيوم أرخص.. و.

وقاطعه عم مدبولي قائلًا وهو يستغفر الله :

- شوف يا ابنى.. الصراحة أحسن.. أنت دفعت مهر ستين جنيه، وأنا لغاية دلوقتى دفعت فوقهم أربعين.. جبنا السرير، والمراتب، والحصر، والدولاب، وفاضل النحاس.. والنحاس متأخر علشان القلوس. والله شهيد على ما أقول.. أنا مستعد أدفع فوق الأربعين أربعين كمان.. وإذا كنت فاكر أنك بتوفر على.. لا والله.. أنا بنتى لازم تتجوز كاملة من كله.. والنحاس جاي يعنى جاي.

وصاح جمعة :

- يا عم مدبولي مش مسألة فلوس.. أنا عايز أعيش زى الناس المتمدنة.. حد شريكى يا عالم.. أنا عايز الألومنيوم.. ما أبقاش حر فى بيتى يعنى.. وبكره حاتعرفوا أن الألومنيوم أحسن من النحاس.

وقال عم عبدالصمد وهو غير مقتنع تماما بكلام ابنه :

- ماتسبيه يا مدبولي.. خده على عقله.. مادام مش عايز نحاس.. خلاص.. يوفر.

## ■ اكتشاف الألومنيوم ■

وقال الشيخ يحيى :  
- الواقع أننا نحكم على مجهول، فليس منا من يعرف هذا الميموم.

وقال جمعة :

- اسمه الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى :

- لا نعرفه.

وقال مدبولي :

- نعرفه واللاما نعرفوش.. مش ممكن بنتى تتجوز من غير نحاس.. عايزين تقضحوني فى وسط البلد.. وبلاد المركز كله.. عيب يا عبدالصمد.. عيب يا جمعة..



والقرية كلها تتحدث عن النحاس والاكتشاف الجديد الذى يسمى الألومنيوم.

وفى الصباح الباكر ذهب جمعة إلى البندر واشترى مجموعة من الأوانى الألومنيوم.. وعاء كبير أكبر من أكبر حلة.. ووعاء آخر.. وأصغر، وطشت.. ومجموعة من الأطباق.. كلها من الألومنيوم وعاد بها إلى القرية فى المساء. والتف أهل القرية يتفرجون على الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى وهو يقلب فى يده طبقا من الألومنيوم :

- هذا صفيح، أو كالصفيح.

وصرخت أم بهية :

- يا خرابى.. بنتى تتجوز بصفيح.

قال شحاته :

- لا.. مش صفيح.. ده زنك.

وقال عباس :

■ اكتشاف الألومنيوم ■

- دى حاجات بتاعة المستشفيات.. يكونش جمعة ناوى  
يسكن فى مستشفى.  
وقال عوضين :  
- دى حاجات خوجات وأنت الصادق.. الخواجه اللى كان  
فاتح فى المركز كان بيطيخ فى بتاعة زى دى.  
وقالت بهية والدموع فى عينيها :  
- أنا عايزة نحاس أحمر.  
وصرخ مدبولى :  
- اسمع يا جمعة.. الجوازة مش نافعة.. بهية مش لك.. من  
بكره حايكتب كتابها على عباس.. احنا لا من أهل البندر..  
ولا خوجات.  
وصرخ جمعة :  
- بهية بتاعتى.. مراتى.. قرئت فاتحتها.. ماحدث يقدر  
يتجوزها غيرى.  
واشتد الصراخ.  
وتجمعت عائلة مدبولى فى جانب.  
وعائلة عبدالصمد فى جانب.  
وارتفعت أعواد الشوم الغليظة فى الهواء.  
وفى المساء.. نفس المساء.. تسلل بعض أولاد عبدالصمد إلى  
أرض مدبولى وقطعوا المياه عنها.. ولحهم أولاد مدبولى..  
وانطلق الرصاص.. وخرج جمعة من البيت يجرى.. لم يكن  
يعلم مايجرى.. ولم يكن يعلم من أين ينطلق الرصاص.. وشق  
طريقه بين الجانبين.. فى الظلام.. وأصابته رصاصة.. لا أحد  
يعلم حتى اليوم، هل هى رصاصة أطلقها إخوته، أو أطلقها  
إخوة بهية.  
وقتل جمعة.

### ■ اكتشاف الألومنيوم ■

وبعد أربعة أيام قتل شحاتة بن مدبولي وأخو بهية.. ثارا لجمعة.

وبعد شهر مات عبدالصمد حسرة على ابنه.  
ومات في نفس الشهر مدبولي حسرة هو الآخر على ابنه..



ونسيت القرية مشكلة النحاس والألومنيوم.

والتأر لا يزال قائما بين العائلتين.

تأر لا موضوع له.. ولكن له ضحايا.

وخرجت فردوس أخت المرحوم جمعة تحمل على رأسها الوعاء الألومنيوم الكبير الذي اشتراه جمعة يوماما.. وقالت لها فتحية :

- والنبى يا أختى ده أخف من الداھية النحاس اللى أنا شايلاھا على دماغى.

وقالت عزيزة :

- ويستحمل زى النحاس وأكثر.

وقالت فتحية :

- ولا يصدى.. ولا يجنزى، ولا عايز تبيض ولا حاجة.

وقالت سنية :

- وبيقولوا أرخص.

وبدأت نساء القرية وبناتها يستعملن الأوانى الألومنيوم..

دون أن تتذكر واحدة منهن جمعة.. شهيد الألومنيوم.

واحدة فقط كانت تذكره وفى قلبها حسرة كبيرة.

بهية.

وعندما تزوجت بهية كانت كل أوانىها من الألومنيوم..

## المزيمية

أحمد.. عزيزى :

رأيتك أمس.

بعد خمسة عشر عاما، رأيتك.. أتدرى.. إنك لم تكبر.. بشرتك السمراء المشدودة.. أنفك المستقيم الذى يحمل ملامح شخصيتك القوية.. عيناك الجادتان الحازمتان كأنهما تلقيان فى كل لفظة أمرا عسكريا.. ابتسامتك الدائمة التى تشق خطا رفيعا بين شفطيك الغامقتين الممتلئتين.. و.. كم عمرك الآن.. الخامسة والخمسون على ما أعتقد.. وبرغم ذلك فإنك ما زلت تبدو كما تركتك فى الأربعين. والحمد لله أنك لم ترنى عندما رأيتك، وإلا لما عرفتنى.. أنا تغيرت كثيرا يا أحمد.. جلدى ارتخى فوق عظام وجهى.. جفناى سقطا فوق عيني.. تشققت شفطاي.. لم أعد هذه الزوجة الصغيرة الحلوة التى عرفتها منذ خمسة عشر عاما.. بل لم أعد أبدو فى سنى.. سن الثامنة والثلاثين.. إنى أبدو أكبر بكثير.. وأحاول كثيرا أن أنكر هذه الحقيقة، فأقف أمام مرأتى وأشد جلد وجهى بكفى، وأفتح عيني على وسعهما لأدارى تجاعيد

## ■ الهزيمة ■

جفنى، ولكن لا أكاد أرفع كفى، حتى يعود جلدى ويرتخى،  
ويسقط جفناى.. وأرى نفسى كما أصبحت.

نعم.. لقد تغيرت كثيرا يا أحمد.

وعندما رأيتك، وتداريت خلف فانوس النور أرقبك وأنت  
تركب سيارتك، أحسست فى لحظة واحدة أنى عدت إلى عمري  
معك.. إلى شبابى.. إلى أيامنا.. وابتسمت ابتسامة كبيرة  
زغردت فى صدرى بل كدت أضحك كما تعودت أن أضحك  
وأنا صغيرة.

وبعد أن ابتعدت، واختفيت عن عيني ربما لسنوات طويلة  
أخرى، تذكرت، وابتسامتى لا تزال تزغرد فى صدرى، أنى  
لم أقل لك حتى اليوم لماذا هجرتك هكذا فجأة.. وتركتك حائرا،  
تردد فى دهشة.. مجنونة.. مجنونة..

وربما كنت مجنونة فعلا.

ولكن كل مجنون له منطق.

وأنت لم تعرف بعد منطق المجنونة التى هجرتك فجأة.

عزيزى أحمد.

أتذكر.

لقد عرفتك وأنا فى الثامنة عشرة من عمري عندما التحقت  
طالبة بكلية الآداب.. وبهرت بك منذ اليوم الأول الذى دخلت  
فيه علينا لتلقى محاضرتك فى تاريخ الفلسفة.. ولم أكن وحدى  
التى بهرت بك.. كل بنات الكلية كن يبهرن بك.. لا لأنك أستاذ  
فحسب، ولا لأنك رجل وسيم فحسب، بل لأنك أيضا أنيق،  
ولأنك تملك سيارة أنيقة تقف على باب الكلية كالفرس الأصيل  
فى انتظار فارسها.. وكل ذلك كان يجعل منك حلما جميلا لكل  
بنت.. ولكنى لم أبهر برجولتك ولا بسيارتك، ولكنى بهرت  
بعلمك.. هذه هى الحقيقة.. ومنذ أن انساب صوتك إلى أذنى



### ■ الهزيمة ■

عمقا رزينا يروى لنا قصة الفلسفة.. استغرقت، فيك كما  
أستغرق في كتاب ممتع.. اخذتني كلي.. عقلي، وخيالي  
وأعصابي.. وأصبحت أنتظر.. أو على الأصح أنتظر  
محاضرتك.. بشوق ولهفة. كأني أنتظر اللحظة التي أدخل فيها  
إلى فراشي وأستغرق في كتابي المفضل.

وكنت أيامها مجنونة بشيء اسمه الثقافة.. كنت أريد أن  
أكون مثقفة، وأن أحس بأنى مثقفة.. لا مجرد طالبة، بل مثقفة..  
وكنت أعيش مع أمي وحدنا ننفق من معاش أبي الذي توفي  
منذ سنوات.. لم يكن لي أخ ولا عم ولا خال.. عم واحد سافر  
إلى كندا وبقي هناك وانقطعت الصلة بينه وبيننا.. وربما كانت  
هذه الوحدة.. وحدتي في الحياة.. هي التي دفعتني إلى القراءة  
والثقافة، لقد قرأت كثيرا، أكثر مما تتصور.. ووجدت اخوتي  
وأبائي، وأعمامي وأخوالي، فيمن قرأت لهم.. كانوا هم الذين  
يصنعون لي مبادئ وتقاليدى، وشخصيتي.. وكنت أحبهم كما  
أحب عائلتي.. لقد جعلت منهم عائلتي.. وكنت أخاف من  
الفيلسوف « بيكون » كما أخاف من أبي.. وأحترم أرسطو كما  
أحترم جدي.. وأناقش سارتر كما أناقش ابن عمي.. إلى أن  
التقيت بك.. فأصبحت أنت أقرب واحد إلى ممن أقرأ لهم.. ربما  
لأن كل الذين قرأت لهم كانوا مجرد حروف ترسم لي ثقافتى،  
أما أنت فكانت ثقافة حية.. كنت لحما ودما.. وكنت صورة حلوة  
للثقافة.. صورة أنيقة جذابة.

وبرغم ذلك فلم أحاول أن أعرفك وأنا طالبة.. لم أحاول أن  
أجرى وراءك بعد المحاضرة كما تجرى وراءك بقية الطالبات..  
فإن ثقافتى أشاعت في نفسى نوعا من التعالي، أو من مركب  
العظمة، إذا أردنا أن نستعمل التعبير العلمى.. ولا شك أن هذه  
الثقافة قد حمتهنى في هذه السن من كثير من نزوات الشباب..

## ■ الهزيمة ■

بل إنها فى الواقع كانت تنفر منى كل الشباب والرجال الذين يحاولون مغازلتى، فقد كان الواحد منهم لا يكاد يقترب منى حتى أبدأ معه مناقشة علمية فى الفلسفة أو فى الأدب، أحاول خلالها استعراض ثقافتى، فلا يلبث أن يتضاءل أمامى، ويفر.. ولكن.. إذا كانت الثقافة قد حمتنى.. فقد أصابتنى أيضا بهذا التعالى، وهذا الكبر، وهذه الحساسية المرفهة بكل ما يمكن أن يمس كبريائى.. وفى كثير من الأحيان كانت هذه الحساسية تنطلق من تفسير كاذب غبى لتصرف من التصرفات، وينبنى عليها معركة كاذبة وهمية دفاعا عن كبرياء كاذب أيضا.

لهذا لم أحاول أن أقدم لك نفسى كأى طالبة تقدم نفسها لأستاذها، وكنت أنت كريما مع نفسك معتزا بشخصيتك، فلم تحاول أن تفرض نفسك على، كأى أستاذ يفرض نفسه على طالبة.. ولكن أكثر من مرة التقت نظراتنا وأنت تلقى محاضراتك، ورأيت فى عينيك تساؤلا عجيبا مهذبا كأنك تسألنى فى أدب : متى وأين.. ولعلك رأيت فى عيني هذا الإصرار العجيب الذى يثيره إحساسى بالتعالى مختلطا بإعجابى وإيمانى بك.

وقد بقى هذا الإصرار قائما.. برغم أن إعجابى بك بدأ يتطور.. بدأت صورة الأستاذ المثقف تختلط بصورة الرجل.. بدأت أحبك.. ولكنى قاومت بعنف.. قاومت حبك، وقاومت فى صورة الرجل.. وحاولت أن أتشبث بكل قواى فى حائط الثقافة الذى يحمينى من الرجال.. من الحب.. أنت لا شىء سوى كتاب.. ثقافة.. هكذا كنت أحاول أن أقنع نفسى.

إلى أن انتهى العام الدراسى.. ونجحت فى مادتك بأعلى درجة حصلت عليها طالبة، ربما حتى الآن.  
وفى فترة الأجازة، مرضت أمى.

## ■ الهزيمة ■

واشتد بها المرض..  
وبدأت بين آهاتها التي تنطلق من آلامها الفظيعة تلح على أن  
أتزوج.. كانت تحس بأنها على وشك الموت، وكان الزواج هو  
الحل الوحيد لإعالتى بعد أن تموت.. فلم يكن لى أحد، ولم يكن  
لى سوى ما يتبقى من معاش أبى.  
وثارت كبرياتى.

وثار عنادى.

إن الزواج معناه القضاء على كل أحلامى.. ولكن تأوهات  
أمى وذبولها يوما بعد يوم، كان ينقلنى من سماء كبرياتى،  
ومن أحلام ثقافتى، إلى الواقع.. إلى الأرض.. إنى فعلا  
وحيدة.. وفعلا ليس لى من يعولنى بعد أمى.  
وبدأت أفكر فى الزواج.

ولكنى لم أفكر فى الزوج.. رضيت بأول الواقفين على  
الباب، وكان أكثرهم إلحاحا، وكان أيضا أغناهم.. إنه تاجر..  
يعمل بالتصدير والاستيراد.. ويملك مصنعا صغيرا للحلوى..  
وعماره.. وخمسين فدانا.

ولم أكن أنتظر أن يكون مثقفا.. ولكن غرورى جعلنى  
أتصور أنى أستطيع أن أجعل منه إنسانا مثقفا.. أن أضع كل  
ما فى عقلى من كتب، فى عقله.. وربما كان استسلامه لى فى  
فترة الخطوبة القصيرة، واحتماله فى صمت لمحاضراتى  
الطويلة التى ألقبها عليه قد أثار غرورى أكثر، وطماننى أكثر  
إلى أنى أستطيع أن أجعل منه الرجل الذى أريده.

وتزوجنا بعد شهرين من إعلان خطوبتنا.. وانتقلت معه إلى  
بيتى الجديد.. شقة فاخرة كان زوجى قد أثثها بنفسه أثاثا  
بانخا.

وماتت أمى بعد زواجى بأسبوعين.. راضية.. مطمئنة على.

## ■ الهزيمة ■

ولم يبق لى إلا زوجى، وثقافتى بكل ما تثيره فى من تعال وكبرياء كاذب.

وقبل أن ينقضى الشهر الأول بدأت أكتشف هذا الرجل الذى تزوجته، بعد أن أزاح عن وجهه الصمت الذى كان يختفى وراءه فى فترة الخطوبة، اكتشفت أنه لم يكن يريدنى كإنسانة مثقفة مهذبة، ولكنه فقط كان يريدنى كامرأة.. وقد عرف منذ الليالى الأولى أنى لا أستطيع أن أكون المرأة التى يريدوها.. واكتشفت أيضا أن هذه الشقة الفخمة البانخة الأثاث لم يؤثها لى، ولكنه أثنها ليصطاد فيها عملاءه الذين يتاجر معهم، أو يستفيد منهم فى تجارته.. ويوما بعد يوم، أصبح أكثر صراحة.. إن موائد القمار تمتد فى بيتى كل ليلة.. وزجاجات الويسكى.. وجوزة الحشيش.. ونساء لسن بالزوجات يصحبن الرجال.. وهو يريدنى أن أرضى بكل ذلك، بل أن أشترك فيه.. يريدنى أن ألعب القمار، وأن أسكر، وأن أدخن الحشيش، وأن أصادق هؤلاء النساء.. بل أكثر من ذلك.. يريدنى أن أكون سهلة مع أصدقائه الرجال.. أن أكون لطيفة.. دمي خفيف.. أتحمل غزلهم.. و.. واعترضت.. حاولت أولا أن أعترض فى هدوء.. أن أقنعه بأن هناك طريقا آخر للحياة أنظف وأجدى من هذا الطريق.. كنت أريد أن أقنعه بمتعة العقل.. إن العقل وحده يستطيع أن يحقق شيئا أكثر مما تحققه الشهوة، والغريزة الإنسانية البدائية السخيفة.. ولكنه كان يسخر منى ومن ثقافتى.. ويتهمنى بالبرود ويصفنى بثقل الدم.. وكنت أصرخ، فيصرخ أكثر منى.. إلى أن ضربنى مرة.. ضربنى لأنى أهنت رجلا من أصدقائه حاول أن يشد امرأة جاء بها فى إحدى هذه الليالى، ويدخل بها إلى فراشى.

ولم أستطع أن أهجر هذا الزوجة حتى بعد أن ضربنى،

## ■ الهزيمة ■

فلم يكن لى مكان أذهب إليه إذا تركته.  
كل ما فعلته أنى تعاليت عليه.. واجهته وواجهت أصدقاءه  
باحتمقارى.. وانزويت فى مكان ضيق من البيت أنا وكتبى،  
أقرأ.. وأقرأ.. ولا أعترض على شىء مما يجرى فى بيتى..  
ولا أطلب من زوجى شيئاً.. الشىء الوحيد الذى طلبته هو أن  
يسمح لى باستكمال دراستى الجامعية، بأن أعود إليك.. ولكنه  
رفض ساخراً.. وقال لى إن الأجدى على أن أتعلم كيف أكون  
امراًة.. ولم أرد عليه.. ولم أتمسك بالعودة إلى الجامعة، وأقنعت  
نفسى بأن الثقافة فى الكتب وليست فى الجامعة.. وبينى وبين  
هذا الزوج معركة رهيبة صامتة.. معركة بين كبرياء الإنسان  
المتقف وكبرياء الإنسان الغنى.. معركة بين الثقافة والمال..  
ولم أكن أحس بلحظات الهزيمة إلا عندما يأتى إلى ويطالب  
بحقه فى جسدى كزوج.. وأعطيه جسداً أبرد من لوح الثلج،  
أحس به يذلنى.. يهيننى.. يصفعنى.  
عزىزى أحمد.

فى هذه الأثناء بدأت أتصل بك فى التليفون.. كنت فى حاجة  
إليك.. كنت فى حاجة إلى إنسان من عالمى يشعرنى بأنى  
مازلت على قيد الحياة.. كنت فى حاجة إلى نافذة أفتحها وسط  
هذا الظلام البشع، ليطل على من خلالها قبس من النور  
النظيف.. نور العقل والروح.. وكنت أنت هذه النافذة.. وقد  
تذكرتنى منذ مكالمتنا الأولى.. هل تذكر.. كأنك كنت دائماً فى  
انتظارى.

وتعددت مكالماتنا فى التليفون كل يوم نتحدث.. أناقشك  
فيما أقرؤه.. وأطير معك فى عوالم الثقافة.. ولكن.. لم يكن هذا  
كافياً، كان لابد أن نلتقى.. وأنت تلج على لأحدد لك موعد  
اللقاء.. وأنا أرفض فى رفق.. ولم تكن تدرى كم أتعذب وأنا

## ■ الهزيمة ■

أرفض.. وكم أدفع من أعصابي ثمنا لإرادتي.. لقد كنت أيامها أحبك.. أحبك حبا كاملا، وعندما كنت فتاة كنت أنت أحبك بعقلي، وخيالي، وعواطفى.. ولكنى بعد أن تزوجت أصبحت أحبك بجسدى أيضا.. إن الزواج يربط الجسد بالعاطفة.. والعاطفة بالجسد.. ليست هناك امرأة تستطيع أن تحب بعواطفها فحسب.. إن الفتاة بعد أن تصبح امرأة لا تستطيع أن تفصل خيالها عن واقعها.. لأنه لا يصبح هناك شىء من التقاليد ولا من الإحساس الفسيولوجى يفصل بينها وبين الواقع، وهكذا كنت أحبك.. خيالى وواقعى.. كنت أريدك أن تعطينى كل ما حرمنى منه هذا الزوج، العقل، والقلب.. والجسد.. وبرغم ذلك قاومت، لأن استسلامى كان معناه هزيمتى.. هزيمة كبريائى.. كان معناه أنى لم أعد أفضل من هذا الزوج الذى احتقره.. كان معناه أن كل ما يفصل بينى وبينه هو اختلاف فى المزاج لا اختلاف فى المبادئ وفى المستوى الثقافى.

وكان زوجى قد بدأ يسافر كثيرا إلى الخارج، ويغيب فى كل مرة شهرا وشهرين.. ورغم ذلك كنت أرفض أن أذهب إليك.. وأنت صابر يا حبيبى.. لا تملنى.. وتعطينى من روحك قوة أستعين بها على حياتى.

إلى أن عاد زوجى مرة من الخارج.. وجاء إلى.. وأسلمته هذا الجسد البارد، وأنا احتقره وأزدريه.. وفجأة انتفض بعيدا عنى وهو يصرخ ويعلن فى وجهى خطة انتقامه الرهيب.. إنه لن يعود إلى.. سيتركنى.. ولكنه لن يطلقنى حتى لا يتزوجنى رجل آخر.. وسيترك لى هذه الشقة، ويدفع إيجارها.. ولكنه لن يدفع أكثر من ذلك.. سيتركنى أعول نفسى.. ولنر إذا كانت ثقافتى ستنفعنى.. وقبل أن يخرج من البيت جمع كل مصاغى وكل قرش، وأخذه معه.

## ■ الهزيمة ■

خطة دبرها صاحب مال، يريد أن يخنقنى بحاجتى إلى المال.  
وقد قلت لك كل ذلك فى التليفون.. وكنت رقيقا حنونا  
ورجوتنى أن أعتبرك مسئولا عنى إلى أن أستطيع أن أدبر  
أمرى.. وعرضت على أن ترسل لى مبلغا من المال.. ولكنى  
رفضت.. قلت لى أن أعتبر المبلغ على سبيل القرض، ولكنى  
رفضت.. وقلت لى وأنت تحتد احتداد إنسان يحب، إنه لا يعقل  
أن تحبنى وأحبك، دون أن أعتبرك رجلى المسئول عنى.. ولكنى  
رفضت.

وبدأت أواجه أياما غريبة.

إنى أقيم فى شقة فخمة، وفى أرقى حى من أحياء القاهرة،  
وليس معى ولا قرش.. كيف أكل.. وكيف أذفع حساب  
التليفون، والنور، وبائع الصحف.. و.. و.. أشياء كانت تبدو  
صغيرة فى حياتى، أصبحت مشاكل ضخمة.. معضلات.  
واقترضت من صديقتى فتحية التى تقيم فى الشقة  
المجاورة، عشرة جنيها.

وبعد أيام وجدت فى البيت بضع زجاجات الويسكى التى  
تركها زوجى وراءه، فأعطيها لفتحية.. وأعطتني ثلاثين جنيها  
بعد أن خصمت العشرة جنيها التى أقترضتها منها.  
وأنا حائرة.. يائسة.. ولم أكن أستطيع وسط هذه الحيرة  
البائسة أن أستمر فى مقاومتك.. فى مقاومة نفسى.  
ذهبت إليك.

ولم تكن فى حاجة إلى مقدمات.. لقد استمرت المقدمات  
بيننا أكثر من عامين.. وكان توتر أعصابى كفيلا بأن يدفعنى  
إليك كلى.. أعطيتك نفسى منذ اللقاء الأول.. لا.. لم أعطك  
نفسى، بل أخذتك، فربما كنت فى حاجة إليك، أكثر من حاجتك  
إلى.

## ■ الهزيمة ■

وقبل أن أنصرف من بيتك.. لمحتك تدير ظهرك وتخرج  
محفظتك وتلتقط منها مبلغا من المال، وتدسه فى حقيبتى..  
لمحتك.

وأحسست بتيار بارد كريح الثلج يسرى فى عروقى كلها..  
ولكنى سكت.  
لم أتكلم.

حملت حقيبتى كأنى لم ألمح شيئا.. وتركتك تقبلنى على  
جيبنى البارد، وخرجت عائدة إلى بيتى، وفى كل خطوة تكتمل  
فى خيالى صورة بشعة لنفسى.. خط بعد خط يرسمه خيالى  
حتى اكتملت الصورة.. صورة مومس.. نعم صورة مومس..  
امرأة تبيع جسدها.. وصدقنى أنى حاولت كثيرا أن أبعد هذه  
الصورة عن خيالى.. حاولت أن أقنع نفسى بأنك تحبنى، ولأنك  
تحبنى فأنت مسئول عنى كزوجى وأكثر.. وحاولت أن أقنع  
نفسى بأن ما أعطيته لى هو مجرد قرض.. حاولت كثيرا..  
ولكن عيئا.. صورة المومس تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر..  
لقد ذهبت إليك وأنا إنسانة مثقفة وزوجة التاجر الكبير  
عبدالقادر عبدالله، وخرجت من عندك.. مومسا.

ووصلت إلى بيتى وانكفأت على وجهى أبكى.  
بكى كثيرا.

بكى الإنسانة المثقفة التى فقدتها.

بكى كبريائى وعنادى.

بكى هزيمتى أمام الزوج الذى أكرهه.

وأفقت من بكائى وفى رأسى قرار حاسم.. لن أراك بعد  
اليوم.. لا أريد أن أراك كمومس.. ولم يكن هناك شىء يستطيع  
أن يقنعنى يومها بأنى لست مومسا، وأننى فقط امرأة فى  
حاجة إلى معاونة حبيبها.



### ■ الهزيمة ■

كنت أعرف أنى لن أذهب إليك بعد اليوم إلا وأنا أشعر  
بحاجتى إلى النقود، وأنت تشعر بواجبك الذى يحتم عليك  
إعطائى النقود.. ستظل النقود بيننا عنصرا من عناصر حينا..  
أو علاقتنا.. ولم يكن هذا فى حسابى أبدا.. لم أحبك أبدا وأنا  
أشعر بحاجتى لأن تنفق على.. كنت أحبك وأنا أشعر بحاجتى  
إلى ثقافتك، وإلى رجولتك.. وإلى حنانك.. ولن أذهب إليك أبدا  
وأنا فى حاجة إلى مالك.. إنى لا أحبك وأنت تعطيتنى مالا.. إنك  
تجرحنى.. تهيننى.. لا تقل لى أن أعتبرك زوجى، فأنت لست  
زوجى.. إن الزواج ليس علاقة بين شخصين.. ولكنه علاقة مع  
مجتمع.. مجتمع يسمح للرجل أن ينفق على المرأة.. وأنت وأنا  
ليس لنا مجتمع.. إننا نختبئ من المجتمع.. والمجتمع لا يسمح  
لك أن تنفق على إلا إذا اعتبرنى مومسا.. امرأة تبيع جسدها..  
وأنا لا أريد أن أكون مومسا.. لا أريد.

ولن أراك بعد اليوم.

وعندما اتصلت بى فى التليفون تسألنى لماذا لم أتصل بك،  
قلت لك فى صوت مبحوح خطير، كأنه بقايا روحى :

- أرجوك.. لا تتصل بى بعد الآن.

وسمعتك تقول كلاما كثيرا.. ثم تردد.. مجنونة.. مجنونة.

وتعود تقول كلاما كثيرا.

وأنا صامته.

وأعدت السماعه إلى مكانها.

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سمعت صوتك فيها.

وبرغم ذلك.. فقد أنفقت النقود التى أعطيتها لى.. كنت فى

حاجة إليها.. كم أعطيتنى.. خمسين جنيها على ما أذكر.. وقد

صرفتها فى أقل من شهر.. وعدت واقترضت من صديقتى

فتحية.. وأنا أعيش حياتى كالمشلولة، ولا أدرى كيف أتصرف..

## ■ الهزيمة ■

ولا ماذا أفعل.. أفكر فى أن أعمل.. وفى أن أدرس.. ولكنى لا أعمل شيئاً، ولا أدرس شيئاً.. وفتحية تعرف عنى كل شىء.. وتعرف أيضاً قصتى معك، وقد حاولت كثيراً أن تقنعنى بأن أعود إليك، على الأقل إلى أن أحل مشكلتى مع زوجى.. ولكنى أرفض فى عناد وفى كبرياء.. وأنت قد أخذت العزة بنفسك بعد أن قطعت حديثك فى التليفون، فلم تعد تحاول أن تتصل بى.. وزوجى لا أدرى مكانة، ومكتبه يتولى دفع إيجار الشقة كل شهر.. فقط إيجار الشقة.

ودعتنى فتحية إلى قضاء السهرة عندها.. وكان هناك رجل وسيم مهذب.. أخذت فتحية تروى أمامه قصة زوجى معى.. وهو يواسينى.. ويقترح على الحلول.. ثم اتصل بى بالتليفون فى اليوم التالى.. و.. و.. ولا أطيل عليك.. ذهبت إلى لقائه.. واستسلمت وأنا مذهولة.. لم أكن أدرى أيامها أين أقف، ولا ما هى مبادئى، ولا ماذا أقاوم من أجله.. وفى نفس اللحظة الجارحة.. اللحظة التى انتهى فيها منى، وبدأت أرتدى ثيابى.. لمحتة كما سبق أن لمحتك.. لمحتة يفتح محافظته، ثم يدس فى حقيبتى مبلغاً من المال.

وخرجت من بيته وخيالى يرسم لى نفس الصورة.. وخط وراء خط واكتملت الصورة.. صورة المومس.. والصورة تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر.. وانكفات على فراشى أبكى.. ورفضت فى عناد عجيب أن أذهب إلى لقائه مرة أخرى.. وبرغم إلحاحه وتوسلاته، وبرغم كل محاولات صديقتى فتحية فى إقناعى.. لقد ذهبت إليه وهو يعتقد أنى إنسانة مثقفة وحرمة التاجر الكبير عبدالقادر عبد الله، ولن أعود إليه كمومس.. وبرغم ذلك أنفقت النقود التى أعطاه لى.. كم أعطانى..

## ■ الهزيمة ■

أربعين.. ربما كان ينوى أن يعطينى خمسين، ثم اختصر عشرة جنياهات فى آخر لحظة.

و..

كم رجل.

كثيرون.. ولم أكن أقابل الواحد منهم إلا مرة واحدة.. كل منهم أذهب إليه كزوجة تخون زوجها، ثم أرفض أن أعود إليه كمومس.. ولم أكن أذهب إلى واحد إلا بعد أن تنتهى النقود التى أخذتها من الذى قبله، وبعد أن أقترض من فتحية عشرة جنياهات.. وفتحية تقول عنى إنى مجنونة.

وكنت لا أزال أقرأ وأقرأ.. ولكنى لم أعد أحس بأنى محترمة وأنا ممسكة بالكتاب كما كنت أحس دائماً.. لم أعد أحس بأنى من عائلة أرسطو وهكسلى وسارتر.. حتى هذه العائلة فقدتها.

يتيمة.. بلا عائلة.. وبلا مال.. وبلا زوج.. وبلا ولد.. وبلا حبيب.. بلا أحد يحترمنى وأحترمه.. حتى نفسى لا أحترمها ولا تحترمنى.. وانطلقت أضحك ضحكات مجنونة.. لقد هزمت.. هزمت منذ زمان طويل، وهزمت أمام صاحب المال.. المثقف هزيمته حاجته إلى المال.. وقسوة الإنسان الغنى، هزمت كبرياء الإنسان المثقف.. وبسرعة جريت إلى التليفون، واتصلت بمدحت درويش.. إن مدحت كان أكثر أصدقاء زوجى إعجاباً بى، وأكثرهم جرأة على مغازلتى، وكنت أصدده وأحشره.. وكان زوجى يجن كلما صدده.. إنه موظف كبير.. صاحب نفوذ.. فكيف أعامله هذه المعاملة.. لن أعامله هذه المعاملة.. وضحكت له نى التليفون، ودمعته لقضاء السهرة معى.. فى بيتى.. وذكرته بأن يأتى معى بزجاجة ويسكى..

وجاء مدحت.

وزجاجة الويسكى.

### ■ الهزيمة ■

ولم يترك لى شيئاً فى حقيبة يدي قبل أن يتركني، ولكنه  
اقتنع بأن زوجي يجب أن يعود إلى وتعهده بأن يعيده.. وقهقهه  
قهقهة عالية فظيعة وهو يقول : هو جوزك حايلاقى واحدة  
زيك فين.

وعاد الزوج.

وعادت مائدة القمار، وزجاجات الخمر، وجوزة الحشيش،  
والنساء اللاتي لسن زوجات.. وأنا أشارك فى كل ذلك.. ألعب  
القمار، وأدخن الحشيش، وأسكر.. و.. كل شيء.

إنى أعيش فى هزيمتى.

وزوجي يعيش فى انتصاره.

شيء واحد حميته من هزيمتى ومن انتصار زوجي.. حبي  
لك، حميته بابتعادى عنك.. فقد أحببتك كما كنت، منتصرة..  
لا كما أصبحت، مهزومة.

عزيزى أحمد :

الآن.. وبعد خمسة عشر عاما.. لعك تستطيع أن تفهمنى.

وشكرا لأنى رأيتك.

وشكرا لأنك لم ترنى.

## لا تذبخوا الفراخ ..

لا تقتربوا منى.

أنا مجنون.

وجنوني قاتل

ولكنى اختلف عن بقية المجانين بأنى أعرف

أنى مجنون.. وأعرف بالضبط متى أصبت بالجنون.. إنه جنون من النوع المتقطع.. فترات تمر بى، ثم أفيق منها، وأعود إنسانا عاقلا يستطيع أن يناقش جنونه ويدرسه ويعرف أسبابه، وإن كان لا يستطيع أن يقاومه.

متى جننت ؟

فى الحادية عشرة من عمري.. منذ حوالى الثلاثين عاما.. وبرغم أن جسمى أيامها كان يبدو أضخم وأكبر من عمري، إلا أنى كنت صبيا رقيقا خياليا.. كنت أهوى الرسم.. وأقضى معظم أوقات فراغى أرسم هذه الرسوم الساذجة التى يرسمها الأطفال.. وكنت أحب أن أجلس مع جدتى، أستمع منها إلى

■ لا تذبحوا الفراع .. ■

حكاياتها الحلوة المثيرة.. وكنت أجرى إلى أبى كلما وقف للصلاة لأصلى خلفه، وأحاول أن أقلده فى صوته وحركاته.. كنت طفلا يملأ السلام قلبه وخياله.

وكنا أيامها نقيم فى حارة نصير بالعباسية.. وأذهب أنا وثلاثة من أبناء الحارة إلى مدرسة السلحدار الابتدائية التى تقع عند بوابة الفتوح ملاصقة لجامع الحاكم بأمر الله.. وكنا نذهب إليها سيرا على الأقدام برغم بعد المسافة.. مسافة طويلة نقطعها فيما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة.. وكان يجب أن نمر فى طريقنا بشارع الحسينية.. الشارع الذى يشق الحى الشعبى العريق.. وكان صبية حى الحسينية يعتبرون كل تلميذ يمر بهم مرتديا بدلة، وفى قدمه حذاء، وعلى رأسه طربوش.. كانوا يعتبرونه غنيمة لهم.. فيجرون وراءه ويخطفون طربوشه أو يضربونه عليه حتى يبسطوه، ولا يتركونه إلا فى نهاية الشارع عندما يصل إلى بوابة الفتوح.

وكنت أنا وزملائى لا نكاد ندخل شارع الحسينية فى طريقنا إلى مدرستنا، حتى تمتلىء قلوبنا بالرعب من صبية الحى.. ونسير فى خطوات مرتجفة حذرة، ملتصقين بالجدران، ونحن نتلفت حولنا حتى إذا لمحنا الصبية يهجمون علينا التجأنا إلى أقرب دكان أو إلى أقرب مقهى نحتمى بصاحبه ونحن نصرخ :

– والنبى يا عم.. حوش عنا العيال يا عم.

وكان صاحب الدكان أو المقهى يحمينا فعلا، ويطرد الصبية من ورائنا.. ثم نعود نسير فى خطواتنا المرتجفة الخائفة، حتى

■ لا تذبحوا الفراح .. ■

نحتمى فى دكان آخر أو فى مقهى آخر.. وهكذا من دكان إلى دكان، ومن مقهى إلى مقهى، حتى نصل إلى المدرسة.. وبرغم هذا.. لم نكن دائما نصل سالمين.. كنا كثيرا ما نصل وطرايبشنا مبططة أو مفقودة، وثيابنا ممزقة.

وكانت أخطر المناطق التى نمر بها فى شارع الحسينية، هى منطقة ضريح سيدى البيومى، وهى تقع فى النصف الأول من الشارع، من ناحية العباسية.. كان أولاد البيومى هم أشرس أولاد الحسينية، وأكثرهم تحديا وحقدا على أولاد العباسية.. ربما لقرب حيهم من حيننا.. ولأنهم كانوا - حتى الأطفال - ينفسون عن حقد طبقى يلح عليهم.. فأولاد البيومى كلهم من أولاد البلد.. أولاد صغار الباعة، والعمال، والعاطلين، بينما أولاد العباسية أغلبهم من أولاد الموظفين، وضباط الجيش، والتجار.. صغارهم وكبارهم.. فقد كانت العباسية تنقسم إلى حيين. الحى الشرقى ويسكنه كبار الموظفين وكبار الضباط وكبار التجار، والحى الغربى ويسكنه صغار الموظفين، وصغار الضباط، وصغار التجار.. وتقع فيه حارتنا.. حارة نصير.

وكنا نعود من المدرسة فى المساء ونجتمع بأولاد حارتنا، ونروى لهم ما حدث لنا فى يومنا مع أولاد الحسينية، وخصوصا أولاد سيدى البيومى. وبدأت اجتماعاتنا فى الحارة تتخذ شكل مجلس أعلى يضع خطة لحماية أئتنا أثناء ذهابنا إلى المدرسة وعودتنا منها.

وقد اقترحت أن نذهب ونقابل المعلم إبراهيم عرا فتوة

■ لا تنبجوا الفراع .. ■

الحسينية ونطلب حمايته لنا.. ورد ابن حارتنا، محمود  
حسنيين :  
- ما ينفعش.  
وقال واحد منا :  
- آمال إيه اللي ينفع ؟  
وقال محمود حسنين وهو يشوح بيده :  
- نحاربهم.  
ولفتنا سحابة من الوجوم والصمت.  
وصرخ محمود :  
- احنا خايفين ليه.. إذا كانوا هم ولاد الحسينية برضة احنا  
ولاد العباسية.  
وهل أولاد حارتنا.. وانطلق الحماس من حناجرهم.  
وكان محمود أكبرنا سنا.. إنه فى الخامسة عشرة من  
عمره، وهو ابن الحاج حسنين صاحب المخبز البلدى الذى يقع  
فى شارع رضوان شكرى، وهو الشارع الذى تتفرع منه  
حارتنا.. وكان محمود يسيطر علينا جميعا.. لا لأنه أكبرنا  
وأقوانا، ولكن لأنه أيضا شديد الذكاء، لا يكف عن ابتكار  
المشروعات التى يشركنا فيها جميعا.. أقام مرة مشروعا لخيال  
الظل، وكان هو بنفسه الذى يحرك الدمى خلف الشاشة، وكان  
يتقاضى من كل واحد منا مليما اجرا لمشاهدة خيال الظل..  
وفى مرة أخرى حصل على أدوات صنع الدندرة، وصنعها  
بنفسه وأخذ يبيعها لنا.. لم يكن رأسه يكف عن المشروعات..  
وكان مشروع إعلان الحرب على أولاد الحسينية هو واحد من  
هذه المشروعات.



■ لا تذبحوا الفرائخ .. ■

وذهب محمود ومعه بعض أولاد الحارة إلى الحسينية،  
وقابلوا شلة الصبية المتجمعين عند ضريح سيدي البيومي..  
طبقا لتقاليد الفتوات الكبار.. وقالوا لهم :  
- اطلعوا لنا برة.

ورضى أولاد سيدي البيومي أن «يطلعوا برة».. أى فى  
أرض لا يملكها أحد.. لا هى أرض الحسينية ولا أرض  
العباسية.. واتفقوا على أن يلتقى الجيشان.. جيشنا وجيشهم..  
فى مكان يسمى «أرض العيون» يقع فى صحراء العباسية..  
وذلك فى يوم الجمعة عقب الصلاة.

وبدأ محمود يتولى القيادة، ويضع الخطط.. وأخذنا معه إلى  
أرض العيون، وحدد المكان الذى سنبدأ منه هجومنا.. وجمع  
قطع الحجارة فى أكوام وغطاها بالرمال حتى لا يكتشفها  
العدو.. ثم بدأ يدرينا على استعمال «المقلاع» الذى تقذف به  
الحجارة من بعد كبير.. وأخيرا جمع بعض العصى الغليظة  
وأخذ يشق كل عصا من طرفها ويثبت فيها قطعة من حجر  
البازلت الثقيل ويربطها بقطع من القماش، وخيوط من السلك،  
فتصبح كبلطة من التى كان يستعملها الإنسان الحجرى، أو  
التى يستعملها الهنود الحمر الذين نراهم فى أفلام رعاة البقر.  
وكان إحساسى حتى هذا اليوم احساسا سلبيا، لم أكن  
أشعر بحماس ولا بفتور.. ولم أكن أتصور نفسى عندما يبدأ  
القتال.. ولم أكن أدرى كيف أتصرف.. كنت فقط أزامل أولاد  
الحارة فى كل ما يفعلونه لمجرد إحساسى بأنى ابن الحارة.  
إلى أن وضع محمود فى يدي إحدى «البلط» التى صنعها..

■ لا تذبحوا الفـراخ .. ■

وقد اختارنى فى فرقة حملة البلط لانى - كما قلت - كنت أبدو  
أكبر وأضخم من سنى.

وما كاد محمود يترك البلطة فى يدى حتى احسست بها  
تأخذنى معها.

تشدنى إليها.

وأحسست بأصابعى تلتف حول مقبضها، فى قوة، كأنها  
التصقت بها.. أحسست أنى لن أستطيع أبدا أن أفك أصابعى  
من حولها.. ليست أصابعى هى التى التفت حول البلطة..  
ولكنها البلطة التى جذبت أصابعى إليها ولفتها حولها، كأنها  
مغناطيس.

وأحسست بشىء يتحرك فى صدرى.

لا أدرى ما هو.

كأنه عفريت كان نائما ثم بدأ يستيقظ.. ويتثاءب.. إنى أكاد  
أسمع صوت تثاؤبه.. أكاد أراه وهو يمد ذراعيه داخل صدرى،  
ويتمطى.. لعل هذا العفريت كان نائما فى صدرى منذ ولدت..  
منذ ولد الإنسان.

وفجأة رفعت البلطة إلى أعلى وضربت بها الفضاء.

لا..

أقسم لكم أننى لم أرفع البلطة.

هى التى رفعت ذراعى.

هى البلطة.

وأصابعى ملتفة حولها لا تريد أن تتركها.. لا تستطيع..  
حتى عندما ذهبى لأنام ظلت ملتصقة بأصابعى.. وكانت أحس

■ لا تذبخوا القراخ .. ■

بها - بالبلطة - تهزنى فى نومى إلى أن أستيقظ.. أستيقظ فعلا.. وتشدنى من فراشى.. وترفع ذراعى، ثم تهوى بنفسها فى الفضاء.. ثم أعود لأنام، إلى أن توقظنى البلطة مرة ثانية. وكان اليوم التالى هو يوم المعركة.

وجاء جيش سيدى البيومى.

واصطف جيشنا فى خطوطه.

وبدأ التقاذف بالطوب.

والبلطة فى يدي.

وهذا الشىء الذى فى صدرى يصرخ.

ثم فجأة وجدت البلطة تشدنى وتجرى.. تجرى بى.. تجرى

بى نحو خطوط الأعداء.

ورفعت البلطة ذراعى، ثم هوت بنفسها فوق رأس طفل من

أطفال البيومى.

لقد رأيت هذا الطفل.

رأيت بهيى.

رأيت قتيلا والدم ينزف من رأسه.

وأذكر أنى ضحكت.. أو أنى سمعت صوتا كالضحك..

ولا أدري أنا الذى كنت أضحك أم البلطة.. ولكنه كان ضحكا

كالصراخ.

ولا أذكر شيئا بعد ذلك.. أفقت وأنا فى فراشى أعانى من

حمى خطيرة، أرقدتنى أكثر من شهرين.

ولم يكن أحد قد أكتشف بعد أنى مجنون.



■ لا تذهبوا الفرائح .. ■

وقد انتقلنا من حارة نصير بعد معركة أرض العيون،  
وسكننا فى مصر الجديدة، وخصوصا أن أبى ارتقى أيامها إلى  
الدرجة الخامسة.. وخرجت من مدرسة السلحدار، والتحقت  
بمدرسة مصر الجديدة.

وأصبحت إنسانا هادئا.. أكثر هدوءا من شاب فى مثل  
سنى.. أصبحت منطويا.. نفورا من الناس.. لم يكن نفورا ولكنه  
كان أشبه بالخوف.. ولم أكن أخاف من الناس، بل كنت أخاف  
عليهم.. أخاف عليهم من نفسى.. لا أدرى لماذا.. ولكنى فعلا  
كنت أخاف عليهم إلى درجة أنى لم أحاول أن أتخذ صديقا..  
لم يعد لى أصدقاء.

وفى صدرى دائما شىء ثقيل.. نائم.. كأنه هذا العفريت  
الذى ولد معى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.. ولكنه نائم.  
إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمري.

وكنت أستعد لامتحان شهادة التوجيهية، وسمح لى أبى أن  
أذاكر على مكتبه.

وعلى مكتب أبى «فتاحة ورق» على شكل خنجر.. مقبضه  
يملأ الكف، وسلاحه رفيع حاد.

ولاحظت أن الخنجر ينظر إلى.

كان ينظر إلى فعلا.

وكنت أشيح عنه وجهى، ولكنى لا أكاد ألتفت حتى أراه

لا يزال ينظر إلى.. ويدعونى.. يدعونى إليه.. الخنجر.

وجذب الخنجر يدى نحوه.. وطوى أصابعى حول مقبضه..

ثم رفع ذراعى، وهوى بنفسه على خشبة المكتب.

■ لا تذبحوا الفسراخ .. ■

ولا أستطيع أن أفك أصابعي من حول مقبضه.. كأنها  
التصقت به بمغناطيس.. وهذا الشئ بدأ يتحرك في صدري..  
إنى أكاد أسمعُه يتنأب مستيقظا من النوم.. وأكاد أراه داخل  
صدري يمد ذراعيه ويتمطى.

وفجأة دخلت خادمتنا سنية إلى الغرفة.. وإذا بالخنجر  
يشدنى من فوق مقعدى، ويرفع ذراعى فى الهواء، ثم يهوى  
بنفسه على سنية.  
ورأيتها.

رأيتها تحت أقدامى والدماء تنزف منها.. وسمعت ضحكا..  
لا أدرى هل أنا الذى ضحكت أم الخنجر.  
ولكنه كان ضحكا كالصراخ.  
ولا أنكر شيئا بعد ذلك.

وأفقت وأنا صريع الحمى.. وعلمت أن سنية لم يقتلها  
الخنجر.. فقد أصابها فى كتفها وفى رقبته.  
وربما عرف أبى أيامها أنى مجنون.. ولكنه أخفى جنونى..  
أبت عليه كرامته، أن يعلن جنونى.. واستطاع أن يسوى  
الجريمة مع أهل سنية.. عالجها ودفع لها تعويضا.. وكان  
يقول لمن سمع الخبر إنى كنت مرهق الأعصاب من أثر  
المذاكرة، وأن سنية أثارتنى، ولكن أمى صممت أن تدعو الشيخ  
إدريس ليطرد عنى العفاريت التى تركبنى.

وجاء الشيخ إدريس.. وقرأ أوراده فوق رأسى، وأحرق من  
حولى البخور، ثم اختلى فى إحدى حجرات البيت ليلة كاملة  
وهو عار من كل ثيابه.. بلبوص.. ليس معه إلا مبخرة،  
وصينية عشاء فاخرة.

■ لا تذبحوا الفراخ .. ■

وخرج الشيخ إدريس علينا فى الصباح - بعد أن ارتدى ثيابه - ليقول لنا إن الجن تطلب منى أن أذبح فى كل يوم فرخة.. أن أذبحها بيدي.

إن كلام الجن لا يخلو من المنطق.. إنهم يريدون أن يداووننى بالتي كانت هى الداء.. يريدون أن يشفونى من ذبح الناس بأن يعودونى ذبح الفراخ.. منطوق. ولكنه منطوق فارغ.

إنهم لا يعلمون أنى لا أريد أن أذبح لا الناس ولا الفراخ.. أنا لا أريد أن أقتل.. السكين هى التى تريد أن تقتل.. البلطة هى التى تريد أن تقتل.. المسدس يريد أن يقتل.. الدبابة تريد أن تقتل.. القنبلة تريد أن تقتل.. الصاروخ يريد أن يقتل.. أما أنا فلا.. لا أريد أن أقتل.. صدقونى أننى لا أريد أن أقتل.

ولكن أمى الطيبة مقتنعة بكلام الشيخ إدريس، وتريدنى أن أذبح فى كل يوم فرخة.

يا أمى.. قليل من الذكاء.. لو أن ذبح الفراخ يعوض عن ذبح الناس، لكان معنى ذلك أن الحروب لا تقوم إلا لأن الناس لا تجد فراخا تذبحها.. ولكن الحروب تقوم.. ويذبح الناس بعضهم بعضا.. ويذبحون أيضا الفراخ والحمام والبط والخراف والجاموس.. والعصافير.

يا أمى يا طيبة.. لا تضعى فى يدي السكين.. أتوسل إليك.. لا تضعى فى يدي السكين.. إن السكين التى تذبح الفرخة تذبح أيضا الناس.. قد تذبح أبى.. أخى.. ابن عمى.. حتى أنت يا أمى، قد تذبحك السكين التى تذبح الفرخة.

■ لا تذبحوا الفساح .. ■

إنها سلاح يا أمى.  
والسلاح يطول.. كما يقول الناس.. السلاح يطول، حتى  
على صاحبه.



أنا الآن موظف.  
ولا أحد يدري بجنونى.  
وفى كل صباح أنظر إلى الجندى الذى يقف على باب  
الوزارة، وقد علق مسدسه على جانبه، نظرة إعجاب وتقدير..  
بل تقديس.  
إنه بطل.  
بطل كبير.  
لا لأنه يحمل سلاحا..  
ولكن لأنه لا يستعمل سلاحه.  
إنه بطل لأنه يملك سلاحه، وليس سلاحه هو الذى يملكه.  
وأنا خائف.  
خائف دائما.  
خائف على الناس.. من جنونى.

■ ١٥٠ ■ علبة من الصفيح ■

## صائد الفزّال ..

ابنى محمود فى السابعة عشرة من عمره،  
وبرغم ذلك فهو زير نساء.. دون جوان..  
فالتينو.. عمر الشريف.. وأراه كل يوم يقف أمام  
المرأة، يسبب شعره.. ويستعرض عضلاته..

ويهدم ثيابه.. ويدق جرس التليفون، وأسمع صوت صبية  
صغيرة.. أقدر أكرم محمود من فضلك.. وينتفش صدرى  
كالديك الرومى فرحا بابنى محمود.. وأرفع صوتى كأنى أسد  
يزار، وأصيح به.. تليفون علشانك يا محمود.. ثم أقف لأسمعه  
يحادث البنت فى خيلاء.. إنه واد تقيل يحادث البنات كأنه  
ربهن الأعلى.. ولكن محمود لا يتركنى أتمتع بسماع حديثه  
طويلا، إنه يأخذ التليفون، ويختفى به فى غرفته، ويغلق الباب  
وراءه.

إنى فرح بمحمود.

فرحتى بشبابى.

أنا أيضا كنت فى شبابى، زير نساء،.. دون جوان..



فالتينو.. ولكن.. كانت مهمة الزير، أو الدون جوان أصعب على أيامي.. لم يكن عندنا تليفون.. ولم تكن البنات قد خرجن إلى المصانع والمكاتب والجامعات.. ولم تكن البنات تذهب إلى السينما وحدها.. أبدا.. إن الدون جوانية هذه الأيام هواية سهلة، كقزقة اللب. أما على أيامنا فكانت تتطلب ذكاء وصبرا، وحرفة.. كان صيد البنت أصعب من صيد الأسد!

وكننت في شبابي أسكن في حي الدراسة.. وكانت لي ميزة كبيرة على جميع شبان الحي.. فقد كنت ساقط بكالوريا.. مثقف يعنى.. وكننت موظفا في وزارة الأشغال.. كاتب أرشيف.. وكننت أرئدى بدلة وطربوشا.. أفئدى يعنى.. ثم إنى كننت وسيماء، أنيقا، فهلويا.. كننت أملا كبيرا لكل بنت من بنات الحي.. ولكنى لم أكن أصطاد في حيناء.. عيب.. ما يصحش.. على أيامنا كان الشاب يغار على بنات الحي كلهن غيرته على أخته، وعلى أمه.. فلا يسمح لنفسه بأن يتعرض لهن.. ولا يسمح لغريب.. الغريب الذى يتصدى لبنت من بنات الدراسة، وقعته سوداء.

كانت أماكن الصيد المفضلة عندى هي شارع الموسيقى، والغورية وبين الصورين، ثم شارع الأزهر.

وكانت الجميلات على أيامنا يختبئن في الملاءات اللف.. كل بنات هذه الأحياء كن يلبسن الملاءة اللف.. وكان هناك كثيرات من جميلات الأحياء الأخرى يفدن على الموسيقى والغورية وهن مرتديات الزى الإفرنجى.. الفستان.. والبالطو.. ولكنى كننت دائما - ومازلت - أفضل الملاءة اللف.. الملاءة اللف لها طعم آخر.. إنها شىء كقشرة الموزة المعسلة.. فيها رخاوة.. وفيها أنوثة.. أنوثة ناعمة.. سايحة.. وفيها إثارة الكنز المخبأ الثمين..

الملاءة اللف هي المرأة.. المرأة بكل ما فيها من سحر.. وروعة..  
 وغموض.. وأحلام.. إنها تلف القمر فى سواد الليل.. تلف النور  
 فى الظلام.. يا أرحم الراحمين.. أموت فى اللف.. واللف يتعب..  
 وقد كنت أتعب كثيرا.... كنت أمشى وراء البنت ساعات..  
 وأحيانا أياما.. أدخل من دكان إلى دكان.. ومن شارع إلى  
 شارع.. ومن حارة إلى حارة.. وعيناي الظامئتان لا ترتويان  
 من الجسد الملفوف الذى يتلوى أمامى.. والملاءة مشدودة حوله  
 تبرز كل خط فيه.. والذراع البضة تطل منها حيناً، وتختفى  
 حيناً كأنها عمود من نور البرق يشق كبد الليل.. والكعبان  
 يرقصان فوق الشبشب المطرز كأنهما كعبا غزال.. رقيقان..  
 مشربان بالحمرة.. شهيان كقلب التفاحة.. يتاكلوا أكل..  
 يا باشا.. يا أرض احفظى ما عليكى.. يا خويا رد علينا..  
 يا جميل ارحم.. وبعدين معاك يا واد يا تقيل.. و.. وكل كلمة  
 من هذه الكلمات لها معنى خاص، وتوقيت خاص.. ومناسبة  
 خاصة.. إنك لا تستطيع أن تلقى الكلام هكذا جزافا لمجرد أنك  
 تحفظه أو لمجرد أنك وقح.. لا.. إنك بذلك كأنك تطلق الرصاص  
 فى الهواء، فيفر الغزال.. كل كلمة لها معنى، ولها مناسبة..  
 «يا باشا» غير «يا جميل».. و.. «ارحم بأة» تقال فى مناسبة  
 تختلف عن «التقل صنعة».. والصياد الماهر هو الذى لا يطلق  
 الرصاص إلا فى المليون.

وكانت كل رصاصاتى تصيب.

وكنت أتلقى الجواب من حركات الملاءة اللف.. إن الملاءة  
 اللف لها لغة خاصة.. ولها قاموس خاص.. يحتفظ به  
 المتخصصون فى صيد الغزال من أمثالى.. علم واسع، يحتاج  
 إلى دراسة وخبرة وصبر طويل.

■ صائد الغزال .. ■

هل تريد أن تعلم شيئاً من قاموس الملاءة اللف؟  
اسمع يا سيدى.  
إذا فردت البنت ملاءتها بذراعها الأيمن ثم عادت وضممتها  
حول جسدها.. فمعنى هذه الحركة.. حصلنى.  
وإذا رفعت يدها وشدت طرف الملاءة من فوق رأسها،  
فمعنى هذا.. كلامك على رأسى.  
وإذا ضمت الملاءة على صدرها بكلتا ذراعيها وبحيث تخفى  
بها كل صدرها، فمعنى هذا .. أبويا ورايا.  
وإذا رفعت يدها، وعدلت عروسة البرقع فوق أنفها، فمعنى  
هذا.. أنت فى عنية.  
وإذا طرقت بكعب الشبشب أثناء سيرها.. فمعنى هذا..  
وقعتك سودة.

و..

كل حركة، إشارة لها معنى.

إنه قاموس.

علم واسع.

والله أعلم.

ولم يحدث لى إطلاقاً أن طرقت كعب الشبشب فى وجهى..  
أبدا.. بعد كلمة أو كلمتين، تطلق على البنت سهم عينيها، وما  
تكاد تلمحنى حتى تفرد ملاءتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى..  
بعض البنات كن لا يحتملن كلمة والثانية.. وبعضهن كن  
يعذبننى وراءهن ساعة وساعتين.. وأحياناً يوماً ويومين..  
والصبر يا جميل جميل.. وينتهى صبرى دائماً بأن تفرد البنت  
دائماً ملاءتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى.  
وأحصلها.

تسير فى شارع الموسيقى وأنا وراءها، حتى نصل إلى  
ميدان العتية الخضراء.. وكان ميدان العتية على أيامنا هو بر  
الأمان.. تستطيع فيه البنت أن تتحرر من تحفظها بعيدا عن  
أعين تجار الموسيقى والغورية، وحماشة أولاد البلد.. وتسمع  
لى بأن أسير بجانبها.. ونركب عربة حنطور - أو تاكسى - إذا  
كنا فى أول الشهر.. أو ندخل حديقة الأزبكية.. وفى الجبلية  
أمان من العوائل، وعسكرى البوليس.. ثم أنا وبختى.. يا طلعت  
على ما قسم، يا إما جميلة دمها خفيف وقرفتها خفيفة  
وبحبوحة.. لقد وقعت لى قطع فى منتهى الجمال.. غزلان  
يا بنى.. غزلان.. وأنا الصياد.. صياد الغزال.  
إلى أن وقعت فى قسمتى، نفيسة.  
شى الله يا ست.

اللهم اجعل كلامى خفيف عليها.

رأيتها أول مرة فى شارع الموسيقى أيضا.. قوامها صغير..  
زى اللعبة.. والملاءة اللف تلتف حولها كأنها ستأكلها أكلا..  
وجسدها مشفى من غير عضم.. ومشيتها.. يا أرض احفظى  
ما عليكى.. كأن كل قطعة منها تمشى وحدها.. صدرها  
يسبقها.. وعجزها يجرى خلفها.. وعندما لمحت عينيها تطلان  
من فوق البرقع خيل إلى أنى أصبت.. إيه ده يا جدعان.. دول  
مش عيينين دول.. دول نجوم.. دول دنيا.. عالم.. تهت فى  
عينيها يا رجال.. خدينى وراكى يا ست قبل ما أتوه.  
ومشيت وراءها.

وأطلقت أول رصاصاتى.. هدى الخطوة يا جميل.. ثم  
رصاصة أخرى.. وبعدين معاك بأة، تعبنا.. ورصاصة ثالثة..  
ورابعة.

ولا حركة.

ولا إشارة.

مشيت وراءها شارع الموسيقى كله إلى أن وصلت إلى ميدان الحسين، ثم انحرفت إلى الباب الأخضر.. واضطرت أن أقف.. فالمنطقة التي تقع فيما وراء الباب الأخضر لا تصلح للصيد.. إنها منطقة تحتلها شلة من الفتوات، مرهوبى الجانب. وعدت يائسا.

ولكنى فى اليوم التالى لمحتها.. نفيسة.. فى شارع الموسيقى.. فى نفس الموعد.. رب صدفة خير من ميعاد.. ومشيت وراءها.. برضه كده يا جميل.. هم علموك التقل ده قين.. أموت يعنى ولا أموت.. يا واد بحبها شوية. ولا حركة.

ولا إشارة.

إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.

وعدت وأنا مصدوم.

وفى اليوم الثالث.

يا خويا ارحم بأه.. والله ما بنام الليل.. و..

ولا حركة.. ولا إشارة.. إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر..

الباب الأسود.. الباب المهيب.. وعدت وأنا أشعر بأنى أهنت.. بأه

بت مفعوصة زى دى تغلبك الغلب ده كله.. عيب عليك

يا حسنى، يا صياد الغزال.

واليوم الرابع.

والخامس.

أسبوعين.. ثلاثة.. وقد أصبحت المسألة خطيرة.. البت

جفنتنى بجد.. ما بنامش واللى خلقك.

ثم كان يوم.

ومرت نفيسة.. تأخرت يومها قليلا.. ومشيت وراءها وأنا  
أشعر بأنى قد فقدت الثقة فى نفسى.. صوتى ضعيف منك..  
وعيناى الوقحتان ماتت فيهما الوقاحة.. وأمشى كأنى منساق  
وراء قدرى.. اتأخرت ليه النهاره يا جميل.. يا جميل يا أبو قلب  
قاسى.. ارحم يا سيد الراحمين.. ولا يعنى أموت.  
وفجأة..

فردت نفيسة ملاءتها بذراعها اليمنى وعادت وضممتها.  
جاءت الإشارة.  
حصلنى.

أحصلك لآخر الدنيا يا دنيا.. يا ترى آخرة الصبر ده كله  
إيه.

ورفعت نفيسة يدها ولمست عروسة البرقع.  
إشارة أخرى معناها : «أنت فى عنية».  
تسلم عنيكى يا ست الكل.. يا أحلى من الفل.. دوخنى  
يا بتاع الدوخة أنت.. قوللى على فين وأنا وراك.  
وعادت تفرد ملاءتها بذراعها اليمنى.  
حصلنى.

ما تخفش يا حته من جوة.. محصلك.  
ولم تتجه نفيسة إلى الباب الأخضر.. دخلت من الموسيقى  
إلى النحاسين.. ثم انحرفت إلى بيت القاضى.. وبين كل خطوة  
وأخرى تعطينى إشارة.. حصلنى.. يا خويا محصلك.. بس على  
فين.. وخيالى يسبقنى.. ربما أخذتنى إلى بيت صديقه من  
صديقاتها.. ربما كانت تعرف امرأة عجوزا تستطيع أن تأوينا  
ساعة شهد.. ساعة حظ.. آه يا نفيسة.. ده أنا حالكك أكل.

تخرج من حارة وتدخل حارة.. وعيناي مركزتان على  
ظهرها.. وكعبي قدميها.. وكل ثنية من جسدها.. والنار تشتعل  
فى عروقي.. علقى فى النار.. قلبى فى النار.. نار وقايدة  
يا جميل.. خلصنا بأه.  
وفجأة.

وأمام دكان بقال.

استدارت نفيسة إلى، وألقت بملاءتها من فوق رأسها ثم  
قذفت بفرده الشبشب من قدمها، والتقطتها بيدها من الهواء..  
ثم هجمت على.. وهى تصرخ.. يا أفندى يا عرة.. يا إبرة  
مصدية، يا ماسح، يا ماسخ.. يا.. وانهاالت على ضربا  
بالشبشب.. وخرج البقال من دكانه.. وانشقت الأرض وانطلق  
منها عشرات.. كبار وصغار.. كلهم يضربوننى.. وصوت  
نفيسة، أعلى من صوتهم.. وشبشبها يحكم التصويب على  
رأسى خيرا من صفعاتهم ولكماتهم.. ولم أصرخ.. عيب  
يا حسنى.. لا تصرخ.. ولا توسلت.. عيب.. أنت من الدراسة  
يا حسنى.. ماتشمتش فيك العيال.. وقفت أتلقى شبشب نفيسة  
ولكمات أهل حنتها، وعيناي مركزتان على وجهها.. إنها  
جميلة.. حتى وهى تردح.. جميلة بنت الإيه.. جميلة ولو أنها  
راجل.. وصدمت نفيسة بهدوئى.. وقوة احتمالى.. والتقت  
عينها بنظرتى الثابتة التى تأكل وجهها.. وأحسست أنها بدأت  
تلهث.. وتقاوم شيئا فى داخلها.. أحسست أنها تعود أنثى..  
بنتا.. ثم سمعت صوتها وهى تفتعل الحزم والمجدعة.. وتشخط  
فى أهل حنتها:

- بس يا دوكشة.. بس يا واد أنت وهوة.. كفاية يا حمادة..  
وكف الضرب عنى.

ونظرت إلى وهي تلهث كأنها تبذل مجهودا عنيفا لتحفظ  
بقوة شخصيتها قبل أن تذوب أمامي :  
- أنت عايز إيه منى يا جدع أنت.. بقالك شهر داير ورايا..  
عايز إيه.. ما تتكلم.  
وقلت فى هدوء.. وأنا أبتسم لها ابتسامة ساخرة، أسخر  
بها من «مجدعتها».. خليك صياد يا حسنى أوع تنخ.. وقلت  
كلمة واحدة :  
- عايزك.  
تعجبني يا واد يا جامد.  
وقالت نفيسة فى غيظ :  
- شوفوا الرجل وبجاحته عايزنى يا عنى ايه يا جدع أنت.  
قلت :  
- عايزك وخلص.  
قالت :  
- اللي عايزنى يتجوزنى على سنة الله ورسوله.  
قلت :  
- وماله.. نتجوز.  
ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى، وقالت :  
- تلاقىك بتتجوز كل يوم واحدة.  
قلت :  
- أبدا وحياة شبشبك.. ده بس علشان خاطرک يا جميل.  
وقالت فى حدة :  
- طيب اتفضل اتجوزنى.. أدى أبويا، وأدى أخويا.  
وشدت البقال من بين الزحام.. أبوها.. وأشارت إلى  
حمادة.. أخوها.



وقلت :

- وفين أمك ؟  
ورفعت حاجبها الأيسر، وقالت كأنها تسخر منى.  
- تعيش أنت.

قلت :

- عرفت تخلف.. الله يرحمها.  
ثم التفت إلى أبيها وإلى أخيها، وقلت :  
- تحبوا نكتب دلوقتي.. ولا نجيب أمى الأول.  
وقالت وهى ترفع حاجبها الآخر وتلم ملاءتها حول  
جسدها :

- لا.. روح هات أمك.. يا روح أمك.

قلت :

- ييجى معايا حمادة.. رهن.. أحسن أرجع ما لقيش.  
وقالت وهى تبدو مسيطرة على الحارة كلها :  
- روح معاه يا حمادة.. ليتجوز فى السكة.  
قلت كأنى أصبحت زوجها فعلا :  
- أعملى لى كباية شاي على بال ما نرجع.. أنا أحب الشاي  
تقيل.

وهمت أن أنصرف، فصاحت بى :

- تعالى هنا يا أفندى.. ما ترجعش لأمك بالشكل ده.  
وجذبتنى إلى دكان أبيها البقال، وأمسكت بفوطة بللتها  
بالماء، وأخذت تمسح وجهى من أثر الكدمات، وهمست :  
- واسم حضرتك إيه بأه ؟

قلت :

- حسنى.. حسنى عبدالعاطى.

■ صائد الغزال .. ■

قالت :

- ويا ترى بتشتغل شغلة ثانية.. ولا بس معكساتى.

وضحكت قائلاً :

- موظف فى وزارة الأشغال.. ماهيتى ثمانية جنيه  
وكسور..

وعدت أملاً عينى من وجهها.. جميلة بنت الإيه.. وأنا  
صياد.. صياد الغزلان.. لا تستطيع غزالة أن تفر منى.  
وتزوجت نفيسة.

ومن يوم أن تزوجتها إلى اليوم وأنا أخاف من شبشبها..  
وقد أقلعت عن صيد الغزال.. غزالتى تساوى كل ما فى شارع  
الموسكى من غزال.. وتفرغت لمستقبلى.. درست من جديد،  
ونلت البكالوريا ودرست الحقوق وأنا موظف فى الأشغال،  
ونلت الليسانس.. وأنا الآن محامى.. ونسكن فى العباسية..  
وعندنا تليفون وتليفزيون.. وسيارة نصر.. ومحمود.. نفيسة  
هى أم محمود.

وأنا لا أخاف على محمود لأنه دون جوان.

سيجد حتما الفتاة التى تضربه بالشبشب.

## القضية الأخيرة ..

كانت هوايتى منذ كنت طالبا فى المدرسة الثانوية، هى الخطابة، وكتابة البحوث الاجتماعية.. والذى يهوى الخطابة نادرا ما يهوى كتابة البحوث.. فالخطابة مواجهة الجماهير، وكتابة البحث تتطلب العزلة عن الجماهير.. والخطابة هى أن تضع عقلك على طرف لسانك، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك.. الخطابة تعتمد غالبا على إثارة العواطف.. على إقناع العاطفة.. وكتابة البحث تعتمد دائما على إقناع العقل.

هوايتان متناقرتان، وبرغم ذلك فقد جمعت بينهما.. وكنت وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية إلا وأقف فيها خطيبا بين زملائى.. وفى لحظات أملك عواطفهم، وأهزها هذا عنيفا.. أبكيهم على زميل توفى.. أو أحمسهم للخروج فى مظاهرة.. أو ألهب أكفهم بالتصفيق

## ■ القضية الأخيرة .. ■

لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم فى مناسبة فوزه.. وفى الوقت نفسه كان لى فى كل أسبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة.. أو عن التنشيط الاجتماعى.. أو.. أو.. بحوث أقدمها لناظر المدرسة أو للأساتذة المشرفين، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم.

وقادتنى هوايتى إلى كلية الحقوق.

ولم أكن أحلم بأن أكون وزيراً، أو زعيماً، كما كان يحلم بقية طلبة الحقوق فى عهد ما قبل الثورة.. أبدا.. كل ما كنت أحلم به هو أن أكون محامياً.. محامياً كبيراً.. أخطب.. وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية والسياسية.

وتفوقت فى كلية الحقوق.. وتفوقت فى هوايتى.. وأصبحت جميع الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية، وخارجها، تدعونى إلى الخطابة فى اجتماعاتها، وإلى إعداد البحوث عن نشاطها.. ولم أكن منتمياً إلى واحدة من هذه الجمعيات، ولا إلى حزب من الأحزاب.. أبدا.. كان كل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضوع الذى أخطب فيه، أو الذى أعد بحثى عنه.. سواء كان هذا الموضوع يهم الوفديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين.. أو.. أو.. المهم هو عدالة القضية التى أذاع عنها.. وقد كنت حريصاً فعلاً على ألا أتكلم إلا فى القضايا العادلة.. وبلغ منى الحرص إلى حد أن العدالة أصبحت تعرف بى.. فإذا أعلن أنى سأخطب فى اجتماع ما آمن الناس كلهم بأن القضية التى ستبحث فى هذا الاجتماع، عادلة.. وفشلت كل الوسائل التى تعرضت لها كى أشترك فى الدفاع عن

■ القضية الأخيرة .. ■

قضايا لا أومن بعدالتها.. فشل التهديد، والإغراء.. وفشل التشهير والنفاق.. وبقيت صلبا قويا، فخورا بصلابتي وقوتي، ومكانتي التي اكتسبتها بين طلبة وأساتذة الكلية.

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق.. طبعت بطاقة تحمل اسمي.. «محمود عباس» ثم «المحامى».

كنت واثقا من حصولي على الليسانس.. ونلتها فعلا عام ١٩٤٣ بمجموع ٨٥ في المائة.. والتحق بمكتب الأستاذ عبدالقواب عبدالحى، محاميا تحت التمرين.. وذهل الأستاذ عبدالقواب.. ذهل من المذكرات القانونية التي أعدها، ومن الأسلوب الجديد الذى اتبعه فى المرافعة أمام المحكمة.. أسلوب هادىء.. رنان.. يتسلل إلى قلب القاضى، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل على أن أكسب العقل.. وأكسب القضية.

ولكنى كنت مصرا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها.. قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبدالقواب، كنت أرفض المساهمة فيها، لا لشيء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل.. وكنت أصارح الأستاذ عبدالقواب، برأى هذا، فلم يكن يغضب، بل ازداد تقديره لى، واحترامه لشخصيتى، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالى فى مكتبه، قرر لى مرتبا عشرة جنيهاً فى الشهر.. برغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب. وبرغم ذلك.

برغم هوايتى.. وبرغم كل هذا النجاح الكبير.. وبرغم حلم العمر.. هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين.. ذبحت

## ■ القضية الأخيرة .. ■

هوايتى.. دفنت نجاحى.. مزقت حلم العمر.. وضحييت  
بالجنيهات العشرة.. كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئاً  
كبيراً بالنسبة لى.. فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين  
ثمانية جنيهات فى الشهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى..  
وكانت أمى قد ادخرت لى مائة جنيه لتدفعها مهراً لى عندما  
أتزوج ابنة عمى.. إنى أحب ابنة عمى.. ومنذ قبضت العشرة  
جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقها فيه مع  
ابنة عمى بعد أن نتزوج.. ولكنى ضحييت بالعشرة جنيهات  
أيضاً.

ماذا حدث.

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود  
المكوجى، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة.. وأبلغنى أنه  
قبض على ابن عمه عبدالمجيد علوان، متهما بسرقة مجموعة من  
ولاعات السجائر.. من المحل التجارى الذى يعمل فيه.. وأقسم  
لى أن علوان مظلوم، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان  
يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ولأن علوان كان يرفض،  
فقد دبر له الرئيس هذه التهمة.

وقال الأسطى محمد أحمد محمود :

– علوان ابن عمى فقير.. ما حلتوش حاجة.. وبيجرى ورا  
سبع عيال.. غير أمه.. ومظلوم والله.

ولا أدرى لماذا تحمست فوراً لهذه القضية.

ربما لأنها أول قضية تأتى إلى مباشرة، وباسمى، لا عن  
طريق مكتب الأستاذ عبدالقواب.

وربما لأنى أردت أن أثبت لأهل الحى أنى أقف بجانبهم.  
والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذا.  
وربما لأنى أصببت بنوبة من العطف المفاجىء على  
عبدالمجيد علوان وأولاده السبعة.  
ورفضت أن أناقش الأسطى محمد أحمد محمود فى  
الأتعاب.  
وذهبت إلى الأستاذ عبدالتواب المحامى واستأذنته فى أن  
أتولى القضية بنفسى ولحسابى، فقد كان يجب أن أستأذنه  
لأنى ما زلت تحت التمرين.. وسمح لى الأستاذ عبدالتواب.. بل  
قال لى :  
- اعتبر نفسك صاحب هذا المكتب.. كل إمكانيات المكتب  
تحت أمرك.  
وشكرته.  
وأسرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق بنفسى.  
فإنى لم أرد أن أشغل كتبة المكتب فى نسخه، ما دام المكتب لن  
يستفيد شيئاً فى هذه القضية.  
وقرأت التحقيق بإمعان.  
إن السرقة كبيرة.. مائة ولاعة ماركة رونسون.. ثمن  
الولاعة الواحدة يصل إلى خمسة جنيهات.. أى أن قيمة  
المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه.  
والإتهام قوى.  
لقد عثروا على ولاعتين من الولاعات المسروقة فى منزل  
عبدالمجيد علوان.

■ القضية الأخيرة .. ■

وذهبت لزيارة المتهم فى السجن، وقلت له:  
- اسمع يا علوان.. قل لى الحقيقة علشان أقدر أخدمك.. كل  
الحقيقة.  
وأقسم علوان أنه لم يسرق.. وأقسم أن رئيسه يضطهده  
وأنه هو الذى سرق الولايات ودرس اثنتين منها فى بيته حتى  
يثبت عليه التهمة.  
وأفاض علوان فى التفاصيل.  
كلها تفاصيل معقولة.  
وعلوان رجل عجوز، تبدو الطيبة على وجهه.. والشقاء..  
والفقر.. وإرهاق العمر الطويل.  
وتأثرت.  
تأثرت جدا.  
وانتهى علوان من كلامه، ثم قال :  
- أقول إيه كمان يا أستاذ.. دلنى!  
ولم تعجبنى هذه الكلمة.. لم أسترح لها.. ماذا يعنى.. ربما  
لم أفهمه تماما.. لا يهم.. وتبخر قللى بسرعة وقلت لعلوان :  
- اطمئن.. براءة بإذن الله.  
وانهمكت فى القضية.  
كل وقتى.  
كل عقلى.  
ولا أريد أن أروى التفاصيل.. ولكنى استطعت بعد جهاد  
عنيف أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيها.  
ولم يكن مع علوان هذه الخمسون جنيها.



## ■ القضية الأخيرة .. ■

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهاً، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمسين جنيهاً. من مهر ابنة عمى.. على أن أردّها لها بعد أن يحكم ببراءة المتهم.. إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة.. ورفضت أمى.. وألححت.. لأول مرة أختلف أنا وأمى.. وتماديت فى الإلحاح محاولاً إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كمحام.. وأخيراً خضعت أمى بلا اقتناع وأعطتني الخمسين جنيهاً، دفعتها فى خزانة المحكمة ليفرج عن علوان. وأفرج عنه.

وقال لى علوان يوماً وفى عينيه لمعة غريبة، خيل إلى برهة أنها لمعة خبث.

– كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ.. الصبر طيب!!  
ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله، فأعطيته خمسة جنيهاً قرضاً إلى أن يستطيع أن يجد عملاً آخر.. وأعطيته خمسة جنيهاً أخرى.. وخمسة جنيهاً ثالثة.. لقد ذهبت إلى بيته ورأيت ما فيه من فقر.. رأيت أولاده السبعة حفاة.. عراة.. تطمس القذارة وجوههم.. ولم أكن أستطيع أن أتركه دون أن أمد له يد العون.. إنه مظلوم.. إنى واثق أنه مظلوم.

وعاد علوان يردد :

– كله يترد لك يا أستاذ.. الصبر طيب.

ولم أفهم ما يعنيه.

وحماسى لا يفتر.

■ القضية الأخيرة .. ■

بل إنى كدت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل.. إن حالة علوان لا تحتل التأجيل.. إنه لا يستطيع أن يعمل والإتهام معلق فوق عنقه.. وأولاده جياع. وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب.. إنهم يدرسون القضية معى.. ويدلون بآرائهم.. والكتبة يساعدوننى.. صحيح أنى أعطيت واحدا منهم جنيهين.. والثانى جنيها، عندما كلفتهم بمهمات تتعلق بالقضية.. ولكنهم كانوا متحمسين.. بل إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها.. أصبحت أعرف هناك باسم «محامى علوان»!

وبعد ستة أشهر.

حكمت المحكمة.

براءة.

لم يكن الأمر سهلا.. أبدا لم يكن سهلا أن أدحض أدلة الإتهام القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبدالتواب على هذا الحكم.. وزملائى.. واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى.

وبعد أيام.

جاءنى علوان فى بيتى، وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة، وقال لى بعد أن كرر شكره لى :

– أنا راجل حقانى يا أستاذ.. وأنت عملت كثير.. جميلك

ما يتنسيش.. ودول ميت ولاعة.. يبقى لك منهم خمسين.

ثم فتح اللفافة التى فى يده.. ولعت أمام عينى الولاعات.

الولاعات المسروقة.

وصرخت :

- إيه دول يا علوان.

وقال علوان ضاحكا :

- دول الولاعات إياهم.. كنت مخبيهم عند مراتى الجديدة..  
والحقيقة أنا كان نفسى أبيعهم بمعرفتى وأجيب لك تمنهم.. إنما  
السوق واقف.. وأحسن الواحد يتقل.. قلت أجيب لك نصيبك  
تتصرف فيه بنفسك.

ولم أرد.

بدأت أشعر بدوار.

وقال علوان :

- ودى فوق البيعة.. احنا لنا بركة إلا أنت يا أستاذ.  
ووضع أمامى قطعة حشيش.

وصرخت :

- شيل الحاجات دى من قدامى.. شيلهم بأقولك.. شيلهم  
أحسن أوديك فى داهية.

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عيني علوان.. وقال :

- جرى إيه يا أستاذ.. ما هو ما تبقاش طماع.. كفاية كده  
قوى.

رعدت أصرخ :

- أخرج بره.. أخرج بره.

وجمع علوان الولاعات، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه،  
واختفى من أمامى.

وسقطت فى هاوية الصمت.

لا أريد أن أتكلم.  
لا أريد أن أرى أحدا.. ولا أُمى.. ولا خطيبتى.  
وَألم ساحق يقرى صدرى.. ولم أكن أتألم لأنى وقفت  
بجانب مجرم وبرأته.. بل لأن علوان كان طول هذه الشهور،  
يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات، وأنى كنت أدافع عنه  
لأطالبه بنصيبي فى المسروق.  
وأفقت من نوبة الصمت.  
وعدت إلى المكتب.  
وحاولت أن أبدأ من جديد.. ولكنى لم أستطع.. لقد فقدت  
ثقتى فى نفسى.. وثقتى فى الناس.. لم أعد أصدق أحدا..  
ولا كلمة.. ولا حتى الأستاذ عبدالتواب نفسه.  
وهجرت الحمامة.  
إنى الآن موظف فى شركة.. موظف صغير.  
وعيبى أنى لا أصدق أحدا.. وهو عيب أبعده عن الناس..  
ولكنه يحمينى منهم.  
إنى أخاف من الناس.  
أخاف.  
ولم أتزوج ابنة عمى.. لأنى أخاف.

## الحسب والعدالة ..

يا حضرة القاضى.

أرجوك.. دعنى أتكلم.. إنى لا أستطيع أن  
أحتمل كل هذا الكلام الذى يقال هنا.. سواء  
الكلام الذى يقوله الدفاع أو كلام ممثل النيابة..

□ إنهم يتكلمون على أساس أنى ارتكبت جريمة.. وكان يجب أن  
يسألوا أنفسهم أولاً.. هل هناك جريمة؟.. أين هى الجريمة  
يا سيادة القاضى.. إن الجريمة تعنى الاعتداء.. فأين هو  
الاعتداء.. من هو الضحية فى هذه القضية.. من هو المعتدى  
عليه.. من الذى أصابه أذى منى.. إن السيد ممثل النيابة يقول  
إنى اعتديت على النظام العام وصدقنى ، يا سيادة القاضى ،  
أنى لا أدرى ما هو هذا النظام العام.. ولم يسبق لى أن تشرفت  
بمعرفته.. ولكن كل ما أعرفه أن أى اعتداء يجب أن يكون له  
دافع وهدف.. فما هو الدافع الذى يمكن أن يقودنى إلى  
الجريمة.. وما هو الهدف الذى يمكن أن أصل إليه من وراء هذه

■ الحسب والعدالة .. ■

الجريمة.. السيد وكيل النيابة يقول إنى ارتكبت تزويرا فى أوراق رسمية.. ماذا استفدت من هذا التزوير إن كان حقيقة أنى زورت.. ما هى حاجتى إلى هذا التزوير.

لا يا حضرة القاضى.. أرجوك.. أتوسل إليك.. لا تمنعنى من الكلام.. إنى لا أستطيع أن أسكت.. ولا أستطيع أن أنتظر حتى يأتى دورى فى الكلام.. بل لا أطيق أن أسمع كل هذه النصوص القانونية تنطلق إلى أذنى كالصواريخ.. نح القانون جانبا.. دعك من القانون الآن يا سيادة القاضى.. واستمع إلى كإنسان.. إنك لم تجلس على منصة القضاء إلا لأنك إنسان كبير.. الإنسان فىك هو الأصل لا القاضى.. الإنسان فىك أكبر من القاضى.. وأنا أخاطب فىك الإنسان، وأترك مهمة مخاطبة القاضى للأستاذ المحامى الذى يترافع عنى.

شكرا يا سيادة القاضى على سعة صدرك.. إنى عاجز عن

الشكر.

والآن..

لماذا أنا هنا فى ساحة عدالتكم.

إنى هنا لأنى أحببت هدى، زميلتى فى العمل.. لا أدرى متى أحببتها.. ربما منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالعمل وعينت كاتبة على الآلة الكاتبة فى قسم الحسابات.. لقد رفعت عينى إليها وخيل إلى ساعتهأ أنى لن أستطيع أبدا أن أرخى عينى عنها.. إنها جميلة يا سيادة القاضى.. رقيقة.. هادئة.. ولكنها ليست ضعيفة.. إنها شخصية ثابتة حلوة.. وابتسمت لها.. ربما كانت أول ابتسامة أحس بها تملأ قلبى.. وتعيش فيه.. إن نفس

هذه الإبتسامة لا تزال فى قلبى حتى اليوم.. حتى هذه اللحظة..  
إنى أبتسم الآن يا سيادة القاضى أبتسم لها.. لهدى.  
وهى أيضا، ربما أحببتنى منذ اليوم الأول.. فقد بدأ كل منا  
يقتررب من الآخر فى خطى سريعة طبيعية، لا افتعال فيها  
ولا تعمد.. قوى أكبر منا تشد أهدنا للآخر.. إلى أن تنبهننا  
فجأة إلى أنه الحب.

وبدأنا نقاوم.

نقاوم الحب.

لقد أشفق كل منا على الآخر من حبه.. خفت عليها من  
حبها.. وخافت على من حببى.. فقد كان كل منا يعلم مدى  
العذاب الذى ينتظر الآخر.. كل منا يرى الصخرة الهائلة التى  
يمكن أن يتحطم عليها حبنا فى آخر الطريق.

فأنا مسيحي.. مسيحي صريح.. اسمى لوىس إسكندر  
منقريوس.

وهى، هدى عبدالفتاح.. مسلمة.

وأقسم لك يا سيادة القاضى أننا قاومنا كثيرا.. أكثر مما  
يحتمل أى إنسان يحب.. قاومنا إلى حد أن قررنا أن يبتعد  
أهدنا عن الآخر.. لم نعد نلتقى.. بل لم نعد نتبادل الكلام،  
ولا حتى تحية الصباح.. كانت تدخل إلى المكتب فلا تقول لى  
صباح الخير.. وأخرج فلا أقول لها سعيدة.. ووصل الأمر إلى  
حد أنى طلبت نقلى من قسم الحسابات.. وفى نفس اليوم  
طلبت هى أيضا نقلها.. وصدر قرار بنقلى أنا إلى قسم  
المشتريات.

■ الحسب والعدالة .. ■

واستمرت هذه القطيعة ستة أشهر.. ستة أشهر يا سيادة  
القاضى والحب فى قلبينا.. فى رأسينا.. فى أعيننا.. فى  
أعصابنا.. وأنا أذبل.. وهى تذبل.. تكاد نموت يا سيادة  
القاضى.

لا يا سيادة القاضى.. إنى لا أبالغ.. ولا أتكلم كلاماً عاطفياً  
منمقاً.. أبداً.. إن العاطفة هى واقع.. هى جسم الجريمة فى هذه  
القضية إذا أرادت النياية أن تسميها جريمة.. ولم نكن نستطيع  
أن نعيش بعيداً عن واقعنا.. أعنى بعيداً عن عواطفنا.. عن حبنا..  
فقررنا أن نستسلم.. وعدنا.. عدنا إلى الحب.. إلى دنيانا.. إلى  
الهواء الذى نستمد منه حياتنا.

لا تنس يا سيادة القاضى أننا قاومنا.. وأنا قاومنا إلى هذا  
الحد.. لماذا قاومنا؟ لأننا كنا منعترفين بالتقاليد التى تحكم  
مجتمعنا.. لأننى لم نكن نريد أن نتحدى المجتمع.. ولا أن  
نتحدى شريعة كل منا.. كنا نحترم الشرائع.. ونحترم  
المجتمع.. ونحترم أهلى وأهلها.. وكان يمكن أن نرتاح لو أننا  
استطعنا أن نستمر فى المقاومة.. ولكننا لم نستطع.. لأن حبنا  
كان أقوى من أهلى وأهلها.. وأقوى من المجتمع.. وهو ليس  
أقوى من الشريعة.. ولكن الشريعة.. كل الشرائع.. هى شرائع  
الحب.. الله هو الحب.. وقد كان حبنا نظيفاً نقياً بحيث نفخر  
بأن ننسبه إلى الله.. الله.. الله الواحد.. إله المسلمين والمسيحيين..  
مهما تعددت شرائعه.

ماذا نفعل بهذا الحب يا سيادة القاضى.  
كان أمامنا طريقان.



## ■ الحب والعدالة .. ■

إما أن نبقية سرا، خوفا من الناس ومن الأهل، إلى أن ينقلب إلى خطيئة، لا نرضاها لحبنا.

وإما أن نعلنه للناس.. ونسير به فى الطريق الذى رسم للحب منذ بدء الخليقة.. أن تكون لى وأكون لها.. أى أن نتزوج. ولكى نتزوج، يجب أن يبدل أحدنا دينه. إما أن أعلن إسلامى.

وأما أن تتنصر هدى.. تعلن اعتناقها للدين المسيحى. واسمح لى يا سيادة القاضى أن أتكلم بصراحة أكثر.. وأنا واثق أن سعة صدرك، وسمو تفكيرك ومشاعرك، يمكن أن تقسح لى مجال الصراحة.

لقد كنا نعتقد أن تغيير أحد منا لدينه، ما هو إلا مجرد إجراء شكلى مضطرين إليه، ولن يؤثر على معتقدات أحد منا.. سواء أسلمت أنا، أو تنصرت هى.. فسيبقى كل منا محتفظا بحقيقة مشاعره ومعتقداته.. المشاعر والمعتقدات التى تعيش فى قرارة صدره، والتى تنظم صلته بالله، ولا يملكها أحد إلا هو، ولا يحاسبه عليها أحد إلا الله.

كان هذا هو تفكيرنا فى مبدأ الأمر. ولكننا عندما تعمقنا أكثر اكتشفنا أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة.

فتغيير أحدنا دينه سيسبب جرحا لأهله، ولقومه.. أمى وأمها.. وأبى وأبوها.. وإخوتى وإخوتها.. أى فريق نعرضه للصدمة.. أى فريق نضحى به.. واحد منا يجب أن يضحى بأهله وبقومه.. التضحية بهم بمعنى جرح شعورهم وتعرضهم

## ■ الحسب والعدالة .. ■

للصدمة ، ثم هناك تضحية أخرى.. تضحية ذاتية.. فلا شك أن واحدا منا سيضحى بجزء من معتقداته.. أو على الأقل سيضحى بمظهر هذه المعتقدات.. بالأشياء الصغيرة التي تربينا عليها.. بالتقاليد والبدع التي أصبحت.. إلى حد ما جزءا من حياتنا.. ولا شك أن حينا يحتمل هذه التضحية.. ولكن لا شك أيضا أن التضحية تؤثر في الشخصية.. واحد منا سيتنازل عن قطعة من شخصيته.. ستهتز شخصيته.. وقد يصاحبه أثر اهتزاز الشخصية طول حياته.

فمن منا يقدم على هذه التضحية.

أنا.

أو هى.

وصدقنى أننا ناقشنا هذا الموضوع بصراحة، وبساطة، وحلاوة.. كان حينا - ولا يزال - يحتمل مواجهة الواقع.. ليس فقط الواقع المادى.. بل الواقع النفسى.. واقع احساسنا النفسى.. لم يحاول أحد منا أن يناق الأخر.. أو، يتظاهر بالاندفاع فى سبيل حبه أكثر من الأخر.

وكنت مستعدا أن أقبل التضحية.

وكانت هى أيضا مستعدة أن تقبل التضحية.

أنا مستعد أن أعلن إسلامى.

وهى مستعدة أن تعتنق المسيحية.

وضحكنا معا، وكل منا يحاول أن يعفى الآخر من التضحية ويحتملها عنه.

أندرى يا سيادة القاضى.. لقد سبق أن قرأنا قصة لإحسان

## ■ الحسب والعدالة .. ■

عبدالقدوس، اسمها «الله محبة» تدور حول مشكلة كمشكلتنا، وقد وصل البطل والبطله فى القصة إلى حل غريب.. أجريا «طس» بينهما.. أمسكا بقطعة نقود، واختار كل منهما وجها من وجهيها.. ثم قذفا بها فى الهواء.. والوجه الذى تسقط عليه قطعة النقود يغير صاحبه دينه.

وربما كانت القصة مجرد خيال انطلق فى رأس الكاتب.. ولكننا فكرنا فى أن ننفذ هذا الخيال.. ثم أبته عقولنا.. لم نقتنع به.. إن دين كل منا لا يمكن أن نعلقه فى قطعة من ذات الخمسة القروش.. ولا يمكن أن نتركه لعجلة الحظ.. إنما يجب أن نصل إلى حل نقتنع به بعقولنا.. فإننا إذا اقتنعنا احتفظنا بسلامة شخصياتنا.. الإقناع وحده هو الذى يحفظ قوة الشخصية.

وعدنا تفكر.

فكرنا كثيرا يا سيادة القاضى.. كثيرا جدا.

وانتهينا إلى الحل الذى تسميه النيابة جريمة.

لقد تزوجنا مرتين.

مرة كمسلمين.

ومرة كمسيحيين.

ذهبت وأعلنت إسلامى.. ثم تزوجتها أمام المأذون.

ثم.. بعد ذلك.. ذهبت هدى واعتنقت المسيحية، وتزوجتني

مرة ثانية فى الكنيسة.

فأين الجريمة هنا يا سيادة القاضى.

هل جريمة أن يحب أحدهنا الآخر إلى هذا الحد.

لنفرض أن اثنين من دين واحد، خطر لهما أن يتزوجا مرتين تأكيدا لحبهما.. لنفرض أن رجلا تزوج امرأة.. وبعد خمس سنوات أو عشر خطر لهما أن يتزوجا مرة ثانية تأكيدا لحبهما.. مجرد خاطر حلو من الخواطر التي ترد في عقول المحبين.. إن أم كلثوم تقول في أغنيتها «لو كنت أقدر أحب تانى أحبك أنت»، وهو تعبير صادق عن خواطر تطلقها فعلا عقول المحبين.. إن الزوج كثيرا ما يقول لزوجته التي يحبها : «لو كنت أقدر أتجوز تانى أتجوزك إنتى برضه».. فهل لو تزوجا مرة ثانية.. لمجرد حبهما بطريقة خطرت لهما، يعتبر هذا جريمة.

لا..

لا يمكن.

لا يمكن أن يكون الارتفاع بالحب إلى هذا المستوى يعتبر جريمة.

وهذا ما فعلناه يا حضرة القاضى.

تزوجنا مرتين تأكيدا لحبنا.

مرة بعد أن غيرت دينى من أجل هدى.

مرة بعد أن غيرت هدى دينها من أجلى.

صحيح أننا أخفينا ما فعلناه عن كل من حولنا.. أخفينا خطتنا عن المأذون والقسيس.. وتركنا البعض يعتقد أنى أسلمت وتزوجت زواجا إسلاميا.. والبعض الآخر يعتقد أن هدى تنصرت وتزوجت زواجا مسيحيا.. ولكننا لم نخف شيئا لأننا اعتبرناه جريمة.. ولكننا أخفينا لأنه كان إجراء يخصنا

وحدنا.. هدى وأنا.. إجراء يسمو بحبنا، ويحفظ لكل منا شخصيته.

ولكن النيابة تقول إننا زورنا فى أوراق رسمية.. إننا لم نزور فى أوراق رسمية يا سيادة القاضى، ولكننا أكدنا حبنا فى أوراق رسمية.. التزوير يجب أن يهدف إلى فائدة غير مشروعة يجنيها المزور.. فهل الزواج غير مشروع.. إنه مشروع.. إنه مشروع فى الأوراق الرسمية المسيحية.. ومشروع فى الأوراق الرسمية الإسلامية.. فكيف تنطبق هنا جريمة التزوير.

وبعد ذلك.. فإنى واثق يا سيادة القاضى أنك لا يمكن أن تحاسبنا على حقيقة عواطفنا ومعتقداتنا الدينية، فهذا شىء بيننا وبين الله.. وسواء اعتبرتنا أنا وهدى مسلمين، أو اعتبرتنا مسيحيين.. فنحن نحب الله.. ونؤمن به.. ونؤمن بأن الله يحبنا، وإلا لما وهبنا كل هذا الحب الذى حدثك عنه.

والأمر لك يا سيادة القاضى.

وحكمك لن يكون علينا.. ولكنه على الحب.

وأنا وهدى مطمئنان إلى أن الحب هو العدل.. وأنت عادل.

## وسام للمتهم

ياسيادة القاصى.

ثق أنى حائر.. والمحامى غالباً لا يحتار فى موقفه.. فهو دائماً يقف بجانب المتهم الذى قيل أن يدافع عنه.. وأنا الآن واقف بجانب أربعة من

□ المتهمين الشبان، ومعترفين بجريمتهم.. ولكن حيرتى هى أنى برغم اعترافهم لا أستطيع أن أعتبرهم مجرمين.. حتى أدافع عنهم.. إنى فى الواقع معجب بهم.. معجب بموقفهم، حتى لو كان هذا الموقف خلف قضبان القفص الحديدى.. وواجبى الذى أحس به ليس هو واجب الدفاع عنهم، ولكنه واجب المطالبة لكل منهم بوسام يعلقه على صدره.. فهل من حقى أن أطالب لمجرم معترف بوسام.

النيابة طبعاً، ستقول، لا.. وقد عصرت القانون عصراً حتى تستطيع أن تستخرج منه ما يكفى للحكم على الأربعة المتهمين.

ولكنى واثق أن الحكمة لا يمكن أن توافق النيابة على

منطقها.. بل إنى واثق أن السيد وكيل النيابة لو انتقل الآن إلى مقعد القضاء لتغير منطقته.. ولاحتار مثلى.. وبرغم أنى أسمو بعدالة المحكمة عن مستوى الحيرة.. إلا أن الحيرة هنا وفى هذه القضية بالذات.. هى حيرة إنسانية.. والإنسانية تعلو فوق القانون.. الإنسانية هى العدالة، وليس القانون.  
يا سيادة القاضى.

البراءة ليست هى موضوع دفاعى.. أنا لا أطلب البراءة.. فإنى لست فى حاجة إلى طلبها.. إنها ثابتة قانونا.. ولكنى أطلب أربعة أوسمة لأربعة متهمين.. إنى أطمع فى أن أضع تقليدا قضائيا جديدا بأن تسجل المحكمة فى حيثيات الحكم، أنه برغم وقوع الجريمة، وبرغم، اعتراف المتهمين، فإن المحكمة تثبت إعجابها بهم، وتقديرها لموقفهم، وتوصى الهيئات المختصة بمنح كل منهم وساما.  
لا تبتسم يا سيادة القاضى.  
أرجوك لا تبتسم.

إنى لا أبالغ.. ولا أفتعل مدخلا جديدا لدفاعى.. إنى أتكلم بإحساسى كمواطن عادى، يرى فى الجيل الجديد الذى يمثله هؤلاء الشبان، روحا جديدة، تثير الإعجاب.. جيل له أخطاؤه، ولكنه جيل بطل.. وله نقط ضعفه، ولكنه جيل قوى.. أقوى من ضعفه.

واسمح لى سيادتكم بأن أعرض موضوع القضية بسرعة.. وأقول «موضوع».. ولا أقول «جريمة».  
من هم المتهمون ؟

إنهم محمد، وأحمد، وعلى، وحسين.. أربعة من طلبة كلية الهندسة.. أكبرهم فى الثانية والعشرين، وأصغرهم فى

■ وسام المتهم ■

التاسعة عشرة.. محمد هو أول دفعته فى كلية الهندسة..  
وحسين حصل على تسعين فى المائة من مجموع الدرجات فى  
شهادة الثانوية العامة، ومنح مجانية التفوق.. وأحمد وعلى من  
الطلبة الممتازين.. الأربعة ياسيادة القاضى، حاجة تفرح.. ليس  
فى ماضى واحد منهم مايشينه.. والأربعة تلتف حولهم قلوب  
زملائهم، إلى حد أن قامت ضجة فى كلية الهندسة يوم بدأ  
التحقيق معهم.

وكان الأربعة مجتمعين فى بيت محمد للمذاكرة.. عندما  
دخل عليهم عمه.. عم محمد.. وطلب أن يتطوع واحد منهم،  
ويأخذ سيارته.. سيارة العم.. ويذهب بها إلى بيته فى مصر  
الجديدة ليعود بالسيدة حرمه.

وقرر الأربعة أن يذهبوا سويا.  
فسحة..

وفى شارع رشيد بمصر الجديدة.. والدنيا ظلام.. والشارع  
هادئ، خال من المارة.. انحرفت السيارة التى يركبها الأربعة،  
وصعدت فوق الرصيف وصدمت الإنسان الوحيد الذى يمر فى  
الشارع فى هذا الوقت.. وقتلته.

قضاء وقدرًا.

وكان المتهمون يستطيعون الهرب بالسيارة.

لا أحد رأى الحادث.

لا شهود عليهم.. حتى عسكري الدورية لم يكن فى مكانه  
ليشهد عليهم.

لو أنهم هربوا لما كانوا اليوم واقفين أمام عدالتكم.. ولما  
استطاعت قوة فى الأرض أن تكتشفهم.  
لكنهم لم يهربوا.



### ■ وسام للمتهم ■

أرجو أن تقدر هذا ياسيادة القاضى.. إنهم لم يهربوا..  
ضماثرهم الحساسة النظيفة القوية، لم تسمح لهم بالهرب..  
وبالعكس.

حملوا جثة القتيل داخل السيارة، وذهبوا إلى قسم  
البوليس.. وسلموا الجثة.. وسلموا أنفسهم.  
واعترفوا..

وهنا أيضا لم يكونوا فى حاجة إلى الاعتراف أو على الأقل  
لم يكونوا فى حاجة إلى أن ينسبوا الخطأ إلى أنفسهم.. كانوا  
يستطيعون أن يقولوا مثلا إن الرجل القى بنفسه تحت عجلات  
السيارة.. كانوا يستطيعون أن يقولوا إن الرجل كان يسير فى  
منتصف الطريق.. وإنهم استعملوا آلة التنبيه.. وإنهم استعملوا  
الفرامل..و..و..إلى آخر المبررات التى كان يمكن أن تعفيهم من  
تهمة القتل الخطأ.

ولكن، لا.

اعترفوا بكل التفاصيل.. اعترفوا بأن الرجل كان يسير على  
الرصيف وأن السيارة صعدت إليه وقتلته.

ولم يرجعوا عن اعترافهم عندما تولت النيابة التحقيق.. إنها  
رجولة ياسيادة القاضى.

رجولة مبكرة، قوية، تعبر عن المعانى الجديدة التى يدين بها  
الجيل الحديد.

وإنى اعترف لك الآن ياسيادة القاضى بأنى حاولت أن  
أقنعهم بالعدول عن هذا الاعتراف، بدافع الحرص على  
مستقبلهم.. حاولت كثيرا.. بلا فائدة.. إنه إصرار عجيب..  
إصرار على الصدق.. لا يريدون أن يكذبوا حتى لو كان فى  
الكذب سلامة.

ولكن..

من كان يقود السيارة لحظة وقوع الحادث ؟  
هنا حدثت المفاجأة.

لا أحد يدري حتى الآن من كان يقود السيارة.. هل هو  
محمد.. أو أحمد.. أو على.. أو حسين !؟  
لقد سئلوا طبعاً، عن من كان يقود السيارة.. فأجاب كل منهم :  
- ما اعرفش.

كلمة واحدة لم تتغير طوال التحقيق.. ما اعرفش !  
ولا بد أن ضابط البوليس الذي بدأ التحقيق قد جن عندما  
واجهوه بهذا الجواب الحاسم.. ما اعرفش.. ولا بد أن السيد  
وكيل النيابة قد بذل كل جهده حتى يأخذ منهم كلمة أخرى غير  
كلمة «ما اعرفش».. وينتزع السر الكبير من صدورهم.  
وقد اتبعت معهم كل طرق التحقيق.

سئلوا مجتمعين في مواجهة بعضهم البعض.. وسئلوا أفراداً.  
ولا أريد أن أقول إن المحقق قد استعمل معهم طرق التهديد  
الأدبي.. بل استعمل معهم نوعاً من أنواع التعذيب الجسدي،  
عندما حبس كلاً منهم حبساً انفرادياً.. وصمم على حبسهم  
برغم أن القانون لا يبيح له حق الحبس في هذه الحالة.. ولكن  
لا أريد أن أثير هذه النقطة في دفاعي.. لسبب واحد.. وهو أن  
المتهمين لا يريدون إثارتها.

وفي مرحلة من مراحل التحقيق، خيل للمحقق أنه وجد  
الطريق لمعرفة السائق.. فطلب من الفنيين أن يلتقطوا البصامات  
من فوق عجلة القيادة.

أتدري ماذا وجد خبير البصمات ياسيادة القاضي.  
وجد أن المتهمين قد حرصوا قبل أن يسلموا أنفسهم على أن

### ■ وسام للمتهم ■

يمسحوا البصمات من فوق عجلة القيادة.. ومن فوق الباب  
المجاور لمكان السائق.. كما هو ثابت فى تقريره المقدم منه .  
إذا فموقف المتهمين موقف متعمد.  
وهذا الصحيح.

إنى أتصورهم وقد اتفقوا بعد وقوع الحادث، على اتخاذ  
هذا الموقف، ورفعوا كلمة «ما أعرفش» كشعار لهم.. ثم اتجه  
بهم نكاؤهم وهم قطعاً أنكياء بدليل تفوقهم فى دراستهم.. إلى  
مسح البصمات من فوق عجلة القيادة.  
وقد لجأ المحقق إلى طريقة أخرى.  
لجأ إلى آباء المتهمين، وأخذ أقوالهم على أمل أن يعترف أحد  
منهم على ابن الآخر.  
لا.

لم يعترف أحد من الآباء على ابن الآخر.  
لا لأن كل أب سما بنفسه عن الوشاية بصديق لابنه.  
ولكن لأن أحدا من الآباء لا يعرف حتى اليوم من كان يقود  
السيارة.. لقد أخفوا السر حتى عن آبائهم.. بل إنى أعرف أنهم  
أخفوه حتى عن أمهاتهم.  
وأنا.

أنا المحامى الذى يتولى الدفاع عنهم، لا أدرى اليوم من كان  
منهم يقود السيارة.. وقد حاولت أن أعرف.. هذا الموقف  
العجيب وهذا الإصرار، أثارا فضولى إلى حد كبير.. فحاولت أن  
أعرف.. حاولت كثيراً.. ولم يكن معقولاً أن يخفوا عنى السر  
لأنهم يثقون فى.. فأنا محاميتهم.. وبرغم ذلك رفضوا أن يفشوا  
لى سرهم العجيب.. وقال لى محمد وأنا أناقشه :  
- لقد اتفقنا على أن ننسى من كان منا يقود السيارة.. وقد

■ وسام للمتهم ■

نسينا فعلا.. بذلنا مجهودا نفسيا كبيرا حتى ننسى.. وثق أننى  
لا أقاوم الآن الإفشاء بالسر، لأنى نسيته.  
يا سيادة القاضى.  
لماذا اتخذ المتهمون هذا القرار؟  
لأنهم يؤمنون بمبدأ : الكل فى سبيل الواحد، والواحد فى  
سبيل الكل.. لأنهم مصرون على ألا يتخلوا عن واحد منهم..  
وأن يتحملوا المسئولية معا.  
إنهم لا يحاولون التهرب من المسئولية.  
لا..

لو أرادوا التهرب من المسئولية، لتركوا القتل فى الشارع  
وهربوا.. ولما اعترفوا.. ولكنهم لم يفكروا أبدا فى التهرب من  
المسئولية.. كل ما أرادوه هو أن يحملوا المسئولية معا.. أن  
يكون الكل فى سبيل الواحد. أن يضحي ثلاثة منهم فى سبيل  
واحد.. وكل ذلك بدافع من الرجولة القوية.. وصلابة الخلق..  
والشهامه.. والتضامن أمام الخطر.  
ولكنهم بموقفهم هذا - دون أن يتعمدوا - خلقوا مشكلة  
قانونية.. فنحن أمام أربعة معترفين بجريمة لا يمكن أن  
يرتكبها إلا واحد.. وفى الوقت نفسه لا نعرف من هو هذا  
الواحد، حتى نحكم عليه.

وقد تخطت النيابة فى مطالبها.

لقد حاولت أن توحى إلى المحكمة بأن محمد هو الذى كان  
يقود السيارة، لأنه ابن أخى صاحب السيارة.. وهذا كلام  
لا يمكن أن يكون جديا.. فليس هناك ما يمكن أن يسمى «متهما  
بالقراية».. ولا تكفى أبدا قرابة محمد لصاحب السيارة حتى  
نعتبره الفاعل الأسمى.. مستحيل.. هذا منطوق لا يقره القانون

أو العدالة.. أن أى واحد من الأربعة يمكن أن يكون هو قائد السيارة لحظة وقوع الحادث، خصوصا إذا عرفنا أن الأربعة يجيدون القيادة وكل منهم يحمل رخصة قيادة.

ثم حاولت النيابة أن تكيف التهمة تكييفاً آخر.. حاولت أن تعتبر الأربعة فاعلين أصليين.. أى أن الأربعة كانوا يقودون السيارة فى وقت واحد.. وهذا أيضا مستحيل.. هذا إصراف فى الخيال.. ولا أريد أن أقول إنه تعنت فى توجيه الإتهام.. فلا يمكن أصلا وعملا أن يتولى أربعة قيادة سيارة واحدة فى وقت واحد. ولا أريد أن أرد على الكلام الكثير الذى قاله ممثل النيابة، عن جنون الشباب واستهتارهم.. ومحاولته الربط بين هذا الحادث، وحادث الأتوبيس الذى راح ضحيته عدد من القتلى نتيجة إهمال السائق.. هذا كلام، أعتبره كلاما فى غير موضعه.. ولا يستحق أن يرد عليه.

ولكن هذا لا ينفى أن هناك حادثا قد وقع راح ضحيته قتيل. وأن هناك أربعة معترفين بارتكاب الحادث، الذى لا يمكن أن يرتكبه إلا واحد منهم فقط.. وبما أننا لا نعرف وكلنا عجزنا عن معرفة سائق السيارة لحظة وقوع الحادث. فإنى واثق أنكم ستحكمون بالبراءة. ولكن البراءة لا تكفى.

هذا التضامن الرائع بين الشباب الأربعة.. هذه الشهامة.. هذه الصلابة.. هذا الخلق النظيف القوى.. هذه الروح الجديدة التى تنطلق من الجيل الجديد.. ليس بينهم جبان.. ليس بينهم من يتخلى عن زميله.. ليس بينهم من يريد أن يهرب بجلده. كل هذا..

يستحق وساما.

## غلظة حبيبي

ليس الذنب ذنبي ..  
مؤكد أن ليس لي ذنب في كل ما حدث ..  
لا يستطيع أحد أن يلومني .. ولا مصطفى .  
لقد أحببت مصطفى وأنا أعرف كل ما يمكن  
أن احتمله في سبيل هذا الحب .. أحببته وأنا  
مصممة على أن احتمل .. أن أضحي .. أن اجعل من حبه عالمي  
الذي أعيش فيه .. لا أريد شيئاً من العالم الآخر .. لا أريد شيئاً  
إلا أن أنام وأصحو وحبه في صدري .. هادئاً .. مستقراً ..  
لذيذا .

وكنت أعلم أن أكثر ما يجب على أن احتمله هو عمل  
مصطفى .

صحيح أني لم أكن أتصور أن يكون مشغولاً بعمله إلى هذا  
الحد .. ولكنني استطعت بسرعة أن أعود نفسي على انشغاله  
عني بعمله .. أن أبقى في انتظاره أياماً .. ثلاثة أيام .. أربعة ..  
أسبوعاً .. نلتقى ساعة أو ساعتين وأحادثه في التلفون

### ■ غلطة حبيبي ■

دقيقتين ، وقد يحدثنى خلالهما وهو يقرأ أو وهو يكتب . فلا أتبرم .. ولا أضيّق .. أبدا .. أبدا .. لقد كنت سعيدة .. سعيدة حقا .. سعيدة بحبى له . وسعيدة بإحساسى أنى احتمال فى سبيل شىء كبير .. فى سبيل أن أمنح حبيبي النجاح .. وكان ينجح .. كان يخطو خطوات سريعة عملاقة .. كأنه عفريت من الجن يفرض إرادته على المستقبل .

كنت أحس أنى أصنع هذا النجاح .

أحس إنى أمنح حبيبي القوة ليخطو خطواته العملاقة ..

وكانت هذه هى سعادتى ..

سعادتى العميقة .. الحلوة .. السعادة التى أستمدّها من

نجاحه وتفوقه .

ولكن مصطفى لم يكن يصدق .

لم يكن يصدق أنى أستطيع أن احتمله كل هذا الاحتمال ، ثم

أكون سعيدة .

وبدأت ألحظ شكوكه كلما التقينا أو كلما تحدثنا فى

التليفون .

كان يسألنى فى التليفون :

– بتعملى إيه ؟

فأرد فى بساطة :

– باشتغل كإنفاه .

وألحظ الشك والتهكم فى صوته وهو يقول لى :

– برضه .. دى انتى بقالك جمعة ، كل ما أسألك تقوليلى

إنك بتشتغلى كإنفاه .

وأتجاهل شكه وتهكمه وأرد قائلة ، وأنا أضحك :

■ غلطة حبيبي ■

- تصور أنى خلصت نص المفرش فى خمسة أيام .. مش  
أنا بطلة والنبي .  
ويضحك مصطفى فى تهكم ، يقول :  
- فعلا بطلة ..  
وفى مناسبة أخرى يسألنى :  
- رحتى فىن اليومين دول ؟  
وأرد :  
- أبدا .. قعدت فى البيت ..  
وتطل من عينيه نظرة تضطرب بشكه ويقول فى حدة :  
- يعنى قعدتى فى البيت أربعة أيام ماخرجتيش ؟  
وأرد وأنا أرفع إليه عينى كأنى أتوسل إليه أن يصدقنى .  
- وفيها إيه يا مصطفى .. أنت عارف أنى بأحب البيت .  
ويهز مصطفى رأسه ويزفر أنفاسه ، كأنه لا يصدقنى .  
ثم ..  
يتصل بى فى التليفون ، فيجد تليفونى مشغولا ، فيعود  
يتصل بى ويصرخ فى وجهى :  
- كنتى بتكلمى مين ؟  
وأقول :  
- كنت باكلم أختى ..  
ويرد من تحت أسنانه :  
- لا يا شيخة !!  
وأرد وقلبي يرتجف :  
- آمال حاكون باكلم مين يعنى !!  
ويقول فى تهكم :



■ غلطة حبيبي ■

- مافيش .. مش ممكن فعلا أنك تكلمى حد إلا أختك !!  
وشكوك مصطفى تزداد يوما بعد يوم .. عيناها تزدادان  
اضطرابا .. وكلماته تقطر بغل مكتوم .. إلى أن قال لى مرة :  
- أنا ساعات باكره شغلى علشان خاطرك .. وساعات  
باكرهك علشان خاطر شغلى .

قلت له يومها :

- أنا ما اسمحش لك تكره شغلك ، ولا تكرهنى .. لازم  
تحبنا احنا الاتنين .. واحنا الاتنين ممكن نستحمل بعض .. أنا  
أستحمل شغلك ، وشغلك يستحملنى .

وكنت أحاول أن أريحه من شكوكه .. أن أمسح النظرات  
المضطربة عن عينيه .. أن اجعل أنفاسه تنتظم فى صدره .  
ولكن كيف .. كيف يا ربى .. كيف أريح حبيبي من شكوكه.  
إلى أن صرخ فى وجهى مرة :

- أنا مش ممكن أقدر أصدق أن بنت عندها اثنين وعشرين  
سنة تفضل قاعدة فى البيت ، ولا تعملش حاجة إلا أنها تشتغل  
كنافاه .. الكلام ده كان أيام ستى .. مافيش بنت اليومين دول  
بتعمل كده أبدا .. وبصراحة أنا مش مصدقك .. أنا مش مطمئن.  
وقالت والدموع تملأ عيني :

- وتصدقنى إزاي يا مصطفى .. أطمئنك إزاي .. قول لى  
أعمل إيه ؟

وقال فى حدة :

- أنا مش ممكن أطمئن عليكى إلا لما الأقيكى مشغولة ..  
مشغولة فى حاجة عارفها .. حاجة جد .. مشغولة بشغل ، زى  
ما أنا مشغول بشغلى .

■ غلطة حبيبي ■

وقلت كأنى أتوسل إليه :

– ما أنا مشغولة يا مصطفى .. مشغولة فى البيت .. وفى الكنافاه .. وفى الراديو .. وفى التليفزيون .. ده أنا عملت سبع مفارش فى ست أشهر .. وإذا كنت عايز مستعدة أسمع لك أغانى الراديو كلها .

قال فى صراخ :

– مش كفاية .. مش مهم أنك تشغلى أيديكى .. ولا تشغلى ودانك .. المهم أنك تشغلى عقلك .

قلت :

– عقلى مشغول بيبك يا مصطفى ..

قال :

– ما هو ده الخطر .. طول ما عقلك مشغول بى .. يبقى بتفكرى أنك تقابلىنى .. ولما ما تقابلىنىش حاتزهقى .. ولما تزهقى ممكن تغلطى .. ممكن تعملى حاجات كتير غير الكنافاه .

وقلت فى استسلام :

– طيب عايزنى أعمل إيه يا مصطفى ؟

قال :

– عايزك تشتغلى ..

قلت :

– اشتغل إيه ؟

قال :

– أى حاجة .. سكرتيرة .. مذيعة فى الإذاعة واللا فى التليفزيون .. أى حاجة .

قلت :

■ غلطة حبيبي ■

- زى ما يعجبك يا مصطفى .. شغلنى ما طرح ما أنت

عيبين.

ولم أكن أريد أن أعمل .

والله العظيم لم أكن أريد أن أعمل .

كنت سعيدة فى البيت .

سعيدة بأشغال الكنافاه .

سعيدة بأغانى الإذاعة وبرامج التلفزيون .

سعيدة وأنا فى انتظار مصطفى ليقابلنى مرة أو مرتين فى

الأسبوع .

ولكن مصطفى صمم .

وأخذنى من يدي إلى التلفزيون .. وقدمنى إلى المختصين

هناك .. وأجروا لى امتحانا .. ونجحت .. أصبحت مذيعه فى

التلفزيون .. مقدمة برامج كما يسموننا .

وانقلبت حياتى كلها .

وانشغلت .

وكان أول ما انشغلت عنه هو مصطفى .. لم أعد أعيش معه

بفكرى وعواطفى أربعا وعشرين ساعة فى اليوم .. أصبحت

أعيش معه فترات متقطعة من يومى .. وأرقد فى فراشى كل

مساء فلا أكاد أفكر فيه حتى يغلبنى التعب وأنام .. وأصبحت

أنسى فى زحمة العمل أن أتصل بمصطفى فى التلفزيون كل

صباح .. وأنسى أن أقرأ له مقالاته التى كنت أحفظها عن ظهر

قلب.

أصبحت مشغولة .

مشغولة ..

### ■ غلطة حبيبي ■

ولم يشغلنى العمل نفسه .. ولكن شغلنى أكثر جو العمل ..  
شغلت بزملائى الكثيرين الذين يعملون معى فى التليفزيون ..  
وشغلت بخطابات المعجبين والمعجبات .. وشغلت بالدسائس  
والمقالب التى تدبر فى كل حجرة من حجرات المبنى الكبير .  
وبين زملائى كثيرين من الشبان المهذبين الناجحين .  
ربما كان أكثرهم تهذيبا ونجاحا ، هو محمود .  
وتوطدت الصداقة بينى وبين محمود .  
صداقة خالصة .  
قلبى لا يزال مع مصطفى .  
ولكنى أرى محمود كل يوم .. إنه إما فى مكتبى .. أو أنا فى  
مكتبه .

وهو فى حاجة دائما إلىّ .  
إن أحلامه الكبيرة تكاد أحيانا تعصف به .. وتكاد تلقيه فى  
هاوية اليأس .. وهو فى حاجة إلىّ حتى أقويه على أحلامه ..  
حتى أسند شخصيته المهزوزة .. حتى أمنحه القدرة ليخطو  
خطوات عملاقة نحو أمله .  
ودعانى محمود ليوصلنى إلى البيت بسيارته :  
ثم أصبح يوصلنى كل يوم .  
بل أصبح يمر علىّ كل صباح ليأخذنى معه إلى مبنى  
التليفزيون .

كانت صداقة .  
لا أكثر من الصداقة .  
ولم يكن هناك شىء أخفيه عن مصطفى .. صرحت له  
بصداقتى لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..

■ غلطة حبيبي ■

بصداقتي لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..  
وكنت أطلعته على مشاكل محمود في العمل ، كما أطلعته على  
مشاكلي .

وكنت أعتقد أن مصطفى يفهم حقيقة علاقتي بمحمود ، إلى  
أن قال لي مرة :

- شفتي محمود النهاردة ؟

وقلت في بساطة :

- طبعا .

قال وهو يتكلم من تحت أسنانه :

- وطبعا وصلك بعربيته .

قلت :

- أيوه .

وانفجر مرة واحدة صارخا :

- انتي بتشتغلي في التليفزيون ، ولا بتشتغلي في محمود .

قلت في هدوء :

- يا مصطفى .. ما تقولش كده .. أنت عارف أن محمود

صديقي .. أنا ماخبتش عنك حاجة .

وصرخ :

- أنا مش مطمئن للصداقة دي .. مافيش حاجة اسمها

صداقة .. راكبه في عربيته رايحة جاية ، وتقوليلي صداقة !

وقلت وأنا أكثر هدوءا :

- يعني عايزني أعمل إيه ؟

قال :

- عايزك تبطلي تعرفي اللي اسمه محمود ده .

■ غلطة حبيبي ■

- مش ممكن يا مصطفى .. ده زميلى .. يعنى أقوله إيه؟  
قال :

- قولى له بصراحة إنك بتحبنى واحد تانى .  
قلت :

- هو عارف أنى باحب واحد تانى .. وعمر الرجل ما طلب  
منى أكثر من صداقة ..  
وعاد يصرخ :

- ماتجلبيش سيرة الصداقة .. إنتى فاكرة أنى مغفل .. أنا  
باشتغل زيك .. وعارف الصداقة معناها إيه .. اشمعنى سى  
محمود ده اللى مصاحباه .. ما فيه ألف واحد فى التليفزيون .  
قلت :

- يا مصطفى خلى عقلك واسع .. يعنى أعمل إيه ؟  
وصرخ كأنه يطلق أبخرة كثيفة كان يختزنها فى صدره :  
- سيبى الشغل .. ارجعى اقعدى فى البيت .  
وقرديت برهة .. كدت أضعف كما تعودت أضعف أمام  
مصطفى .. ولكن شخصيتى الجديدة التى اكتسبتها من العمل ،  
انتصرت على ضعفى ، وقلت له فى ثبات :

- ما أقدرش يا مصطفى .. مابقتش أقعد فى البيت .  
وقال كأنه صدم :

- كده .. طيب اعملى اللى انتى عايزاه .. سعيدة !  
وعشت يوما كاملا أراجع نفسى .  
واكتشفت أنى فعلا لا أستطيع أن أعود لأبقى فى البيت .  
لا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى التليفزيون .  
ولا أستطيع أن أستغنى عن صداقة محمود .

■ غلطة حبيبي ■

ومصطفى يلومني .  
أبدا .. لا أستحق لومه .. ليس لي ذنب .. لقد كنت له بكل  
دقيقة من عمري .. وكنت سأبقى له بكل دقائق عمري .  
ولكنه هو ..  
هو الذي أخرجني من البيت .  
هو الذي أخذني بيده إلى التلفزيون .  
خاف على حبي له من فراغ حياتي .. فمأ حياتي حتى  
لم يعد فيها مكان لحبه !

## المثل الكبير ..

أكثر ما يضايقنى أن يتدخل الناس فى حياتى  
الخاصة.. وأن يصدروا علىّ أحكاما، ليست من  
شأنهم.. لقد حكموا علىّ أنى بائسة.. مسكينة..  
غلبانة.. وتمصمص العجائز شفاههن ويهمسن.. □  
يا ميلة بختها.. والنبي دى ضفرها بميت بنت.. ثم يتضحكن  
قائلات.. آل بنت آل.  
وأنا فعلا، بنت.  
بنت فى الخامسة والثلاثين من عمرى.  
وحتى أريح الناس، فإنى أقول فى وجوههم.. إنى عانس.  
أنا عانس.  
ولكن.  
من أدراهم أنى مسكينة، بائسة، غلبانة، وبختى مائل.  
لبانبا يفترض الناس دائما أن العانس لايد أن تكون بائسة.  
لا.. لا.. لا..  
لست بائسة.  
أنا سعيدة.



## ■ العقل الكبير .. ■

سعيدة جدا.. أسعد من ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتي أعرفهن، واللاتى فى مثل سنى.. وسعادتى نابعة من عقلى. الشعراء، وكتاب القصص، يقولون إن السعادة تنبع من القلب.. لا.. هذا كذب.. خيال.. السعادة تنبع من العقل.. وكما استطاع العقل أن يسيطر على القلب.. استطاع أن يحقق لصاحبه سعادة أكبر.

وكنت - ولا أزال - أعتمد على عقلى فى تنظيم حياتى، وفى تحديد تصرفاتى، بحيث أضمن لنفسى أكبر قدر من السعادة.. إنى أرسم صورة محددة لحياتى.. حياة سعيدة.. لا أعرضها لمجازفة، أو لمغامرة، أو لنزوة، قد تنتهى بنكبة.

الفرق بينى وبين بقية البنات.. أنى لا أبيع عمرى فى نظير لحظات سعيدة.. إن سعادتى دائمة، مستقرة ثابتة.. أما بقية البنات فسعادتهن لحظات من العمر، والباقى شقاء.

وأنا لا ينقصنى شىء لأتزوج.

إنى جميلة.. مثقفة.. ذكية.. غنية.. معاشى من المرحوم بابا قدره خمسة وعشرون جنيها فى الشهر.

ومنذ كنت فى السادسة عشرة والخطاب يقفون على بابى.. المهندس.. والدكتور.. والضابط.. بل تقدم لى مرة أحد كبار الصحفيين.

وكنت أرفضهم.

أرفضهم، لأنى منذ كنت فى السادسة عشرة، وأنا مقتنعة بأن الزواج فى حد ذاته لا يحقق السعادة.. وأن ليس المهم أن أكون زوجة، ولكن المهم أن أكون سعيدة.

عقلى الكبير استطاع أن يجنبنى الخطأ الكبير الذى تقع فيه البنات المراهقات، عندما يندفعن إلى الزواج.. والفرحة الساذجة تملأ قلوبهن.. الفرحة بالثوب الأبيض والطرحة.. والفرحة

■ العقل الكبير .. ■

بالدبلة الذهبية.. والفرحة بالزيطة والهيصة.. ثم يكتشفن بعد أيام أنهن زففن إلى الشقاء.. ويعشن عمرا شقيا.. لا ينفعن فيه لا الثوب الأبيض، ولا الطرحة.

نعم.. أنا عقلى كبير منذ كنت فى السادسة عشرة.

وليس معنى هذا أن ليس لى قلب.

إن لى قلبا.

قلبا كبيرا أيضا.

وقد أحببت بهذا القلب.. أحببت حسين.

وقد التقيت بحسين، وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى..

ومنذ اللحظة الأولى أحسست بتقاهم كبير بينى وبينه.. كان

عقلى يتجاوب مع كل ما فى عقله، وأخلاقى تتلاقى مع

أخلاقه.. ومزاجى مع مزاجه.. وأحبنى حسين.. ربما أكثر مما

أحبته.. كان يقضى معى كل دقيقة يستطيع أن يكون فيها مع أحد.

ولكن حسين كان ضابطا بحارا على إحدى المراكب

التجارية.. وكان يغيب فى البحر كثيرا.. يغيب شهرا.. ويعود

ليبقى معى خمسة عشر يوما على الأكثر.

وبرغم ذلك بقينا على حبنا.

وحبنا ينمو.

ولكنه كان حبا عفا نظيفا.. واستطاع عقلى أن يسيطر على

قلبى دائما ليبقى حبى عفا نظيفا.

ليس معنى هذا أنى لم أكن أحس بأنى فى حاجة إلى أن

أطلق حبى إلى مدى أبعد.. ليس معنى هذا أنى باردة.. عديمة

الإحساس.. ليس معنى هذا أنى حنبلية متزمتة.. أبدا.. كل

ما هنالك أنى لم أكن أريد أن أعود نفسى على تصرفات

لا أضمن نتائجها.. ولا أضمن مدى حاجتى إليها بعد أن أعود

## ■ العقل الكبير .. ■

عليها.. دلتني عقلي على أني لو عودت جسدي على حسين.. لو أطلقت معه غرائزي الطبيعية.. فإنني سأتعذب، لأن حسين يغيب عني كثيرا.. إنني لا أستطيع أن أكون له ليلة، ثم يغيب عني ستة أشهر، حتى تعود مركبه.. لا.. لا أستطيع.. إنني قد أجد نفسي في هذه الحالة معرضة للانحراف.. معرضة لمقاومة حاجتي الجسدية، وقد لا أستطيع مقاومتها، فأنحرف وأخون حسين مع رجل آخر.. لا.. لن أعود نفسي على شيء من هذا. وقد تقدم حسين لخطبتي.

ولكني رفضته.

هل هذا معقول ؟

هل معقول أن ترفض فتاة الزواج من الرجل الذي تحبه؟ معقول جدا، إذا اكتشفت بعقلها الكبير أن حبيبها لا يمكن أن يحقق لها حياة زوجية مستقرة سعيدة.. وإذا كان في زواجها به ما يعرض حبها للتلف، والضياع والنكبات. وقلت كل ذلك لحسين.

قلت له إنني لا أستطيع أن أتزوجه لأن عمله يحتم عليه أن يغيب عني طويلا.. شهورا بأكملها.. فلن نستطيع أن نقيم بيتا سعيدا.. بل قلت له إنني لو تزوجته، وتعودت على أن يكون لي رجل، فلن أضمن أن أصون نفسي من الانحراف، وهو يغيب عني مددا تصل إلى عشرة أشهر في العام، ولا يمنحني سوى شهرين توزع أيامهما على مدار السنة.. وفي الوقت نفسه فإنني لا أستطيع أن أطلب منه أن يستقيل من عمله، ويضحى بمستقبله، حتى يقيم معي البيت السعيد.

تناقشنا مناقشة منطقية واقعية.

واقنتع حسين.

وقرر أن يبحث عن عمل له في شركة القناة.. فإن ضباط

## ■ العقل الكبير.. ■

البحرية فى القناة لا يسافرون فى أعالى البحار.. إنهم لا يغيبون عن بيوتهم أكثر من ليلة أو ليلتين فى الأسبوع. ولكن حسين لم يوفق فى الالتحاق بشركة القناة، ظل يعمل على مركبه التجارى.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبننا فى حدود إمكانياتنا على ممارسة الحب، والتمتع به.. وإمكانياتنا لا تتعدى هذا الحب الرائع الأفلاطونى.. حب أقرب إلى الصداقة الحلوة الجميلة:

وظل حسين معى بعد أن رفضت الزواج به. ثم سافر بمركبه إلى دول أمريكا فى رحلة طويلة استغرقت ما يقرب من عام.

وعاد ليعرض على الزواج مرة ثانية. وصمم فى هذه المرة.

إنه يريد أن يكون له بيت يعود إليه.. ويريد أن يكون له أولاد يفرح بهم.

لا تكن ساذجا يا حسين.. إنك لا تستطيع.. ليس المهم أن يكون لك بيت، ولكن المهم أن يكون لك بيت سعيد.. وليس المهم أن يكون لك أولاد، ولكن المهم أن يكون أولادك سعداء.. وأنت لا تستطيع أن تكون سعيدا إلا فى الحدود التى رسمتها لك.. لا يمكن أن تكون سعيدا فى بيت تخشى فيه زوجتك على نفسها من الفتنة والإنحراف.. ولا أن تكون سعيدا بأولاد يعيشون كل حياتهم بلا أب.. كأنهم يتامى.

ولكن حسين صمم.

وأنا أشفق عليه من تصميمه، وعقلى الكبير يرفض أن يستجيب له.

وذهب حسين وتزوج.

تزوج فتاة أخرى.

■ العقل الكبير .. ■

إنى واثقة من أننى أسعد من هذه الفتاة الأخرى التى تزوجها.. إنى على الأقل لا أقضى عشرة أشهر فى العام، بإحساس الأرملة، أنتظر أن تعود الحياة إلى زوجى، يوم تعود مركبه إلى الاسكندرية.

وانتهت قصتى مع حسين.

وكنت فى هذه الأثناء قد قررت أن أكمل دراستى فالتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية.. وقد منحتنى الجامعة مزيدا من السعادة.. إنى سعيدة.. سعيدة.. وقد تقدم إلى وأنا فى الجامعة ثلاثة من زملائى ليخطبونى.. ومعيد.. ولكن.. لا.. إنى لا يمكن أن أتنازل عن إكمال دراستى.. وفى الوقت نفسه لا أومن بأنى أستطيع أن أكون سعيدة لو تزوجت وبقيت فى الجامعة.. لماذا.. لماذا أقسم نفسى إلى اثنين.. وأعيش حياتين.. ما حاجتى إلى كل هذه الريبة؟ إما أن أكون زوجة وأما.. وإما أن أكون طالبة فى الجامعة. وفضلت أن أكون طالبة.

عقلى الكبير هدانى إلى أن أكتفى بأن أكون طالبة.. ورسم لى عالما محددًا أستطيع أن أكون فيه سعيدة.. وكنت سعيدة فعلا.

وتخرجت.

واشتغلت فى إحدى السفارات.. بمرتب خمسة وعشرين جنيها، إذا أضيفت إلى معاش أبى فقد أصبح دخلى خمسين جنيها.

إنى غنية.

إن الإحساس بالفنى سعادة أخرى.  
سعادة كبيرة.. واطمئنان.. وهدوء بال.  
ثم التقيت ببهجت.

## ■ العقل الكبير .. ■

كان بهجت هو حبي الثاني.. وكان يختلف اختلافا كبيرا عن حسين.. فبرغم أنه تخرج من الجامعة واشتغل محاسبا، إلا أنه كان يبدو في حاجة إلى في كل كبيرة وصغيرة.. أصبحت أنا التي أنتقى له ثيابه وربطة عنقه.. وأنا التي أحل له مشاكله مع رؤسائه ومع أمه.. وأنا التي أنتقى له الكتب التي يقرأها.. بل أنا التي علمته كيف يبدو إنسانا محترما كاملا.. مهذبا.

وأحبني بهجت في وله.. كان عنيفا مندفعاً في حبه.. ولكن عقلي الكبير استطاع أن يسيطر عليه كما يسيطر على.. فلم أندفع معه إلى أكثر من الحدود التي رسمتها لنفسى، والتي أصون بها نفسى من التعود على أن أطلق غرائزى الطبيعية.. دون أن أتأكد من مصيرى.

وطلبنى بهجت للزواج.

وكان يمكن أن أتزوجه.

ولكن.. أمه!

إن بهجت يقيم مع أمه ولا يستطيع أن يتركها.. وهو فى الوقت نفسه مقتنع بأنى لن أطيق أن أعيش معها إذا تزوجنا.. إنها شرسة.. جاهلة.. لا يمكن أن تفهمنى.. ولا يمكن أن تعيننى على إقامة بيت سعيد، أسعد فيه.. وحتى لو ضحى بهجت بأمه وقرر أن نقيم أنا وهو بعيداً عنها، فهو سيبقى مسئولاً عنها مادياً.. وهو لا يستطيع أن ينفق على بيتين.. بيتى وبيت أمه.. مشكلة لا حل لها.

ماذا أفعل.

هل أجازف وأقنع بهجت، بأن نقيم مع أمه.. ثم أحاول أن أتحمّلها.. أو أحاول أن أخفف من شرستها.. ليه.. لماذا؟.. لماذا أضحى بعالمى السعيد، لأقتحم عالماً لست واثقة من سعادتى فيه؟!

## ■ العقل الكبير .. ■

عقلي الكبير يرفض هذه المجازفة.. هذا الاندفاع.  
ورفضت أن أتزوج بهجت.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقي  
على حبنا في حدود إمكانياتنا.. حب أقرب إلى الصداقة الرائعة  
الحارة.. وسر قوتي هو أنى لم أقبل أبدا أن أنقاد إلى الحب إلى  
أبعد من هذه الحدود.

لو أنى اندفعت مع بهجت.. لو أنى تماذيت معه بحيث أفقد  
سيطرة عقلى على قلبى وعلى جسدى.. فربما قبلت زواجه،  
وعشت في جحيم أمه.. يا حفيظ.

وأنا الآن في الخامسة والثلاثين من عمري.  
عانس.

ولكنى سعيدة.

سعيدة أكثر من سعادة ثمانين في المائة من الزوجات  
اللاتى فى مثل سنى.

وسعادتى تنبع من عقلى، لا من قلبى، ولا من جسدى.  
أقدرى ما يقوله الناس؟

إنهم يقولون إنى لم أتزوج حتى لا أفقد معاش أبى.  
أبدا والله العظيم.

لا تصدقهم.

إنه معاش كبير.. خمسة وعشرون جنيها في الشهر..  
ثلثمائة جنيه في العام.. إيراد خمسة عشر فدانا.

ولكن لا تصدق الناس.

أرجوك.

إنى سعيدة.

وهذه الدموع.. هى دموع سعادتى.. وفرحتى بعقلي الكبير.

## أزمة المثقفين ..

عطيات.. عزيزتى..  
وكان يجب أن أناديك : «زوجتى العزيزة»..  
ولكن، لا.. سواء كنت زوجتى أم لم تكونى.. فأنت  
دائما : عزيزتى، أنت دائما، عطيات العزيزة. □

لقد كذبت عليك يا عزيزتى..  
أنا لم أسافر إلى الإسكندرية لأتم بحثى عن البيروقراطية  
كما قلت لك.. أبدا، البحث قد تم وستفاجئين به منشورا فى  
الجريدة غدا.

لم أسافر إلى الإسكندرية إلا لأكتب لك هذا الخطاب..  
منذ متى وأنا أريد أن أكتب إليك؟  
منذ سنتين.

ربما قبل أن ينقضى شهر العسل.. عسلنا!  
وكنت طول هذه المدة أتردد فى الكتابة إليك، لأنى كنت فى  
كل يوم أكتشف فى نفسى شيئا جديدا أريد أن أطلعك عليه..  
ثم لأنى لم أكن قد وجدت القرار الذى يجب أن أنتهى إليه بعد  
أن أطلعك على نفسى.. فلم يكن الأمر سهلا.. أبدا ليس سهلا



■ أزمة المثقفين .. ■

أن أحاول اكتشاف أغوار نفسي، وأن أكتشف الروابط بين  
عقلي الباطن وعقلي الصاحي، ثم أكتشف الخيط الذي يربط  
بين ثقافتى وبيئتى.. لأنتهى من كل ذلك إلى القرار الذى يحدد  
مصيرى ومصيرك.

وقد انتهيت إلى القرار.

أمس فقط انتهيت إليه .

أرجوك.. لا تجرى فوق السطور بسرعة حتى تصلى إلى  
معرفة هذا القرار.. أرجوك.. أنا فى حاجة لأن تقرئى كل سطر  
من سطور خطابى وكل كلمة، بإمعان.. بكل عقلك.. فلا تجرى..  
وسأطلعك على القرار منذ الآن، حتى لا تجرى.

القرار هو : أنت طالق.

نعم يا أعز الناس.. طلقتك!

هل صرخت؟

هل بكيت؟

هل غضبت؟

أرجوك يا عطيات.. فلم يكن بيننا أبدا صراخ، ولا بكاء،  
ولا غضب.. لقد اختلفنا كثيرا من قبل، وتعودتا أن نناقش  
خلافاتنا بالمنطق.. بالعقل وحده.. وكانت ثقافتى وثقافتك  
تحمينا دائما من العواصف النفسية التى يتعرض لها السوقة  
الذين لا تعينهم ثقافتهم على الوصول إلى أغوار النفس.. إلى  
البؤرة التى تنطلق منها العواصف، حتى يسيطروا عليها.  
إنى أكتب لك هذا الخطاب بثقافتى.

فإن أى قرار مهما بلغت قسوته، يخفف منه الفهم.. وأنا  
أريدك أن تفهمينى، كما فهمت نفسى، حتى لا تتهمينى  
بالقسوة.. وحتى لا تعرضى نفسك للإحساس بالظلم.. وميلة  
البخت.

والآن.

الأسباب.

أسباب القرار الذى انتهيت إليه.

إن من حقدك أن تعرفى هذه الأسباب بتفاصيلها.. ولكى أطمئنتك.. أؤكد لك منذ الآن أنها ليست أسبابا متعلقة بك.. أنت زوجة فاضلة.. أنت خير الزوجات.. أنت عصارة ما فى الحياة من غذاء.. غذاء الروح، وغذاء العقل، وغذاء الجسد.. أنت مشبعة ولكن الأسباب كلها متعلقة بى أنا.. أنا الذى كنت أخوض المعركة وحدى.. وكان يجب أن أكون أنا الذى أتخذ القرار.. وحدى أيضا.

وسأضطر أن أعود إلى الوراء سنوات حتى لا تحتارى فى فهمى.. سأمر بسرعة.. فإن معظم أحداث حياتى تعلمينها، وإن كنت لم تفكرى فى ترتيبها، ترتيبا مسلسلا بحيث تصل بك إلى قرار بالطلاق.

لقد تركت قرينتنا فى مديرية قنا لألتحق بالجامعة وأنا فى السابعة عشرة من عمري.. وكانت نقلة كبيرة بين حياة القرية، وحياة القاهرة بالنسبة لى.. نقلة لم يسبقها إعداد نفسى، ولا إعداد عقلى.. وبهرت.. وبقيت ثلاث سنوات مبهورا.. والبهرة تشل كل إنطلاق يمكن أن يندفع فيه شاب فى مثل عمري.. كانت بنات الجامعة والنساء اللاتى أراهن فى شوارع القاهرة، مخلوقات غريبة بالنسبة لى.. غريبة بالنسبة لأمى التى لا تخرج من بيتها، إلا وهى مختفية فى زعبوط يخفى حتى عينيها.. وغريبة بالنسبة لأختى التى حجرت بجانب أمها منذ كانت فى السابعة، ولم تخرج من دارنا إلا إلى الدار الأخرى.. أقصد، دار زوجها.. وغريبة بالنسبة لزينة.. الفتاة التى ذبحها شقيقها لأنها أطلت على ابن عمها مكشوفة الوجه.

## ■ لزمة المنقفين .. ■

ولكن هذه أنجھرة.. وهذه الغربية.. بدأت تخف شيئاً فشيئاً.. ومنذ أصبحت فى السنة الثالثة بكلية الآداب، بدأت أختلط بالبنات، وبدأت أجهد نفسى فى أن أبحث عن مبررات منطقية لتصرفاتهن مع الأولاد.. وبدأت كثير من هذه المبررات تتسرب إلى منطقتى.. وأصبحت أذهب مع البنات إلى الرحلات الجامعية دون أن أفقد احترامى لهن.. وأصبحت أرى الواحدة منهن ترتدى بنطلونا يبرز كل قطعة من جسدها، ودون أن أفقد اقتناعى بها.

والواقع أن سرعة اقتناعى بتصرفات البنات، كانت تصحبها سرعة فى تحررى من إحساسى بالمسئولية عن المجتمع كله.. وعن مجتمع الجامعة بالذات.. كان إحساسى الفردى قد بدأ يطفى على إحساسى بالمجتمع.. وإحساسى بمسئوليتى عن نفسى بدأ يسبق مسئوليتى عن الناس وبنات الناس.. بدأت أقبل البنات كما هن، ما دام هذا لن يتسبب لى فى خسارة.. وما دمت لست مسئولاً عن واحدة منهن.

أقول لك هذا، لترى الفرق بين الاقتناع والإحساس.. فالذى تغير فى هذه الفترة ليس اقتناعى، ولكنه إحساسى.. نتيجة تغير المجتمع الذى أعيش فيه.. ففى قرينتنا كان إحساسى يشمل القرية كلها.. ولكن هذا الإحساس تقلص فى القاهرة، إلى أن أصبح إحساساً فردياً.

وقد كان لى فى نهاية سنوات الجامعة، والسنوات التى أعقبته، علاقات مع بنات كثيرات.. لم أحب.. بمعنى الحب الذى عرفته معك.. ولكنها كانت علاقات تستطيعين أن تسميها صداقة متحررة.. تصل إلى حد تبادل القبلات، وأكثر من ذلك قليلاً.. وكنت أقبل هذه الصداقات أيضاً بإحساس اللامسئول.. اللامبالى.. وكان هذا الإحساس يترك على ذهنى غلال رقيقة،

### ■ ازمة المثقفين .. ■

أبدو بها كأنى مقتنع بهذا النوع عن العلاقات، وهذا النوع من البنات.. ولكنه لم يكن أبدا - كما اكتشفت أخيرا - اقتناعا أصيلا.

ثم.

سافرت إلى باريس كما تعلمين، لأعد رسالة الدكتوراة. وقد سافرت وأنا أرسم لنفسى عن باريس صورة العاصمة الإباحية، المنحلة، المتهتكة.. ولم تستطع قراءتى الكثيرة عن عظمة الأدباء الفرنسيين أن تخفف من هذه الصورة.. فقد كان يخيل إلىّ دائما أن هؤلاء العظماء ليسوا واقعا.. إنهم تاريخ.. إنهم فى السماء.. أما باريس فهى مدينة منحلة، بلا عظماء، وبلا مبادئ.

ولكن عندما عشت فى باريس بهرت بثقافتها.. إن ثقافة باريس، وجديتها، وكفاحها فى سبيل رقى العقل البشرى، أمر واقع.. ليس تاريخا.. إنه واقع باريس.. إن الثقافة على الأرضفة.. وفى المقاهى.. وفى البيوت.. وفى عقول كل البنات.. حتى العاهرات.. فإذا كان هذا الواقع الثقافى هو الذى فرض مظاهر الإنحلال على باريس.. فلا يمكن بعد هذا أن يسمى انحلالا.. أبدا.. هذا الذى يسميه الناس انحلالا، ليس سوى انتصار العقل.. انتصار الثقافة.. إنه التقدم الذى يصنعه الإنسان.

واقتنعت بباريس.

بكل ما فى باريس.

وانتهيت من الدكتوراة فى خلال عامين.. نلتها مع درجة الشرف.. ولكنى بقيت فى باريس لأعد دكتوراة أخرى. وتزوجت كما تعلمين.

تزوجت زميلتى فى الجامعة.. فرانسواز.

## ■ أزمة المثقفين .. ■

ولم تكن فرنسواز عذراء.. عرفت أنها ليست عذراء من قبل أن أتزوجها، وبرغم ذلك تزوجتها.. لم أفكر لحظة واحدة في أنها ليست عذراء.. إن ثقافتى رفعتنى كثيرا فوق هذه التوافق.. عذراء.. ماذا يعنى أن تكون الفتاة عذراء أو ليست عذراء.. لا شىء.. لا شىء بالمرّة.. ولم يكن هذا الموضوع قط مثار نقاش بينى وبين فرنسواز.. ولا حسب أحدنا حسابه.. لم أحس أنها نقصت حثة، لأنها ليست عذراء.. أبدا.. أبدا.. ليس هناك ما أعانيه لا فى عقلى ولا فى إحساسى.. وكل ما عرفته عن فرانسواز أنها كانت تحب شابا قبل أن تلتقى بى، ثم هجرته.. وبرئت من حبه.. وحتى هذا لم يثر فى أدنى تردد فى الزواج بها.. لماذا.. إن من حقها أن تحب.. لم يكن معقولا، ولا منطقيا أن تبقى حتى تلتقى بى وهى فى السابعة والعشرين من عمرها، دون أن تحب.. دون أن يكون فى حياتها رجل. وقضيت معها ثلاث سنوات من أسعد سنوات عمرى. إنى لم أنكر سعادتى معها، عندما حدثتك عنها.

ثم.

ماتت فرنسواز.. فى حادثة.

ولم أناقش موتها.. فمناقشة الموت جدل سفسطائى.. والحزن على الموت حزن عقيم.. سخيّف.. تنطلق إليه العواطف الجاهلة.. لا العواطف المثقفة.. ولكنى ناقشت وحدتى بعدها.. وتعذبت بوحدتى.. وحزنت لوحدتى.. ليست وحدة جسدى، ولكن وحدة عقلى، ووحدة روحى ومزاجى وثقافتى.. فقد كانت زميلة روحى، وزميلة مزاجى.. وزميلة ثقافتى.

وعدت بعدها إلى القاهرة.

عدت ومعى باريس.

باريس فى عقلى، وفى قلبى.

### ■ أزمة المثقفين .. ■

وقررت أن أشتغل فى الصحافة حتى أفيد بثقافتى عددا أكبر من طلبة الجامعة.. حتى أساهم فى رفع المستوى الثقافى بين أهل مصر.. حتى أنتشلهم من أحاسيسهم الجاهلة، وأخرجهم من وراء قضبان المنطق العتيق الذى يحبس أفكارهم، ويحبس أحاسيسهم، ويحرمهم من متعة الانطلاق فى عالم أوسع وأرقى.. أوسع من الأسوار البالية التى أقاموها حولهم، وأرقى من التفاصيل الصغيرة التافهة التى يعيشون فيها. إلى أن قابلتك.

وكانت ثقافتك أرقى بكثير من الشهادة الجامعية التى تحملينها.

ولا أزال أذكر أول كتاب قررنا أن نقرأه معا.. لقد قررنا أن نعيد قراءة كل أعمال جان بول سارتر.. ويعيد كل منا تقييمه لها.. ولا أزال أذكر التعليقات التى كنت تتركينها على هوامش الكتب التى أقرأها بعدك.. كانت تعليقاتك كأنها تسجيل لآرائى.. كأنك تتلمذت على يدي.. لقد ارتبطت بك ثقافيا قبل أن ارتبط بك عاطفيا أو جسديا.

ولم يكن لجسدينا دور فى هذه الفترة.. لا أدري، هل عن عمد منك.. أم لأن ظروف لقائنا لم تكن تتيح لنا التعبير عن حاجة جسدينا.

المهم.

لقد عرضت عليك الزواج، ولم أكن قد قبلتك أكثر من ثلاث مرات.. واحدة فقط على شففتك..

وترددت أنت قليلا، ومررت سحابة قاتمة على عينيك، ثم

قلت :

- دعنى أفكر؟

ودهشت.. فمى تريدين التفكير.. إذا كنا قد ارتبطنا ثقافيا إلى

هذا الحد، وأدى بنا الارتباط الثقافى إلى ارتباط عاطفى.. فماذا  
بقى لتفكرى فيه.

وقلت لك فى دهشة :

- تفكرين فى ماذا ؟

ونظرت إلى طويلا.. نظرة ملؤها الحيرة.. وقلت وصوتك

ينضح بالعذاب :

- أريد أن أقول لك شيئا.

قلت والدهشة تستبد بى :

- ماذا ؟

قلت وأنت تحنين رأسك :

- إنى لست عذراء.

وأذكر ساعتها أنى ضحكت ضحكة كبيرة، وقلت :

- وماذا يعنى هذا؟

قلت :

- ألا يعنى هذا شيئا؟

قلت وآثار ضحكتى بين شفتى :

- لا.. لا يعنى شيئا.

ولكنى عندما أجبتك، قفز فى رأسى شىء لم أكن أتوقعه.

كانى تذكرت فجأة أنى فى مصر، ولست فى باريس.. نعم..

طوال هذه الشهور التى مضت منذ عدت من باريس.. أكثر من

عام.. لم أنتبه إلى أنى أصبحت أعيش فى مصر لا فى باريس..

لم أنتبه إلا عندما صرحت لى بأنك لست عذراء.

إن فرانسواز لم تصرح لى بأنها ليست عذراء - لم تكن

تعتقد أن هذا شىء يستحق أن تصرح به إلى.

إن فرانسواز.. باريس.

وأنت.. القاهرة.

## ■ أزمة المثقفين .. ■

وقد صممت أنت يومها على أن تروى لى قصة وكيل مكتب والدها الذى اعتدى عليك وأنت فى الثانية عشرة من عمرك.. وكيف أن أحدا لا يعلم بخبر هذا الاعتداء.. لا والدك.. ولا أمك.. لا أحد يعلم أنك لست عذراء سوى وكيل المكتب.. وأنا. ولم أكن أريد أن أسمع قصصك.. ولم يكن يهمنى أن أسمعها.. سواء كان الرجل قد اعتدى عليك، أو أنك كنت قد استسلمت له بإرادتك.. فهذا لا علاقة له بنا. وقد عدت تقولين، كأنك تصرين على إقناعى :

- كنت أستطيع أن أخفى عنك كل هذا.. وكنت أستطيع أن أجرى عملية جراحية تجعل منى عذراء مزيفة، حتى لا تكتشف شيئا بنفسك.. ولكنى فضلت أن أطلعك على الحقيقة ما دمت تريد أن تتزوجنى.

وأجبتك :

- إنك تتكلمين كالجاهلات.. كأنك فتاة قروية.. ماذا يعنى كل هذا الذى تقولينه.. لا يعنى شيئا أبدا.. إنى أريدك كما أنت.. بتجاربك.. إن هذه التجارب هى التى كونت الشخصية التى أحبها.. ثم إنك تنسين أنى إنسان مثقف.. وأنى عشت فى باريس.

وابتسمت أنت ابتسامة مسكينة.

ثم وافقت على الزواج.

ولكنك بعد أن تركتني.. وجدت نفسى يومها أتعرض لتيارات ذهنية كأنها تهب على من عالم سحيق.. بعيد.. عالم ظننت أنى تحررت منه.. هربت منه على أجنحة ثقافتى.. ووجدت نفسى، برغم إرادتى أناقش موضوع الفتاة العذراء من جديد.. كأنه موضوع فوجئت به.. وأخذت أقنع نفسى كأن فى داخلى تلميذا يتلقى المبادئ الأولى للفكر المتحرر.. قلت



## ■ أزمة المثقفين .. ■

لنفسى إن حرية الجسد لا تختلف بين المرأة والرجل.. وقلت  
لنفسى إن الفتاة التى فقدت عذريتها ليست أقل شرفا من الفتاة  
العذراء.. الشرف لا يمكن أن يعلق على قطعة واحدة من  
الجسد، ثم نترك باقى الجسد حرا يفعل ما يشاء، دون أن يفقد  
شرفه.. وقلت إن الشرف هو شرف الروح، والعقل.. شرف  
الضمير.. وشرف الكلمة.. وقلت إن المرأة ليست زجاجة  
مسدودة بالشمع الأحمر، مكتوب عليها : « لا تفتح إلا بمعرفة  
الزوج».. قلت لنفسى كلاما كثيرا.

وكان عقلى مقتنعا طبعاً بهذا الكلام.

ولكن بقى فى نفسى شىء يقلقنى.

وأصارحك اليوم بأنى تزوجتك كنوع من التحدى لهذا  
القلق.. تحدى نفسى.. تزوجتك لأنصر ثقافتى على هذا المجهول  
الذى يعيش داخلى ويقلقنى.

وكنت واثقا أن ثقافتى ستنتصر فى النهاية.

ولكنى منذ اليوم الأول لزواجنا.. ربما بعد أن التقى جسدانا  
لأول مرة، مباشرة.. اكتشفت أن الأمر بالنسبة لى ليس سهلا  
كما كنت أتصور.. وأن ثقافتى قد لا تنتصر.. فقد وجدت  
نفسى ساعتها أتمنى لو أنك كنت عذراء.. إنى لا أعرف ما هو  
الفرق الحسى أو العاطفى الذى يمكن أن أشعر به لو أنك كنت  
عذراء.. فلم يكن لى من قبل فتاة عذراء.. ولكنى وجدت نفسى  
أفكر فى هذا الرجل الذى اغتصبك وأنت صغيرة.. ولم أكن  
أشك فى قصتك التى رويتها لى.. لم يخطر على بالى أنك كذبت  
على.. أو.. لم يكن هذا يهمنى.. سواء صدقتك أو كذبتك.. كان  
كل ما يهمنى أن هناك رجلا آخر أخذك قبلى.. وأخذك بلا  
زواج.. وكنت أتصور هذا الرجل.. أتصوره بشعا كريها، ثم  
أشعر بكراهية عنيفة نحوه.. ثم أشعر بهذه الكراهية تدفعنى

■ أزمة المثقفين .. ■

إلى التفكير فى ارتكاب جريمة.. أريد أن أقتله.. نعم.. أريد أن أقتل.. تماما كأي فلاح من قرينتنا يكتشف ليلة الزفاف أن زوجته ليست عذراء.. أنا.. أنا.. أنا الذى أحمل فى عقلى وفى ضميرى كل هذه الثقافة.. الكنوز الهائلة التى تحوى كل مستقبل الإنسان.. أنا.. أفكر كفلاح قرينتنا.

ولكن فرنسواز أيضا لم تكن عذراء.  
وحاولت أن أقنع نفسى بأنك كفرنسواز.  
وحاولت أن أقنع نفسى بأنى ما زلت فى باريس.  
ولكن، لا.  
مستحيل.

أنت عطيات.. ليست فرنسواز.

وأنا فى القاهرة.. لست فى باريس.

ولكن ما هو الفرق ؟

لماذا أمتح فرنسواز حقوقا، لا أستطيع أن أمنحها لك بنفس

البساطة؟

لماذا لا أكون فى القاهرة، كما كنت فى باريس؟

فكرى معى.

لماذا ؟

ربما لأن جذورى تمتد فى مصر إلى بعيد.. إلى جد جدى..

إلى آخر أجدادى.. وليس لى جذور فى باريس.

وربما لأن المجتمع الذى كان يحيط بى فى باريس يختلف

عن المجتمع الذى يحيط بى فى القاهرة.. إنى لا أستطيع أن

أرى الجلايب فى الشارع، وباعة الترمس، ثم أتصور نفسى

فى باريس.. وقد كنت فى باريس أساير مجتمعتها حتى فى

تقاليده.. وأستسلم له.. ولكنى - وأنا فى القاهرة - لو فعلت

ما كنت أفعل فى باريس ، وأمنت بما أمنت فى باريس، فإنى

## ■ أزمة المثقفين .. ■

لا أستسلم للمجتمع، بل أتحداه.. وأنا لا أستطيع أن أتحدى المجتمع.. ثقافتى لا تمنحنى القوة الكافية لأتحداه.  
وربما.. ربما لأنى لا أشعر بمسئوليتى عن مجتمع باريس.. ولكنى أشعر بمسئوليتى عن مجتمع مصر.. فلم يكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل باريس، ولكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل مصر.

وربما لأن فرانسواز عندما فقدت عذريتها، لم تفقدها وهى تحس أنها ترتكب خطيئة.. أما أنت فقد اعتبرت نفسك ضحية.. واعتبرت نفسك موصومة بالخطيئة.  
وربما.. وربما.. عشرات «وربما».  
والمعركة تشتد فى داخلى.  
وقد اكتشفت أثناء هذه المعركة أنى تنازلت عن كثير من منطق ثقافتى التى تلقيتها فى باريس.

لقد كنت فى باريس أعجب بفن الليدو والفولى برجير.. الفن العارى.. وكان الجسد العارى فى نظرى ليس كشفا عن عورة، ولكنه تعبير عن جمال.

ولكنى عندما عدت إلى مصر كتبت دون أن أدرى مقالا أهاجم فيه نجمة سينمائية كشفت عن ساقها فى أحد أفلام.. وكنت فى باريس أقرأ لسارتر.. وألبرتو مورافيا.. وتنسى وليامز، دون أن أحس بأن أحدا منهم قد خدش ناموس الأخلاق وهو يكتب ويصف المشاهد الجسدية، بصراحة، ولكنى بعد أن عدت إلى مصر أصبحت أصب كل لذعة قلمى على أى كاتب يدمج فى إحدى قصصه مشهدا جنسيا.. و.. و.. تحولات كثيرة.. أو هى انحرافات طرأت على منذ عدت من باريس، وكان أقواها أنى أحاسبك بينى وبين نفسى، لأنك لست عذراء. والمعركة التى تدور فى صدرى لا تريد أن تسكت.

ويوما بعد يوم أفقد ثقتي فى نفسى. وفى ثقافتى.  
وبدأت أشعر بأنى منافق كبير.. وأنى أضحك على الناس  
بهذه الشهادات التى أحملها.. بأنى لست مثقفا.. علقى ليس  
مثقفا، وقلبى ليس مثقفا، وإحساسى ليس مثقفا.. الثقافة فى  
ذاكرتى فقط. كأنى مقرئ من مقرئى القبور، أحفظ آيات  
القرآن وأتلوها مائة مرة فى اليوم، ولكنى لا أعمل بها،  
ولا أحس بها.

وقد لاحظت أنت شرودى الدائم.. ولاحظت القلق المرتسم  
دائما فى عيني.. وحاولت جهدك أن تخفى عني، ولكنك  
لم تستطعي لأنك لم تكونى تدرين سبب هذا الشرود وهذا  
القلق.. وربما لاحظت أيضا أنى بدأت أتردد كثيرا على قريتنا  
فى الصعيد.. كنت أذهب إلى هناك وأجلس بجانب أمى،  
وأستريح.. أستريح من ثقافتى.. وأشعر أنى فى مكانى.  
أدرين.

لقد اكتشفت أن كل هذه الثقافة التى أحملها، ليست سوى  
كتاب أضعه فى جيبى، وأخرجه كلما أردت أن أستعين به فى  
كتابة مقال الجريدة.. كل هذه الثقافة ليس لها أثر فى منطقى،  
ولا فى نفسى.. إنها شئ اشتريته.. ووضعته فى جيبى.  
وهزمت أمام نفسى.

وكان يجب كى أستريح أن أفعل ما كان يفعله جدى.  
أن أطلقك.

فأنت لست فرنسواز.

أنت عطيات.

فرنسواز كان من حقها ألا تكون عذراء.

أما أنت.. فلا.

## حبیبی أصفر منى ..

أنا زوجة طلقت ثلاث مرات.  
إنهم ليسوا ثلاثة رجال.. ولكنه رجل واحد  
طلقنى ثلاث مرات.  
طلقنى.. لا.. أنا التى كنت أطلب الطلاق فى كل  
مرة.

وكنت أحبه.. ولكن حبى كان يصطدم بكرامتى.. وكرامتى  
كان يجرحها إصراره على أن يقضى ليلتين من كل أسبوع مع  
أصدقائه.. وأصدقائه كلهم عزاب.. هذا الصنف المستهتر من  
الشبان.. وأكثر من مرة ضببت أثرا من آثار لهوه مع  
أصدقائه.. آثار أحمر شفاه فى منديله.. آثار بودرة فوق  
قميصه.. ودائما أضبط هذه الآثار فى صباح الليلتين اللتين  
يقضيهما مع أصدقائه.

وحاولت أن أبعده عن أصدقائه.. فلم أستطع.. حاولت أن  
أقنعه بالأيسهر وحده.. فلم أستطع.. ثم طالبت أخيرا بأن  
يكون لى الحق فى أن أسهر وحدى خارج البيت فى الليلة التى

■ حبيبي أصغر مني.. ■

يسهر فيها.. لم لا.. إنى أومن بالمساواة.. أنا موظفة مثله..  
وأكسب مثله.. فلماذا لا يكون لى نفس الحقوق التى يمنحها  
لنفسه.. ولكنه كان يرفض.. ويصر على أن أبقى فى البيت  
وحدى.

وكنت أستطيع أن أخونه كما يخوننى.. أن ألهو مثل لهوه..  
ولكنى لم أفعل أبدا.. كنت أشعر بالتقزز كلما تصورت نفسى  
لرجلين فى وقت واحد.. جسدى يقشعر بمجرد أن أتخيل رجلا  
آخر يلمسنى غير زوجى.

لم أخنه.. ولكنى طالبت بالطلاق صونا لكرامتى.  
وظلقتنى.

قضيت ستة أشهر وأنا مطلقة.. وبرغم ذلك لم أحاول أن  
يكون لى رجل آخر.. أبدا، لم أحاول، رغم كل الإغراء الذى  
يحيط بكل شابة مطلقة جميلة.. كنت أعتبر نفسى فى كل يوم  
من الشهور الستة، كأنى مازلت زوجته.. برغم الحرمان  
الشديد الذى كنت أعانيه.

ثم أعادنى إليه.

وعدنى أن يغير من نفسه.

وعدت إليه.. ملهوفة إليه.

ولكنه لم يف بوعدده.

عاد كما كان.

وقاومت الصراع الذى اشتعل من جديد بين كرامتى  
وحبى.. قاومت طويلا.. إلى أن غلبتنى كرامتى.. فطلبت الطلاق  
مرة ثانية.. وظلقتنى.

وعشت مطلقة سنة كاملة.. لم أحاول أيضا أن يكون لى  
خلالها رجل آخر.. بل لم أحاول أن أتزوج.. اعتبرت نفسى أنى

لا أزال زوجته.. وتحملت الحرمان القاسي.. وكنت أضحك على نفسي عندما تشدد بي قسوة الحرمان، وأتخيل أن زوجي مسافر.. وأنه سيعود.. ويجب أن أحتمل إلى أن يعود.. وقد عاد.

أعادني إليه.. وأسرعت عائدة تحت ضغط عذاب الحرمان.. لم يكن الحب وحده هو الذي أعادني.. ولكنه الحرمان الطويل المر.. وواعد.

ولكنه أيضا لم يف بوعده.  
وقد فكرت في هذه المرة أن أخونه، حتى أتخلص من الصراع بين حبي وكرامتي.. ولكني اكتشفت أن الخيانة الزوجية ستفقدني الاثنين.. الحب، والكرامة.. وخير لي أن أحتفظ بأحدهما.. واخترت أن أحتفظ بكرامتي.. وطلبت الطلاق. وطلقني للمرة الثالثة.

هذه المرة أصبح الأمر مختلفا.. فإني لن أستطيع أن أعود إليه إلا بمحلل.. رجل آخر يتزوجني قبل أن أعود إليه.  
فهل أستطيع أن أتزوج رجلا آخر.. لا.. لا أستطيع إذا كان الزواج لمجرد أن أعود لزوجي الأول.. لا أستطيع حتى إذا كان هذا «المحلل» رجلا صوريا.. مجرد إجراء رسمي على الورق.. أحس أني سأظل موصومة بهذه الورقة الرسمية إلى الأبد.. إذا لم تترك أثرا على جسدي، فإنها ستترك أثرا على إحساسي.. على كرامتي.

وبرغم ذلك، بعد أن مرت الشهور.. شهور الحرمان.. بدأت كرامتي تلين.. وبدأت أتصور أني أستطيع أن أقبل على نفسي إجراء «المحلل».

ولكن زوجي لم يعد إلى.

سافر.

سافر إلى بعيد.

وبدأ الأمل يذوب.. وبدأت أحس أنى أنتقل إلى عالم آخر..  
عالم ليس فيه الرجل الذي كان زوجا لي.. وليس فيه  
أصدقائه.. وليس فيه أهله.. وليس فيه بيجامته المخططة..  
ولا فمه المفتوح الذي يتثائب به كل صباح.

وقد انتقلت فعلا إلى عالم جديد.. مجتمع جديد يضم  
زميلاتي وزملائي في العمل.. وأصدقاء جدد.. وجوه جديدة..  
وعادات جديدة.. وأصبحت أخرج في رحلات.. وأسهر سهرات  
بريئة.. سهرات ثقافية.

ولكني بقيت دائما السيدة الفاضلة.

لم أخطيء أبدا.

ولم أفكر في الخطأ إلا بعد أن عرفت صلاح.

كان صلاح إنسانا رقيقا.. مهذبا.. فنانا.. مثقفا.. وقد  
شعرت به منذ أول لقاء لنا، كما لم أشعر برجل آخر ممن  
يحيطون بي.

واحترت في بادئ الأمر في تفسير شعوري نحوه.. فهو  
مختلف عن زوجي الأول.. مختلف عنه في كل شيء.. زوجي  
الأول لم يكن رقيقا، ولا مهذبا، ولا فنانا.. كان عنيفا، ماديا،  
يسيطر على جسدي أكثر مما يسيطر على روعي.. وكنت  
أحبه.. فكيف أحب رجلا آخر مختلفا عنه.

وبددت الأيام حيرتي.

إنى أحبه.

أحب صلاح.



■ حبيبي اصغر منى.. ■

ولكن.. ماذا أفعل بهذا الحب.  
إن صلاح أصغر منى بأربع سنوات.. ولا يمكن أن أتزوج  
رجلا يصغرنى بهذا الفارق الكبير.  
وصلاح يريد أن يتزوجنى.  
لا.

لن أتزوجه.

لو تزوجته فسأصدم فى زواجى الثانى أكثر مما صدمت  
فى زواجى الأول.. لقد كانت مصيبتى فى زواجى الأول أن  
زوجى كان يكبرنى بعام واحد.. فماذا يحدث إذا كان يصغرنى  
بأربع سنوات.. إنى واثقة أن صلاح سيشعر بفارق السن بعد  
اليوم الأول من الزواج.. إنه يقول الآن إن فارق السن لن يكون  
له أثر.. ولكن هذا كلام يقوله قبل الزواج.. وكل الرجال يقولون  
قبل الزواج ما لا يقولونه بعد الزواج.

لا لن أتزوج.

إذن ماذا أفعل.

هل أكون له بلا زواج؟

مستحيل.

لقد مضى على علاقتى به أكثر من ستة أشهر دون أن  
أمنحه نفسى.. ولم يكن هذا سهلا على.. أبدا لم يكن سهلا..  
إنى أعانى من كل دقيقة فى عمرى.. فى كل دقيقة أريده.. كله..  
وفى كل دقيقة أقاوم ما أريد.. وأضغط على أعصابى لأحتمل  
الحرمان.. الحرمان القاسى.. حرمان تشتد قسوته كلما نظرت  
فى عينيه المتلهفتين إلى.. وكلما لمحت شفثيه الظامئتين إلى  
شفثى.. وكلما لمست يده الساخنة يدي المرتعشة.. وكلما احتكت  
كتفه المزدحمة بقوته بكتفى المحرومة.

وبرغم ذلك.

قاومت.

قاومت لأنى كنت أعلم أنى لو أصبحت لصلاح بلا زواج،  
فسيكون سهلا على بعد ذلك أن أكون لآى رجل بعد أن يتركنى  
صلاح.

خير لى أن أعود على حرمان جسدى، من أن أعود على  
ابتذال جسدى.

لا يا صلاح.. لنبق أصدقاء.

واضطر صلاح أن يكتفى بصدائتى.

كنا نخرج سويا كل يوم.. نتمشى على النيل.. ونزور  
أصدقاءنا.. ونرقص.. ونتناقش.. ونقرأ كتباً.. ونشترك فى  
الرحلات الجماعية.

وما زلنا مجرد أصدقاء.

إنى أحبه.

وهو يحبنى.

ولكننا مجرد أصدقاء.

وكانت تمر بى أيام أثور فيها على هذه الصداقة.. أيام أطالب  
فيها لنفسى بحقها فى الحب.. ولجسدى بحقه فى الارتواء..  
ولكن عقلى كان يخمد ثورتى.. أعقلى يا بت.. لا تتزوجيه، حتى  
لا تعيدى تجربتك مع زوجك الأول.. ولا تروى جسدى  
بلا زواج.. وإلا عودت جسدى أن يشرب بلا حساب.

إلى أن كان يوم.

وقال لى صلاح ونحن جالسان فى حديقة كازينو قصر  
النيل.

- شهيرة.. إنى أفكر فى الزواج لم أعد احتمل وحدتى .

■ حبيبي اصغر مني.. ■

ونظرت إليه بعينين متغطرسيتين وقلت : سنعود إلى سيرة الزواج.. ألم نتفق أن نكون أصدقاء.

قال في هدوء :

- إنى أقصد الزواج نفسه.. أى زواج.  
وانطلق الذعر من عيني.. ولكنى بسرعة ضبطت أعصابي،  
وقلت وأنا أحاول أن أجاريه فى هدوئه :

- ماذا تقصد.

قال مبتسما :

- ألسنا أصدقاء.

قلت :

- نعم.

قال :

- وأنت أقرب صديقة إلى.. بل إنك أكثر من صديقة فإن  
أمى كما تعلمين، ماتت.

قلت :

- إنى أحب أحيانا أن أكون أمك.

قال :

- إذن.. أخطبى لى.. أى واحدة تعحبك.

وضغطت على أعصابى بكل إرادتى، وقلت من تحت

أسنانى :

- بس كده.. حاضر.

وبدأت أعرض عليه أسماء بنات أعرفهن، وأنا أقنع نفسى

بأنه فقط يريد أن يغيظنى.. ثم قلت له وأنا أدعى اللامبالاة :

- ما رأيك فى ابنة خالتى.. لقد عرفتك بها من قبل.

وقال :

- إنها حلوة.

قلت :

- وسنها مناسبة.. ثمانية عشر عاما.. أصغر منك بست سنوات.

قال :

- فارق معقول.

قلت :

- وذكية.. ومثقة.. وست بيت.

قال :

- ودمها خفيف.

قلت :

- سأكلم أمها.

وما زلت معتقدة أن صلاح يغيظني.. لا يمكن أن يكون جادا في الزواج.. لماذا يتزوج.. إنه يستطيع أن يستغنى عن الزواج كما أفعل أنا.

ولكن.. هل استغنيت أنا عن الزواج.  
لا.

ولكني كنت قد قررت بيني وبين نفسي أن أتزوج رجلا يكبرني كثيرا.. لا تقل سنه عن خمسة وأربعين عاما.. مركز.. وثروة.. وأخلاق.. رجل أستطيع أن أستقر معه، وأن تهدأ حياتي معه.

ولكن صداقتي لصلاح كانت تؤجل تنفيذ قراري يوما بعد يوم.. فلماذا لا يؤجل هو الآخر قراره.

ولكنه يلح عليّ لاتصل بخالتي.

وانتابتني نوبة من العناد، والخطرة الكاذبة. واتصلت فعلا

■ حبيبي اصغر مني.. ■

بخالتي، وعرضت عليها صلاح زوجها لابنتها «تيما».. دلح، فاطمة.

ورحبت به خالتي.

ورحبت به فاطمة.

وكاد الكمد يقتلني.. ولكني بقيت على عنادي، وغطرستي.. أقوم بدور الخاطبة لصلاح.. بل إنى دعوته ودعوت تيما وأمها على الشاي في بيتي.. بيت أهلي.

وأنا أنتظر في كل يوم أن يعدل صلاح عن رأيه.

ولكنه لم يعدل.

وهو يفوضني في السير في إجراءات الخطبة.. ويستعجلني !!

وقلت له والمرارة تشق حلقى :

– الرجال لا يؤتمنون.. منذ شهرين فقط كنت تريد أن تتزوجني أنا.

قال :

– أنت رفضت.

قلت :

– لأنى أكبر منك.. وزواجنا لا يمكن أن يدوم.

قال :

– معقول.

قلت :

– لقد اكتشفت غلطتك بدليل أنك تريد أن تتزوج الآن تيما..

تتزوج والسلام.. أى واحدة.

قال :

– الرجل فى حاجة إلى الزواج.. والتوفيق بيد الله.. وأنا

أصغر منك، ولا أصلح لك.. وقد يوفقني الله مع تيماء.  
قلت :

– فعلا.. خير ما فعلت.

و..

وتحدد يوم إعلان خطبته إلى تيماء.

وأنا أتعذب.. وأطوى عذابي في كبريائي الكاذبة.. وابتسامة  
مرة أضعها على شفتي كلما رأيت صلاح.. وكما رأيت تيماء..  
ثم أبكي في فراشي.. وأصحو ذابلة.. كل شيء في يذبل..  
عيناى.. شفتاى.. قلبى.. عقلى.. أعصابى.. لقد نقص وزنى  
ثلاثة كيلو في شهر واحد.

وصلاح يسألنى :

– ما بك.

وأرد في كبرياء :

– لا شيء.. عاملة رجيم.

و..

وذهبنا أنا وصلاح نشترى دبلى الخطوبة..

انتقيت الدبلىتين بنفسى.. ودموعى مختبئة تحت جفنى.

ورفع الصائغ رأسه إلينا وسألنى :

– الاسم من فضلك.

وترددت قليلا.. ثم قلت :

– صلاح.

وعاد الصائغ يسأل :

– والاسم الثانى.

وفتحت شفتى.. ثم أغلقتها.. ودون أن أنظر إلى صلاح..

عدت وفتحت شفتى، وهمست في صوت خفيض :

■ حبيبي اصغر منى.. ■

- شهيرة.  
اسمى أنا.  
وسمع صلاح همستى برغم خفوتها، وصرخ فى الصائغ :  
- شهيرة.. الاسم الثانى شهيرة.  
ورفع إليه الصائغ عينيه كأنه يسأله لماذا هو فرح إلى هذا  
الحد.. إلى حد الصراخ.  
والتقط صلاح يدي وضغط عليها، وعاد يقول للصائغ فى  
هدوء :  
- العروسة اسمها شهيرة.. والعريس اسمه صلاح..  
والتاريخ تاريخ النهاردة.  
ثم جذبني.  
وسار بي كأنه يجرى.  
ودفعنى فى أول سياره أجرة.. وذهب بي مباشرة إلى  
المأذون.. كتبنا الكتاب.. بلا خطبة.. أغنتنا فترة الصداقة عن  
فترة الخطوبة.  
أتدرى ماذا تقول خالتي.  
إنها تقول إنى خطفت عريس ابنتها.  
إنها لا تعلم شيئاً.  
ولا تعلم أنى أعيش خائفة.. الخوف يمزقنى.. فحبيبي..  
زوجى.. يصغرني بأربع سنوات.

## استقالة عالمة الذرة ..

سيدي الوزير.  
صباح الخير.

هذا خطاب استقالة.. وكنت أستطيع أن أكتب  
استقالتي في كلمات قليلة.. «أرجو التفضل بقبول  
الاحترام».. وقد فكرت فعلا في أن أرسل إليك استقالتي في  
هذه الكلمات القليلة، حرصا على الطابع الرسمي بين الوزير  
وإحدى موظفات وزارته.. ولكنني تذكرت ما يمكن أن تسببه لك  
استقالتي من ألم.. وتذكرت برقيتك التي أرسلتها إليّ وأنا في  
أمريكا، بعد أن نلت شهادة الدكتوراه في علوم الذرة من جامعة  
هارفارد.. لم تكن برقية وزير، كانت برقية أخ كبير، وما زلت  
أذكر كلماتها حتى اليوم : «عزيتي عنايات، إني فخور بك»..  
كلمات ملأت قلبي بالفرحة.. أحسست أن مصر كلها فخورة  
بي.. وأن كل من في مصر أخ لي وأب وابن عم.. وكلهم  
فرحون بي.. ثم تذكرت الحياة التي عشتها بعد أن عدت،



وعينت فى المعهد القومى للبحوث.. لم تكن حياة موظفين، كانت حياة تسودها روح العائلة الواحدة.. ربما لأن العلم يرفعنا جميعا فوق روتين الحياة الرسمية التى يعيشها الموظف العادى داخل جدران الوزارة.. وربما لأننا كعلماء نحس أننا أضعف بكثير من الكون الهائل الذى يسعى العلم لاكتشافه، فنشعر بحاجتنا إلى أن نقرب بعضنا من بعض، عقليا وعاطفيا، لنتساند ويحتمى أحدهنا بالآخر، حتى لا نضيع فى هذا الكون الهائل.. وربما لأنك وأنت عالم كنت تنسى دائما أنك وزير.. فكنت معنا أخا وصديقا.

لذا.. لم أكن أستطيع أن أكتب استقالتي فى كلمات رسمية قليلة.. حقدك علىّ يتطلب منى أن أسرد لك كل مشكلتي.. بتفاصيلها.. إنها تفاصيل لا تهكم كوزير.. وربما أضحكك كعالم يستغرق العلم كل رأسه.. ولكنى واثقة أنها تهكم كأخ كبير.. واثقة أنك بروح الأخ تستطيع أن تقدر وتفهم كل ما سأرويّه لك.

تبدأ المشكة يا أخى الوزير، منذ أن تزوجت.. وانتقلت أنا وزوجى إلى بيتنا الصغير فى عمارة السعودية المطلة على النيل.. لقد أحبيت هذا البيت.. وضعت فيه كل أحلامى، وكل ذوقى، وكل حنانى ولكن البيت لم يشغلنى أبدا عن العمل.. كنت أنساه بمجرد أن أصل إلى المعهد وأرتدى المعطف الأبيض وأقف أمام مائدة البحث.. لا، لا.. لم أكن أنساه، ولكنى كنت أخبئه فى قلبى، وأترك قلبى ينام بين ضلوعى، ويبقى عقلى وحده صاحيا.. يعمل.. وتذكر سيادتك أنى كنت منكبة خلال هذه المدة على التجارب الخاصة بتأثير النظائر المشعة، فى علاج مرض تسوس العظام، وفى كل يوم.. فى الساعة الثانية

تماما.. كنت أشعر بقلبي يستيقظ من نومه، ويأخذنى من فوق العظام المسوسة، ويذهب بى إلى بيتى.. بيتى الذى أحبه.. ولم أكن أصل إلى البيت قبل زوجى، كما هو المفروض.. غالبا كنت أذهب بعده، برغم أن سيادتك أمرت بتخصيص سيارة لتوصيلنا إلى منازلنا.. ولم يكن زوجى يغضب.. أبدا.. فأنت تعرف أنه أستاذ الألكترونيات فى كلية الهندسة.. عقله واسع.. تلقى علومه فى سويسرا.. ويستطيع أن يقدر حلاوة الحياة التى يعيشها زوجان يشتغلان بالعلم.

وكنت أجده عادة، قد أعد المائدة ووضع الطعام، الذى طهوته فى الليل، على البوتاجان، ليسخن.. ونضحك ونحن نأكل.. وأروى له ما وصلت إليه فى بحثى عن تسوس العظام، ويروى لى ما وصل إليه فى بحثه عن الألكترونيات.. ثم نقوم ونغسل معا الصحون والأوانى.. ثم يخرج زوجى إلى الشركة التى يعمل مستشارا لها، بعد الظهر.. وأعود أنا إلى المعهد.. ولم يكن نظام العمل يضطرنى إلى العودة إلى المعهد، ولكنى كنت متحمسة لأن أنتهى من بحثى، حتى أجعلك تفخر بى مرة ثانية، كما افتخرت بى يوم نلت الدكتوراه بدرجة امتياز.

هكذا كنت أعيش أنا وزوجى.

لم أفكر أيامها فى أن أستاجر خادمة.. أبدا.. كنت أخاف على بيتى من الخادمت.. ولم أكن فى حاجة إلى خادمة.. كنت أفضل أن أعيش على نمط الحياة العائلية فى أمريكا.. أنا وزوجى نتعاون فى خدمة أنفسنا.. وفى كل يوم جمعة كنت أدعو البواب ليعاوننى فى تنظيف البيت نظافة كاملة.

إلى أن حملت يا سيادة الوزير.

هل رفعت حاجبك وأنا أحدثك بهذا الكلام.. لا تنس أنى

امرأة.. صحيح أنى أشغل فى علوم الذرة.. وصحيح أنى نلت  
الدكتوراة.. وصحيح أنى قضيت ثلاثة أرباع عمرى بين الكتب  
والمعامل.. ولكن كل هذا لا يعنى أنى لست امرأة.. لا يعنى أنى  
أصبحت عقلا الكترونيا.. ولا يعنى أنى أصبحت رجلا، مثلك،  
أو مثل زميلى الدكتور عوض.

إنى امرأة.. ولأنى امرأة رفضت أن أستعمل أى دواء يمنع  
الحمل. برغم أنى قدرت أن الحمل قد يشغلنى عن انهماكى  
واندفاعى فى بحث تأثير النظائر المشعة فى علاج تسوس  
العظام.

أتدرى ماذا كان أول ما فكرت فيه بعد أن حملت ؟  
خادمة.

لم أكن أستطيع أن أضع أى تنظيم لحياتى بعد الوضع،  
دون الاستعانة بخادمة.. ولم أكن أتصور أن الخادمة يمكن أن  
تكون مشكلة.. أبدا.. لم أكن أتصور هذا.

وكنت حاملا فى الشهر الخامس عندما أوصيت البواب أن  
يبحث لى عن خادمة.. أو على الأصح مربية.. وقد مضى أكثر  
من أسبوع دون أن يرسل لى البواب أحدا.. وعدت أسأله، فقال  
وهو يهز رأسه فى أسى :

- أصلهم عزاز قوى اليومين دول يا ست هانم.  
ولم أصدقه.. اعتقدت أنه كسلان.. وبدأت أوصى زملائى،  
وأقارب زوجى، أن يبحث لى كل منهم عن مربية، أو خادمة.  
وأخيرا. بعد شهر.. جاءتنى زينب.. امرأة فى الثلاثين من  
عمرها.. ضاحكة الوجه.. مليئة بالصحة والعافية.. نشطة.  
وفرحت بها.

عاملتها، أحسن مما يعامل أصحاب الملايين الأمريكان

■ استقالة عالمة الذرة .. ■

خادمتهم.. أعددت لها سريرا فى الحجرة التى أعددتها للمولود المنتظر.. وخصصت لها أربع ملاءات سرير، لتغيرها فوق سريرها.. و.. و.. لن أضيع وقتك يا سيادة الوزير، فى هذه التفاصيل النسائية.. ولكنى كنت أعامل زينب، كأنى رزقت بها قبل أن أرزق بطفلى.. وأعدتها لتحمل معى الأمانة الكبيرة.. أمانة تربية الطفل.

وعاشت معى زينب شهرين.. وفى كل يوم أثق فيها أكثر، إلى درجة أنى سلمتها كل مفاتيح البيت.. وكنت أعود من المعهد لأجد كل شىء معدا لى ولزوجى.. كأنى أعددته بنفسى.. بل إنى تحسرت على الأيام التى ضاعت من عمرى قبل أن تدخل زينب بيتنا.

وفى يوم.

خرجت زينب فى اجازتها الأسبوعية لتعود فى اليوم التالى.. ولكنها لم تعد.. ومر اليوم الثانى والثالث ولم تعد.. وارتعش قلبى.. لم أعد أستطيع أن أنيمه بين ضلوعى، ليتفرغ عقلى للبحث فى تأثير النظائر المشعة على مرض تسوس العظام.

ثم عادت زينب.

عادت لتبلغنى أنها لن تعود.

– ليه يا زينب؟

وأجابت وهى خجلة من بشاعة الجرم الذى ترتكبه فى

حقى :

– أصل جوزى رجعتى يا ستى.

قلت وأنفاسى تتلاحق :

– وماله يا زينب.. ما يرجعك وتفضلى برضه معانا.

وخبطت على صدرها قائلة :  
- يا خير يا ستي.. أنا جوزى ما يرضاش أنى أشتغل أبدا..  
ده أسطى مكوجى قد الدنيا.  
وقلت، وأنا أتوسل لها بعينى :  
- وهو الشغل عيب يا زينب.. مانا باشتغل أنا كمان.  
وقالت زينب :  
- لآى يا ستي.. مش ممكن.. أنا جوزى حاجة ثانية غير  
البيه بتاعك.  
وغلبت فى إقناعها.. إلى أن قلت فى يأس :  
- طيب خليكى لغاية مالاقى واحدة ثانية.  
وقالت :  
- معلش والنبي يا ستي.  
قلت :  
- بس الأصول أنك تدينى إنذار، القانون بيقول كده.  
ونظرت إلى كأنها تتحفز للدفاع عن نفسها :  
- قانون إيه يا ستي.. أنا لا سرقت، ولا قتلت.  
و...  
ولا أطيل عليك يا سيادة الوزير.. خرجت زينب من  
خدمتى.. هل يمكن أن تشعر بما شعرت به يوم خرجت زينب..  
لا.. فأنت لست امرأة.. لعل السيدة زوجتك تستطيع أن تقدر  
حالى.. حالة زوجة صغيرة على وشك الوضع تركتها خادمة  
مثالية.  
وبدأت أبحث عن خادمة أخرى.  
كانى أبحث عن كنز من كنوز الفراعنة.  
وبعد أسابيع أرسلت لى زوجة ابن عمى خادمة.. عصمت..

ولم أسترح لعصمت منذ رأيتها.. كانت فى العشرين من عمرها.. تحس بجمالها.. ونظراتها وقحة.. وبعد يومين بدأت تختفى أشياء صغيرة.. قلم روج.. فوطة.. قميص.. كرافتة.. وبعد أسبوعين قررت أن تختفى عصمت من حياتى.. طردتها.

ثم أرسلت لى أمى من الأسكندرية مربية عجوزا.. أم سنية.. واسترحت لها فى بادىء الأمر.. ولكنها كسولة.. غبية.. قذرة عملت طول حياتها فى بيوت لا تهتم اهتمامى بنظافة بيتى ودقة نظامه.. ووجدت نفسى بعد أيام أنظف وراءها.. طبق طعامها الذى تلقيه فى الحوض وتتركه ساعات قبل غسله.. ثيابها المبللة دائما التى تفوح منها رائحة العطن.. وكانت تأكل كثيرا.. لم أر فى حياتى يا سيادة الوزير عجوزا تأكل كل هذا الأكل.. وأنا لست بخيلة.. ولكن هذه المرأة تأكل بلا نظام.. تأكل كلما وجدت شيئا تأكله.

وتقرزت منها نفسى.

وطردتها.

ثم وضعت ابنتى.

وضعتها وليس عندى مربية أو خادمة.

وتذكر سيادتك أنى أخذت أيامها إجازة شهرين، قضيتها فى وأنا أفكر كيف أدبر حياتى وحياة ابنتى، فى الوقت الذى أعمل فيه بالمعهد القومى للبحوث، وأتفرغ بعقلى لعلاج تسوس العظام بالنظائر المشعة.

وكننت أقدر عملى.. لم يكن عملى مجرد مساهمة منى فى نهضتنا العلمية، بل كان هوايتى.. كان حياتى. وابنتى أيضا حياتى.

وفكرت.. فكرت كثيرا.  
فكرت أن أرسل ابنتى إلى أمى فى الاسكندرية لتربيتها..  
ولكنى أم يا سيادة الوزير.. ولا تستطيع أم أن تتنازل عن  
ابنتها حتى لأمها.  
فكرت أن أقنع أمى بأن تأتى وتقيم معى فى القاهرة.. ولكن  
مستحيل.. لا أستطيع أن أربك حياة أمى إلى هذا الحد.  
فكرت أن أضع ابنتى فى دار من دور الحضانة.. ولكن أين  
هى دار الحضانة التى أستطيع أن أضع فيها طفلة فى شهرها  
الثالث، وأنا مطمئنة.. ليس عندنا دور حضانة.  
فكرت أن أطبق نظام «رعاية الأطفال» أو «البيبي سيتر»  
المطبق فى أمريكا.. ولكننا فى مصر، ولسنا فى أمريكا.  
فكرت.. فكرت.. وكان كل تفكيرى منحصر فى تدبير حياة  
ابنتى، بحيث أتفرغ لرسالتى الكبرى.. رسالة استغلال الذرة  
فى سبيل سعادة الإنسان.  
ولم يهدنى تفكيرى إلا إلى أن أعود وأبحث عن مربية من  
جديد.  
وجاءت.. سعدية.. شابة سمراء مدربة.. فرحت بها، كما  
فرحت بزینب.. ومنذ اليوم الأول اطمأنتت على ابنتى بين  
يديها.. ودفعت لها الأجر الذى طلبته.. كنت قد قدرت لها  
خمسة جنيهات، ولكنها طلبت سبعة.. ودفعت لها السبعة..  
وقطعت إجازتى.. وبدأت أذهب إلى المعهد.. صحيح أنى لم أعد  
أستطيع أن أتفرغ بكل عقلى للبحث الذى أقوم به.. ولكنى كنت  
مطمئنة.. مطمئنة على ابنتى بين يدي سعدية.  
ولكن.  
بعد شهر واحد.

شهر واحد يا سيادة الوزير.. عادت سعدية من يوم إجازتها  
وطلبت حسابها لتخرج من خدمتى :

وصرخت :

- ليه يا سعدية.. حد زعلك.. ناقصك حاجة.

وقالت :

- أبدا يا مدام.. بس الجماعة اللي كنت عندهم عايزينى  
تانى.. وأنا الحقيقة متربية عندهم.

ولا أمل.

وقال لى البواب بعد أيام إنها لم تذهب إلى بيت مخدمها  
السابق، بل ذهبت لتعمل فى العمارة المجاورة، عند عائلة رفعت  
أجرها إلى تسعة جنيهات.

وعدت وانقطعت عن العمل لأجلس مع ابنتى.

فكرت أيامها أن أطلب منك أن تسمح لى بأن أعمل بعد  
الظهر، حتى أبقى مع ابنتى فى الصباح إلى أن يعود زوجى،  
فأتركها له وأذهب إلى المعهد.. ولكن.. مستحيل.. مستحيل أن  
أطلب من زوجى أن ينقطع عن عمله فى الشركة التى يعمل  
فيها بعد الظهر.. ثم أنها مسئوليتى أنا، وليست مسئولية  
زوجى.

وبدأت أستقبل خادمت جديدات.

فتحية.. كانت صريحة.. لم تبق إلا ثلاثة أيام، ثم جاءت إلى  
واعترفت أنها كانت متقدمة بطلب للعمل فى مصنع.. وقد قبل  
طلبها.

وخرجت.

ثم أخيرا.

خديجة.



كانت خديجة صغيرة.. فى الثامنة عشرة.. حلوة إلى حد  
أنى غرت من جمالها.. وجاءت إلى تلبس بلوفر «موهير» وجيب  
ترجال، وحذاء فرنى بكعب عال.. كلها مظاهر تخيفنى منها..  
ولكن لماذا أخاف.. إن الخادمت فى أمريكا بيدون أكثر أناقة..  
ثم إن خديجة لها ابتسامة تفتح القلب.. وقد فتحت قلبى.  
ومرت أيام، وأنا لا آخذ على خديجة إلا كثرة تطلعها فى  
المرأة.. وكثرة وقوفها فى شرفة البيت.. ولكنها كانت حنوناً  
على ابنتى.. وكانت تعرف كيف تداعبها.. وكيف تجذب النوم  
إلى عينيها.

وبدأت أواظب على الذهاب إلى المعهد.  
ولكنى لم أكن مطمئنة.

أصبحت أعمل بنصف عقلى.. أحياناً بربع عقلى.. وأحياناً  
يضيع عقلى كله، وأسرح وراء ابنتى.. وأتساءل.. هل ناولتها  
خديجة رضعة الساعة الثانية عشرة.. هل هى بجانبها الآن..  
هل.. هل..

وفى يوم.

كنت فى المعهد.. وكنت منكبة فوق الميكروسكوب أفحص  
العظام المسوسة.. وفجأة شعرت بنغزة فى قلبى.. قلب الأم..  
شعرت بأن شيئاً قد حدث لابنتى، ولم أحاول أن أتساءل عن  
سر هذا الشعور.. لم أحاول أن أكذبه.. وقفت جامدة برهة.. ثم  
انطلقت وأنا ما زلت أرتدى المعطف الأبيض، وجريت إلى خارج  
المعهد، وركبت تاكسى وعدت إلى البيت.. والهلع يشتد فى قلبى  
دقيقة بعد أخرى.. وأصرخ فى السائق :

- قوام من فضلك يا أسطى.  
إلى أن وصلت.

وجريت إلى المصعد.  
وجريت من المصعد إلى داخل الشقة.  
وسمعت شيئاً كالصراخ.. صراخ ضعيف.. ووضح الصراخ  
فى أذنى وأنا أقترب من غرفة ابنتى.. ابنتى تصرخ.  
ورأيتها.  
واقعة من فوق سريرها على الأرض.  
والحمد لله لقد كان تحت السرير سجادة سميكة، وإلا كان  
رأسها قد تهشم.  
وانحنيت عليها ملهوفة.. جزعة.  
الحمدلله.. سليمة.  
ولا أدرى ما حدث لى.. ولكنى تركت ابنتى على الأرض،  
لم أرفعها لأضعها على السرير، وجريت كالمجنونة أبحث عن  
خديجة.. ووجدتها واقفة على سلم المطبخ مع شاب يبدو عليه  
أنه طالب.. وقبل أن أفكر.. وجدت نفسى أندفع إليها وأرفع  
ذراعى وأنهال عليها ضرباً، وأنا أصيح :  
- يا مجرمة.. يا مجرمة.. أمشى اطلعى برة..  
اطلعى من بيتى  
وجرى الشاب من أمامى.  
وخرجت خديجة من بيتى.  
حدث هذا أمس.  
واليوم أجلس لأكتب لك هذا الخطاب.  
لأستقيل.  
سيدى الوزير.  
أرجوك.. لا تحاول أن تذكرنى بواجبى نحو بلدى، ونحو  
نهضتنا العلمية.. ولا تذكرنى بالسنين الطويلة التى قضيتها

لأجعل من نفسي إنسانة تستطيع أن تخدم وطنها فى مجال لم يتسع بعد لكثير من المواطنين، لا تذكرنى بالسلام.. وتقدم الإنسان.. فإنك لا تستطيع أن تضع كل ذلك فى كفة ثم تضع ابنتى فى الكفة الأخرى.. وتجعلنى أختار.. مستحيل.. إنك تنسى أنها ابنتى.. وأنتى أم.. وقد أستطيع أن أستقيل من واجبى كعالمة فى الذرة، ولكنى لا أستطيع أن أستقيل من واجبى كام.

والذنب ليس ذنبى.. إنه ذنب الدولة.. ذنب المجتمع.. إن الدولة عندما تشتري آلة جديدة فإنها تخصص لها عمالا يعاونونها على العمل.. واعتبرنى آلة.. ولكن عندما بدأت هذه الآلة تعمل لم تخصص لها الدولة عمالا يساعدها حتى تؤدي عملها على الوجه الأكمل.

الدولة لا تستطيع أن تطالبنى بالعمل إلا إذا طمأنتنى على راحة ابنتى.. وحياتها.

وأرجوك يا سيادة الوزير.. أرجوك إذا صممت على أن ترفض استقالتي، أن تبحث لى أولا عن مربية لطفلتى، وتضمن لى أن أطمئن عليها.

وتفضل أيها الأخ الكبير بقبول خالص تحيتى.

## كلام ستات

لا أدري لماذا قررت أن أعمل « رجيم » .. إنى لست سمينة .. ومدام أسبريدون الخياطة تقول إن قوامى يجنن ، وإنى أصلح لأكون موديلاً .. مانىكان .. وإنما تعتبر كل ثوب تصنعه لى دعاية لها .. وحتى لو كانت مدام أسبريدون تتافقنى .. فإنى أستطيع أن ألمح جمال قوامى فى عيون الرجال إذا استثنيت زوجى .

وبرغم ذلك قررت أن أعمل رجيماً .. ربما لأنه لم يكن لى شىء آخر أعمله .. وكان من ضمن الرجيم أن أمشى فى كل يوم ساعة .. لتنشيط الدورة الدموية .. ولم أكن أستطيع أن أمشى وحدى .. ولا مع زوجى .. فى قدم زوجى كالأول ولا يحب المشى .. فاتفقت مع صديقتى ، روحية وأنجى ، أن نمشى معاً .. كل يوم .. ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الرابعة .. فى الشمس الدافئة .  
روحية رفيعة .. ومشاكلها كثيرة .. وربما وافقت على

ممارسة رياضة المشى ، كرجيم لعقلها أكثر منه رجيما لجسدها .

وأنجى .. تعتقد فى نفسها أنها جميلة ، يابختها فالمرأة التى تعتقد فى نفسها أنها جميلة امرأة سعيدة ولم تكن أنجى أيضا فى حاجة إلى رجييم .. وربما لم تكن تحب المشى .. ولكنها قطعا تحب الاستعراض !!

وأنا أحب روحية وأنجى .. إنهما أعز صديقاتى .. ونحن الثلاثة نشير حسد كل النساء بصدافتنا والحب المتبادل بيننا .. كل منا تعرف عن الأخرى كل شىء .. بل إنى أستطيع أن أقلد شخير زوج روحية وهو نائم ، وأستطيع أن أعرف النقود التى يحملها زوج أنجى فى جيبه كل صباح .. إنها تعطيه كل صباح خمسين قرشا .. كمصروف خاص .. وهما لا يعرفان عنى أى شىء .. لا لأنى أتعمد أن أخفى عنهما شيئا .. ولكنى لا أحب أن أتحدث عن حياتى الخاصة .. كل ما يعرفانه هو الكالو الذى يتألم منه زوجى .

المهم ..

خرجنا فى اليوم الأول .. كنت ارتدى ثوبى البرتقالى الصوف .. صوف مصرى ، وكأنه صنع باريس .. كل صديقاتى اعتقدن أن زوجى اشتراه لى من باريس .. مدام اسبريدون الخياطة أيضا .. برغم أنها تعتبر خبيرة فى الأقمشة، اعتقدت أنى اشتريته من أوروبا .

وكانت روحية ترتدى الجيب الأسود الذى أراه عليها منذ عامين .. جيب ترجال .. لا أدرى كيف تطيقه كل هذا العمر .. وبلوزتها الخضراء .. والجاكت الجلد التى تبدو فيها كسائق

■ كلام سكتات ■

الأتوبيس .. غلبت فى أن اجعل روحية تهتم بثيابها .. إنها بخيلة .. ولا تشتري إلا ما يحتمل السنين .. ولكنها طيبة والنبي .. إنى أحبها .

وهلت علينا أنجى وهى ترتدى بنطلون « سترتش » لونه أحمر ، وبلوفر أسود .. والنبي ده كلام .. ده احنا طالعين سبور .. مش رايعين حفلة .. يبقى لازمة البنطلون إيه .. ولكن هكذا أنجى .. إنها تعتبر نفسها صغيرة .. نونو .. مع أنها ليست أصغر من ابنة خالتى عدلية .. إلا بستة أشهر .. ولكن أنجى دمها خفيف .. إنى لا أستطيع أن أستغنى عنها يوما واحدا .. حبيبتي .. صاحبتى .

وقد صحبت معى كلبى روك .. ليمشى معنا .. إن المسكين محبوس فى الشقة طول النهار والليل .. حرام .. وقد قالت لى روحية بمجرد أن رأت روك :

– ولازمة روك إيه .. عامل رجيم هو راخر .  
وأجبتها :

– علشان يبقى معانا راجل على الأقل !!  
إنى سريعة النكتة .

ويما أنى صاحبة فكرة الرجيم ، فقد بدأت أدرب روحية وأنجى على طريقة المشى الرياضى .. افردى ظهرك .. اشفطى بطنك .. ارفعى رأسك .. وأحكمت وضع نظارتى على عيني .. وبدأنا نسير نحن الثلاثة ، كثلاث فدائيات .. إن النظارة تجعل لى شخصية قوية .. وأنجى تغار من نظارتى .  
وكنا قد اخترنا أن نمشى فى شارع النيل ابتداء من عمارة أبو الفتوح حتى كوبرى عباس .. إن صديقتى عزة حرم محمد

## ■ كلام سننات ■

فهى مدير شركة الصاروخ ، تسكن فى عمارة أبو الفتوح ..  
وقد اشترت خاتما من عند باروخ فى الأسبوع الماضى ، وقالت  
إنها اشترته بثلاثمائة جنيه .. عزة تحب المبالغة .. إنها لطيفة  
ومهذبة ، ولكن عيبها هو المبالغة .. وقد ساومت باروخ منذ  
شهرين على نفس الخاتم وطلب فيه مائة وخمسين جنيها ،  
ولكنى لم أشتره ، لأنى سبق أن رأيت مثله فى إصبع فريدة  
هانم .. ولكن روحية تقول إن عزة لم تشتتر الخاتم ، ولكنها  
أخذته هدية من صديقها عبد العزيز .

- حرام عليكى يا روحية .

وقالت روحية وهى تمشى مشية الفدائيات :

- حرام ليه يا أختى .. الحق يتقال .. وعزة مزوداها حبتين  
.. دى ما بتحترممش جوزها أبدا .. زى ما يكون مش عايش  
معاها ..

وقالت أنجى :

- دمه تقيل عبد العزيز ده .. وعنيه لا يده على الستات ..  
ده ما يبطلش بص .

إن أنجى تعتقد أن كل رجل يطمع فيها ، حتى أزواج  
صديقاتها .. وحتى أصدقاء صديقاتها .. يا بختها .. إنى لست  
مغرورة ، ولكنى أحيانا أحسد المغرورات .

وقلت :

- حرام عليكى يا أنجى .. ده راجل مؤدب ، وما بيرفesch  
عينه عن الأرض .

وقالت أنجى وهى تنظر فى نظارتى :

- صدقينى .. أنا عارفاه كويس ، ومستعدة أحكى عنه

■ كلام سترات ■

للصبح .. بس انتى اللى ما بتخديش بالك .  
وقالت روحية :  
- سيبكم من عزة وعبدالعزيز .. تعرفوا اللى حصل  
لخديجة .  
وقالت أنجى :  
- مين دى خديجة ؟  
وقالت روحية :  
- خديجة شكرى :  
وقالت أنجى :  
- آه قصدك دودى .. مالها .. حصل لها إيه .. دى صاحبتى  
قوى .  
وقالت روحية :  
- مش اكتشفت أن جوزها واخذ شقة لواحدة طليانية .  
وقالت أنجى :  
- السافل .. كل الرجالة كده .  
وقلت :  
- يا روحية .. خافى ربنا .. بلاش سيرة الناس .  
وقالت روحية :  
- أمال حانتسلى فى إيه .. وأصل دى حاجات ما ينسكتش  
عليها .  
وقالت أنجى :  
- على كل حال دودى ما عملتش شوية .. هى المحقوقة ..  
ده كان جوزها لازم يطلقها من زمان .. وأهو بدل ما يطلقها ،  
عرف عليها .



■ كلام سكات ■

ومرت بجانبنا سيارة فيها بعض الشبان .. يبدو أنهم من  
طلبة الجامعة واحد منهم شعره أصفر .. والثاني تخين وشكله  
مضحك .. والثالث جالس على حافة نافذة السيارة وجسمه  
خارج منها .

وصاح الأشقر :

- البنطلون الأحمر يكسب .

وابتسمت أنجى .

إن أنجى لا تستطيع أن تمشى مشية رياضية .. إنها تمشى  
كأنها فى عرض أزياء .. وبنطلونها يبرز كل قطعة من  
جسدها.. عيب .. ما يصحش .. وبرغم أنها طيبة ، ودمها  
خفيف ، إلا أنها أحيانا تزودها حبتين .

إنى لا أطيق الشبان الشقر .. إنهم أقرب إلى البنات .

وعادت روحية تقول :

- وتعرفوا خديجة عملت إيه .. راحت بنفسها على الشقة ..

وهجمت على البنت الطليانية ونزلت فيها بأديها ورجليها ..  
ماخلتس فيها .

وقالت أنجى :

- ياي ..

وقلت :

- تبقى غلطانة .. كان لازم تحترم نفسها .. ثم إن الست

ذنبتها إيه .. الذنب ذنب الراجل .. والحساب يبقى مع الراجل .

وعادت روحية تقول :

- ما هى حسنية كانت أعقل يوم ما ظبطت جوزها ..

تعرفوا عملت إيه .

■ كلام ستات ■

وارتفع صوت رجل من ورائها يقول :  
- أموت فى الشيش بييش .  
إنى أحتقر الرجل الذى يتلهف على قوامى .. إنى أعرف أن  
قوامى مثير ، ولكن الرجل يجب أن يضبط أعصابه .. ولكن ..  
كيف رأى هذا الرجل نظارتى وهو يسير خلفنا .  
وحيرنى هذا السؤال .  
وقالت روحية :  
- يوم ما حسنية عرفت أن جوزها .  
وقبل أن تتم ، انطلق كلبى روك يجرى وراء قطة .  
وصرخت :  
- روك .. روك .. تعالى هنا .. با أقولك تعالى هنا .  
وصاح الرجل الذى يسير وراءنا .  
- ماتزعليش يا قطة .. الكلب حايرجع لك .. كل الكلاب  
تحت أمرك .  
وفجأة وقفت بجانبنا سيارة .. وأطل منها وجه رجل ، وقال  
مبتسما :  
- أنجى هانم .  
وشهقت أنجى ، ثم التفتت إلينا وقالت فى ارتباك :  
- ده محمود ابن عمى .  
وقالت روحية وهى ترفع حاجبها الرفيع :  
- ابن عمك من أمتى !  
وقالت أنجى :  
- اخص عليكى ياريرى ، مش مصدقانى .. تعالوا أعرفكم  
بيه .

وقلت :

- لا .. لا يا أنجى .. أنا ماحبش أتعرف بحد فى الشارع .  
وقفزت أنجى نحو السيارة وصافحت الرجل المبتسم ،  
وأخذت تتحدث معه .

إنه رجل عجوز .. أكبر من أنجى بكثير .. وإن كانت روحية  
تؤكد أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره .

وعادت أنجى إلينا بعد حديث طويل .. وقالت :

- عن إذنكم يا جماعة .. محمود بيقول إن مرات عمى عيانة  
قوى ، ولازم أروح أقعد جنبها .

وقلت فى حدة :

- احنا ما اتفقناش على كده يا أنجى ..

وقالت أنجى :

- وأنا إيه كان عرفنى أن مرات عمى عيانة .. ده محمود  
كان جاي لى البيت دلوقتى ، علشان يقول لى .

وقالت روحية :

- حلال عليك يا ستى .

وقالت أنجى ضاحكة :

- لا والنبى يا روحية .. ماتبقيش وحشة أمال .. أنا بعد  
نص ساعة حاكون فى البيت .. يدوبك أطل على مرات عمى  
وأرجع على طول .

وقفزت أنجى فى السيارة بجانب الرجل المبتسم .

ومشيت أنا وروحية .. مشية رياضية .. الظهر معتدل ..

والبطن مشفوط .. والرأس مرفوع .. وبيننا صمت ووجوم .

وعاد روك من وراء القطة ، وسار بجانبى .

■ كلام ستات ■

وقطعت روحية الصمت قائلة :

- بأه دى عمايل تعملها أنجى .  
وقلت لها :

- ما انتى عارفة أنجى يا روحية .. يعنى مش عارقاها ..  
وقالت روحية :

- بس مش كده .. طيب ده أنا ممدوح قعد يتحايل على فى  
التليفون إنه ييجى يتمشى معانا ، مارضيتش .. قال لى إنه  
حايمشى ورانا بالعربية برضه مارضيتش ، قلت له إن شفتك  
مش حايجصل لك طيب .. أصل كل حاجة ، لها أصول ..  
الواحدة ما تكونش بالشكل ده .  
قلت :

- إنتى لسه بتعرفى ممدوح .  
قالت :

- أعمل إيه .. مش راضى ينكشج أبدا .. مش سايبينى  
أتنفس لوحدى .

والرجل لا يزال يسير خلفى ، وقال بعد أن كح كحة غليظة :  
- أجيب تاكسى أنا كمان .  
وقلت لروحية :

- شفتى الراجل بيقول إيه .. طبعا .. بعد ما شاف اللى  
عملته أنجى ، من حقه يتجرأ علينا .  
وقالت روحية :

- إنما تعرفى أن ممدوح مخلص صحيح .. ده شاف منى  
الويل .. وبرغم كده مخلص .  
قلت :

■ كلام سكتات ■

- بس إنتى حقتك تعقلى بأه يا روحية .. ده ضفر جوزك  
بعشرة زى ممدوح .

وقال الرجل الذى يسير خلفى :

- يعنى لازم أجيب عربية ملاكى .. بكرة ربنا يفرجها .. أنا  
موظف فى وزارة التموين .. وكلها شهرين وأكمل حق عربية  
نصر ١١٠٠

وقالت روحية :

- ومين قال لك إنى أقدر أستغنى عن جوزى .. حقه  
مالكيش حق .. إنما أعمل إيه .. ما هو كمان قاعد فى مكتبه ليل  
ونهار .. ويخرج سرحان ، ويرجع سرحان .

وقال الرجل الذى يسير خلفى وهو يصفر لروك :

- روك .. روك .. تعالى أما أقول لك كلمة تقولها لستك ..  
وإذا بروك يذهب إلى الرجل فعلا .

والتفت خلفه وأنا أصيح فى عصبية :

- روك تعالى هنا .

ولكن روك يلحس يد الشاب ، ويهز له ذنبه .

وقال الشاب وهو يرفع إلى عينيه :

- أنا نفسى أصحاب روك .. عندك مانع .

وقلت فى حدة :

- من فضلك .. أنا ما أعرفكش .

ثم استدرت للشاب ، وقلت لروحية :

- ياللا بينا نرجع يا روحية .

إنه شاب صغير .. لا يزيد على الثانية والثلاثين .. وهو

يضع نظارة مثلى .. ولكن نظارته أسمك بكثير من نظارتى ..

■ كلام ستات ■

وعيناه تطلان من خلفها ، كأنهما نجمتا الصباح .. وشاربه صغير أنيق .. ولكن حلتة لا تعجبني .. ذوقها بلدى .. وكرافتته تقرف .. ويشبك فيها دبوسا .. إني أكره الرجل الذى يشبك دبوسا فى كرافته .



وعدنا إلى البيت ..

وقد اتصلت بأنجى بمجرد وصولى فلم أجدها قد وصلت إلى بيتها .. واتصلت بها بعد ساعة أخرى فلم أجدها قد وصلت .. وفى الساعة الثامنة مساء اتصل بى زوجها فى التليفون وقال فى ضيق :

- أنجى عندك ..

وبلعت ريقى وقلت :

- كانت عندى هى وروحية ، ولسه نازلين دلوقتى .. زمانها جاية لك .. أصلنا خرجنا نتمشى علشان الرجيم ، وبعدين عزمتهم على الشاى عندى .. وازيك يا رحمى بيه .. أخبارك إيه.

وقال رحمى بيه :

- كويس .. بونسوار بأة .

ووضع السماعة ..

إنى أكره نفسى عند ما اضطر أن أكذب .. وأنجى تضطرنى دائما لأن أكذب .

وفى اليوم التالى خرجت لأتمشى أنا وروحية .. لم نأخذ أنجى معنا .. حتى لا يبوظ الرجيم .. بل إنى من يومها قاطعت أنجى .. تصوروا .. أنها تذيع عنى فى كل مكان أنى أحب

■ كلام سكتات ■

موظفا فى وزارة التموين .. يضع على عينيه نظارة .. ويشبك  
فى كرافتته دبوسا .. وعنده سيارة نصر ١١٠٠ .. بل إنها  
تقول إنى أنا الذى اشتريت له السيارة .  
أعمل فيها إيه يعنى .  
ربنا يسامحها .

  
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية

## الفهرس

### الصفحة

|     |       |                       |
|-----|-------|-----------------------|
| ٥   | ..... | علبة من الصفيح الصدىء |
| ٤٤  | ..... | كل هذا الحب           |
| ٦٤  | ..... | الله .. الله .. يا ست |
| ٧٢  | ..... | المدرسة الحديثة       |
| ٨٠  | ..... | غابة من السيقان       |
| ٩٥  | ..... | عبد الله .. وفاطمة    |
| ١٠٥ | ..... | كل هذا الجمال         |
| ١١٥ | ..... | اكتشاف الألومنيوم     |
| ١٢٦ | ..... | الهزيمة               |
| ١٤٠ | ..... | لا تذبحوا الفراخ      |
| ١٥١ | ..... | صائد الغزال           |
| ١٦٢ | ..... | القضية الأخيرة        |
| ١٧٢ | ..... | الحب والعدالة         |
| ١٨١ | ..... | وسام للمتهم           |
| ١٨٩ | ..... | غلطة حبيبي            |
| ١٩٩ | ..... | العقل الكبير          |
| ٢٠٧ | ..... | أزمة المثقفين         |
| ٢٢٠ | ..... | حبيبي أصغر منى        |
| ٢٣١ | ..... | استقالة عالمة الذرة   |
| ٢٤٣ | ..... | كلام ستات             |



رقم الإيداع ٧١٣٤/٩٩

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 08 - 0823 -7

طبع بمطابع دار أخبار اليوم

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)



قرش جنيسه  
٩٧٠٠ د

طبع بمطابع اخبار اليوم

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)